www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

يوسف الشريف

زكريا الحجاوى

موال الشجن فى عشق الوطن

دار الشروق

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

زكريا الحجاوى

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

زكريا الحجاوى

موال الشجن فى عشق الوطن

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

يوسف الشريف

دار الشروق

إهـــــداء

إلى المفكر والكاتب الكبير وصديق العمر الجميل
الأستاذ محمد عودة الذى سعدنا بصحبته زهاء ٤٥
عاما.. نهلنا خلالها من فيض علمه وتجاربه ومبادئه ما
يفوق إدراكنا المعرفى عبر الدراسة والقراءة.. له منا
جزيل الشكر والتقدير والعرفان بالفضل والدعاء
الخالص بموفور الصحة وطول العمر

يوسف الشريف

المحتويـات

وهبه الله روحا شعبية ١١

حلم الوفاء بالدين ١٣

شجرة الجميز ١٥

عندما طلب لى كوبًا من الشاى ١٧

فـرقـة الشـارع والحـارة ٢٠

الاشتراكية تجلب النعاس فى المنوفية ٢١

كهنة كل العهود ٢٣

غنخ شـاشنقى ٢٤

عم محمد الخضرى ٢٧

الموسيـقى تجـذب الأسـماك إلى الشبـاك ٢٩

غدر البحر وتبعاته ٣٠

العشماوى باشا على التليفون ٣١

رب أخ لى لـم تلده أمى ٣٣

تبـديد عـهـدة البطاطين ٣٤

جـمـعـيـة الأطواق ٣٦

تهريب السادات من قصر العينى ٣٨

www.books4all.net

منتديات سور الأزبكية

البحث عن الذات ٤٠
عاشق المداحين ٤٢
رحيق النحلة و«سويتش» الحكمة ٤٤
خشونة الصوت الجميل ٤٧
أمير الصعاليك ٥٠
أبو الفتح أقوى صحفى والمصرى أقوى صحيفة ٥٢
عبد الرحمن الخميسى ٥٤
أم العروسة ٥٥
الإعدام المدنى ٥٧
الزوايا المظلمة ٥٩
بلدى يا بلدى ٦١
عبد الحليم نويره فى البرارى ٦٣
سهراية يحيى حقى ٦٤
٧٢ ملحمة و١٢٠ مسلسلاً إذاعيًا ٦٥
جيهان السادات فى سرادق الحسين ٦٧
حكاية اليهود ٧١
بيجماليون ٧٥
لا يؤمن بمبدأ الصدفة ٧٦
اللغة الديموقراطية ٧٧
الحمقاوية ٧٩
أين أغانى الفتوات؟ ٨١
قهوة محمد عبد الله ٨٥

مسافر على الرصيف ٨٧
من سوق الحد لساقية مكى ٨٨
الساخر العظيم ٩١
حقير بنى أمية ٩٥
والدك كان فقى وألا من العلماء؟! ٩٧
خللى البهوات يأكلوا براحتهم ١٠٠
المهندس حسن فتحى ١٠١
فى حارة كوم الدكة ١٠٢
هل كان سيد درويش أميا؟ ١٠٥
البيانو العربى ١٠٩
فن المربع ١١٠
الشعر غريزة العرب ١١٥
الأسطورة الخضراء ١١٧
هجمة الغيلان فى قطر ١٢٤
فن الغوص ١٢٦
يا نار شبى فيه ١٣٠
«النصابين» و«الكوتشنة» ١٣١
الطيب والمجنون والهايف المزعوم ١٣٣
كامل الشناوى ومعشوقاته «المنيون» ١٣٤
الزواج مع سبق الإصرار والترصد ١٣٦
أم كلثوم على كوبرى عباس ٣٧
أنيسة ومحشى الباذنجان ١٣٩

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

خضرة وزوجها جزار الجمال ١٤٠
الزفاف فى شوارع إمبابة ١٤٢
اهتزت شجرة الكافور وفاح عطره ١٤٣
سيارة السعدنى فى الترعة ١٤٥
سجاير «كوتاريللى» مخصوص ١٤٨
محنة أنور المعداوى ١٥٠
بائعة الدندورما ١٥٢
إتخرب بيتى واللى كان كان ١٥٣
أصوات النجفة تبطل الصفقة ١٥٥
فى خان الخليلى ١٥٨
عائد إلى حبيبتى مصر ١٦٠
مقامات وأزجال الوداع ١٦١
أول الغيث قطرة ١٦٤
وحوش الثقافة ١٦٥
ما قبل الرحيل ١٦٨
إمام المتكلمين ١٧٩
حمل فأسه وحظم الصخرة ١٨٢
خاتمة المسيرة لصاحب السيرة ١٨٤

وهبه الله روحا شعبية

زكريا الحجاوى ذكرى جميلة كالوردة اليانعة ذات العبير الدائم . .

قل من عرفت من الأصدقاء فى وفائه، ومروءته، وشهامته، وحبه لأصدقائه، بل ليس حبه لأصدقائه إلا دفعة من حبه الإنسانى للبشر جميعا . .

ولا أنسى، ما قرأت له من قصص قصار فى الصحف، فقد امتازت ببلاغتها الخاصة، وتعبيراتها المبتكرة، وكأن كل عبارة فيها من وحى إلهام سام وفن رفيع . وإن ما عرف به، وأضفى عليه الريادة . . فهو تعلقه بالفن الشعبى، ورحلاته فى أنحاء مصر لجمعه من مصادره، وتسجيله، وإحيائه فى الحفلات التى كان يقيمها . . ولا عجب أو غرابة فى ذلك، فقد وهبه الله روحا شعبية، عميقة، وصميمة، كأنما خلق لخدمة هذه الروح ومتابعتها فى مصادرها ومجالها . .

والله إنه ليسعدنى أن يصدر كتاب عن الحجاوى، فهو جدير بالحفظ والخلود، وطالما سعى إلى حفظ وتخليد كل ما هو جليل وجميل .

نجيب محفوظ

١٧/ ١/ ١٩٩١

فاتحة الكتاب

حـلم الوفـاء بالديـن

منذ رحيل الكاتب والأديب الفنان زكريا الحجاوى عن دنيانا الفانية عام ١٩٧٥، وشعور طاغ ممض يلهب ضميرى بسياط الذنب كلما تذكرت أيامى السعيدة معه، إذ كيف طاوعتنى نفسى بالتقاعس عن الشروع فى وضع كتاب عنه، بينما ضمنت ذكرياتى ورؤياى لسيرة حياة الشاعر كامل الشناوى فى كتاب «آخر ظرفاء ذلك الزمان»، ثم تابعته وعلى غراره بالكتاب الثانى «القديس الصعلوك» حول سيرة حياة الشاعر الفنان عبد الرحمن الخميسى، ثم انتهيت مؤخراً بعشرة من فحول الظرفاء المبدعين عبر كتاب «صعاليك الزمن الجميل»، وبعدها تناولت بالعرض والتحليل وقائع مثيرة وشخصيات منسية تنتمى إلى ذلك النمط من المثقفين والفنانين والسياسيين الرواد ضمن كتاب «مما جرى فى بر مصر» الذى ينتظر دوره فى النشر عبر «دار الشروق».

ولعله من هنا السؤال عن الأسباب والمبررات التى وقفت عائقًا فى طريق صدور كتابى عن زكريا الحجاوى، رغم ما جمعنى وإياه من الأواصر الحميمة المفعمة بالفهم والإخلاص، ثم إن علاقتى به كانت مختلفة عن أقرانه الظرفاء والصعاليك المبدعين، عبر المعايشة اليومية له ليل نهار فى المقاهى والمنتديات فى الكثير من جولاته الميدانية باحثا ومنقبا فى البوادى والفيافى والبرارى عن منابع ومفردات الفنون الشعبية، وتلك السياحات الثقافية الممتعة التى كان يعرض خلالها عصارة ما جمعه من مفردات الفن الشعبى عبر الاحتفاليات الوطنية والمناسبات الدينية والمسامرات والمهرجانات الثقافية!.

والحق أننى لم أتردد ولا تقاعست عن الكتابة الموسمية عن زكريا الحجاوى كلما حانت الذكرى السنوية لرحيله فى صحف ومجلات عديدة، لكنى تهيبت المغامرة فى وضع كتاب شامل عنه كونه.. قيمة وقامة شامخة قد لا يطولها التسجيل والتعبير كما ينبغى

على نحو شامل ودقيق، وإذا كان المرض الذى ألم بى قد أعفانى من المهمة رغما عنى، فقد كان من الصعب على نفسى أن أرد لكريمة زكريا الحجاوى السيدة سوزان ما جمعته من كتابات والدها ودراساته عن الفنون الشعبية، على أمل أن ينهض غيرى من تلاميذه أو أصدقائه بالمهمة.

على أنه لم تمض سوى شهور حتى فاجأنى طيف زكريا الحجاوى مبتسما راضيًا فى حلم سعيد، كأنه كان ينتظر لحظة إفاقتى من المرض، واسترداد قدرتى على الوفاء بدينه الذى يطوق عنقى، وصدقونى أننى جلست بعدها على مكتبى فوراً وشبه مسحور، وإذا بالقلم ينساب تلقائيًا على الورق وهو يخط السطور الأولى فى هذا الكتاب.

بعدها واجهتنى خيارات متباينة حول نهج وأسلوب الكتابة عن هذا الفنان الأسطورة، ولعل هذا التباين كان الحل الأمثل على حد تقديرى لتجاوز هذه الاشكالية، عبر اعتماد منهج متعدد الرؤى والشهادات التى تسلط الأضواء الكاشفة على سيرة حياة زكريا الحجاوى من مختلف زواياها وعبر مراحلها العمرية والإبداعية، وذلك أن الحقيقة تحتمل أكثر من رأى، ولذلك سوف تجد عزيزى القارىء مدى حرصى على تنوع الشهادات وربما اختلافها أو تناقضها حول واقعة أو موقف ما، وأننى تركت لها المجال مهما طالت سطورها حتى تفى بالتعبير أو التحليل المطلوب حتى تكتمل الصورة والحياة التى كان عليها هذا الفنان العظيم.

أما عن أسلوب الصياغة المناسب فى الكتابة عن زكريا الحجاوى فلم تواجهنى إشكالية ما، إذ كانت عملية المراجعة المتأنية لإبداعاته وما رواه من أحاديث وحوارات أو شروح لمفردات الفنون الشعبية تفى بالغرض المطلوب، عبر اعتماد طريقته المعروفة فى الحكى، إذ كان يرحمه الله قمة فى التألق حين يشرع إلى الحكى الممتع وسط جمهرة المحدثين وفحول الظرفاء الذين كانوا يأخذون بألباب السامعين وإذا بهم يلتزمون الصمت طوعا فى حضوره كما لو أنهم فى حضرته عنوان للمثل القائل «إذا كان الكلام من فضة.. فالسكوت من ذهب»!

شجـرة الجمـيز

لكأنه شجرة الجميز حين كانت أبرز معالم الجمال فى الريف المصرى، والتجسيد الحى لتقاليده العريقة فى الجود والكرم، تستمد نماءها الباسق من خصوبة طمى النيل وترتوى من عذوبته، يستجير المارة وركائبهم من هجير الصيف «ونقحة» شمسه اللافحة تحت أغصانها المتشابكة وأوراقها الوارفة، يلتقطون من ثمارها «المختونة» التى تنضح حلاوة دون حاجة لاستئذان صاحبها ما شاء لهم هنيئا مريئا حتى يشبعوا بلا مقابل أو حتى كلمة شكر!

فلما داهمنا زمان الانفتاح على البهلى وتحول الريف المصرى من الإنتاج إلى الاستهلاك، وراح الفلاحون يشترون الخبز جاهزا، والدجاج مجمدا، من ثم جار الزمان الردىء كذلك على شجرة الجميز مع الزيادة المطردة للسكان، والحاجة الماسة إلى مساحات جديدة من الأراضى الصالحة للزراعة، وهكذا جرى قطع دابر القديم، ولم يعد أحد يعنى بزراعة شجرة جميز جديدة ولو على سبيل الذكرى، على نفس ما آلت إليه شجرة «دقن الباشا» وشجرة «التمر حنة» وكلاهما كان يعبق أنسام الريف والحضر بالعطر الفواح، لكأننا المعنيون إذن فى المثل الشعبى القائل «من فات قديمه تاه».

وتلك ـ والله ـ كانت شجرة زكريا الحجاوى الثقافية وشمائلها، ولعلها تذكرنا بحكيم الصين العظيم كونفوشيوس، فقد زرع نبت شجرة قبل وفاته منذ ثلاثة ألاف عام، ولا تزال حتى اليوم عفية ومورقة، تذكر بما كان عليه من دأب وإخلاص وإنكار للذات، حتى يسعد الصينيون ويفخروا بكنوز اكتشافاته لموروثهم الشعبى الحضارى الزاخر بالحكمة والخير والجمال، وهكذا ضمن لنفسه المجد والخلود بعد رحيله، بينما أخلص تلاميذه فى التنكر له بعد أن وصلوا إلى سدة السلطة والنفوذ، وعلى غراره كان حال عمنا العظيم زكريا الحجاوى، فهو قد ذاق كئوس الجحود حتى الثمالة على يد تلاميذه الذين صنعهم على عينه، وكنت شاهدا على جحودهم عندما لم يأبهوا له وأسرته حين ألقت بها وبأثاثها

المقادير فجأة إلى عرض الطريق، بل وبخلت عليه الدولة بالتكريم والإنصاف إلا بعد رحيله، فيما قنع تلاميذه بذكرياتهم عن مآثره فحسب!

وإذا كان أجل وأعظم ما قدمه كونفوشيوس إلى الأدب الصينى الرفيع مجموعة الأغانى الشعبية القديمة التى استقاها ـ وهو الأمى ـ من أفواه الرعاة والفلاحين والعامة فى البرارى والريف والجبال، وبها أصبح عميد الأدب الصينى، فذلك كان دور زكريا الحجاوى المثقف العصامى الذى أفنى عمره وبدد جهده ورزقه المتواضع حتى يظل سندباد مصر الذى جاب فيافيها ـ بشهادة صديقه الأديب الكبير يحيى حقى ـ باحثا عن موال أو شطرة من مطلع موال، أو أسطورة منسية، وربما صوت شجى أو مرجعية فى الأدب والفن الشعبى!

ومنذ وارينا جثمان زكريا الحجاوى تراب الكنانة عام ١٩٧٥، ولا يزال يستبد بى شعور طاغ بأن روحه رفضت ولا تزال ترفض الدفن والإندثار بعد مضى أكثر من ربع قرن، ربما لأنى تأثرت بمسرحية «ثورة الموتى» التى كتبها إروين شو، وكيف أن الجنود الأمريكيين الذين ماتوا فى حرب فيتنام يرفضون الدفن احتجاجًا على الزج بهم فى تلك الحرب القذرة!

وليس معنى ذلك أن نطالب بجنازة جديدة لاسترضاء روح زكريا الحجاوى وإدانة أو محاكمة الذين لقى منهم جزاء سنمار، وإنما مجرد تحقيق الهدف الثقافى والوجدانى الذى نذر له حياته، عبر إعادة الاعتبار المؤسسى للفن والأدب الشعبى، بالتزامن مع ما سعى إليه صديقه الأثير الفنان الراحل عبد السلام الشريف رائد المدرسة المصرية الحديثة فى فن الإخراج الصحفى، إذ كان يرى فى وجه زكريا الحجاوى شبها شديداً بملامح تمثال الكاتب المصرى القديم فى العصر الفرعونى، واقترح عهدئذ على صديقهما المشترك عبد المنعم الصاوى وزير الثقافة الأسبق نحت تمثال له يتم وضعه فى ساحة أكاديمية الفنون، الجسد للكاتب المصرى الذى يجلس القرفصاء والوجه لزكريا الحجاوى!

والشاهد أن المثال الكبير كامل جاويش كان قد شرع فى نحت التمثال بالفعل عام ١٩٧٦، وقمت بزيارته فى «أتيليهه» الخاص بالهرم وكان قد أنجز نصف العمل بالفعل، لكنه توقف بسبب تراجع وزارة الثقافة عن استكمال تمويل المشروع، ورحل كما رحل عبد المنعم الصاوى، وهكذا ظل سوء الحظ والتجاهل يتعقب زكريا الحجاوى حتى بعد مماته، فهل آن الأوان حتى يحظى ذلك الفنان بالتكريم الذى حظى به البعض ممن لم يطاولوا نصف قامته من المبدعين والمثقفين والباحثين!

والحقيقة أننى عشقت زكريا الحجاوى من وهلة اللقاء الأول، حين صحبنى إليه أوائل الخمسينات صديقى فنان الكاريكاتير المخضرم أحمد طوغان، وأذكر أنه كان منهمكا فى الحوار مع جمع من مريديه، فلم يتسن التعرف عليه شخصيا فى تلك الليلة، لكنى داومت بعدها التردد على منتداه الليلى فى قهوة محمد عبد الله بميدان الساعة فى الجيزة قبيل شهور من إغلاقها، وبعدها اختار لمنتداه مقهى «صان صوصيه» ملتقى كبار الموظفين وأعيان الريف شتاء، وكازينو شهريار المطل على النيل صيفًا، وكلاهما كان على بعد خطوات من مقهى محمد عبد الله التى ذاعت شهرتها ودخلت تاريخنا الأدبى المعاصر من أوسع أبوابه بعد ما رواه الكاتب الكبير محمود السعدنى عنها وضمنه كتابه الممتع «مسافر على الرصيف» حول أنماط المشاهير وصعاليك الأدباء والشعراء والفنانين والصحفيين الذين كانوا يترددون عليها، وعن أجوائها الزاخرة بالحوارات الذكية ودفء المؤانسة فضلا عن مشاكسات الصعاليك والظرفاء وصولات المتكلمين، إذ كان زكريا الحجاوى بشخصيته الآسرة وثقافته الموسوعية وتجاربه الثرية كما ناظر المدرسة أو شيخ الطريقة، يأتون إليه من كل فجاج مصر المحروسة للاستماع إلى حديثه وحكاياته وتوجيهاته، والاستمتاع باكتشافاته الجديدة فى دروب التاريخ والأدب والفن الشعبى!

عندما طلب لى كوبًا من الشاى

كان عالمًا جديدًا بالنسبة لى فى كل شىء، وربما لذلك فضلت السكوت فى ذلك المساء البعيد وأطلقت لفضولى العنان، حتى انتهت السهرة بكم وافر من المعارف الثقافية والمتعة الروحية، لكأنى قرأت كتابا جيدا فى يسر أو شاهدت مسرحية شائقة فى شغف، وإلى حد استعادة ما وعيته مرارًا كما لو أنه شريط مسجل لأغنياتى المفضلة!

فلما كان مساء اليوم التالى والذى بعده على مدة نحو أسبوع، كنت أتخذ لنفسى مقعدًا فى المقهى على مقربة من منتداه، أسمع وأرى، وفى كل ليلة كانت وجوه جديدة تأتى، وكان موضوع السهرة يتغير من الأدب إلى الفن إلى السياسة إلى التاريخ، بينما كان الحجاوى القابض دوما فى سلاسة ولطف على ناصية الحديث، وأحيانًا يقدم مطربًا شعبيًا أو عازفًا موسيقيًا، وربما شاعرًا واعدًا أو قاصا موهوبا غض الإهاب!

وحتى دخل محمود السعدنى المقهى ذات ليلة بقضه وقضيضه، فلما رآنى صافحنى

ودعانى للاقتراب بمقعدى إلى مجلس زكريا الحجاوى وقدمنى إليه ـ فبادرنى يسأل : بقالك كام يوم بتيجى القهوة يا أستاذ وتقعد بعيد . . حكايتك إيه؟ ، وقلت له على استحياء : حكايتى حكايتك يا أستاذ زكريا و . . عندئذ أدرك بذكائه ولماحيته مدى انجذابى إليه وشغفى به دون أن يعاود السؤال عن التفاصيل ، حيث جرى اعتمادى واحداً من تلاميذه أو مريديه بمجرد أن طلب لى على حسابه كوبا من الشاى ، وبعدها راح يشركنى أحيانًا فى الحديث وقد استبدل اسمى بكنايته «أبو حجاج» زيادة فى الترحيب والود وإعلان الرضا والقبول ، إذ كان يؤمن بسياسة الباب المفتوح وحسن الظن فى علاقته بالناس ، وكانت له دراية بطبائع البشر وفراسة فى اكتشاف أسرارهم وخباياهم قلما تخيب كما لو أنه ولى من أولياء الله الصالحين!

ورغم أننى مشاغب بطبعى وفضولى كذلك ، إلا أن زكريا الحجاوى لم يفرغ معى صبراً حتى وضعنى فى «الفورمة» ، وأعاد صياغتى نفسيا وثقافيا على نار هادئة ، وأشهد أنه كان حانيا رقيقا فى توجيهاته ونصحه بشكل غير مباشر ، كأن يروى على مسامعى حكمة أو قصة من الحياة أو التاريخ وربما من تأليفه تشى بخطأ ارتكبته أو نزوة استبدت بى ، إذ كان معياره للحرية الشخصية موصولا بحرية الآخرين وتجنب الإساءة لهم ، فكان يقول لنا دائما «عاملوا غيركم بمثل ما تحبون أن يعاملوكم به ، وتغاضوا عن أخطائهم . . ويا بخت من بات مغلوب ولا بات غالب» . . حتى أننى لا أكاد أذكر زجره لإنسان بخشونة اللهم إلا من باب الدعابة وممارسة السخرية مع أصدقائه . . كما وأنه لم يكن يسمح لنفسه ولا لغيره اغتياب أحد فى مجالسه!

أذكر وهو كان شديد السخرية من مساخر الخيال ، أن المرة الوحيدة التى خرج فيها عن طوره ، عندما ابتلى بضابط شرطة سابق من أدعياء الإبداع الأدبى أوائل الخمسينات ، وهو كان على حد تقدير زكريا الحجاوى على شفا خطوات على هذا الدرب ، فيما لو تعهد نفسه بالقراءة المنهجية والإلمام بجماليات اللغة العربية ونحوها وصرفها ، وكثيرا ما وجهه شطر التحصيل والصبر على المعرفة ، لكنه ظل يعتقد أن الإبداع أو استدعاء الخيال والإلهام أشبه بتلبية الأوامر العسكرية ، فكان يقتحم مجالس زكريا دون إحم ولا دستور ويصدع رأسه بكم من قصصه المحجوبة عن الفن واللغة السليمة . .

ذات مساء كان الأديب الضابط أو الضابط الأديب قد ذهب إلى قهوة محمد عبد الله عندما عرف من الجارسون أن مجلس الحجاوى قد انقضى منذ دقائق ، وأنه فى طريقه إلى النزهة كعادته على كوبرى عباس . . ومن ثم راح يركض فى أعقابه حتى لحق به وكان

جمع من أصدقائـه ومريديه فى صحبته، ودون سلام أو تحية مد يده اليه فى تحد بأول نسخة تخرج من المطبعة لمجموعته القصصية التى كان يفرض علينا الاستماع إليها تباعًا واحدة إثر أخرى، ثم فى سماجة وجليطة سأل زكريا: تحب أكتب لك إيه فى الإهداء يا أستاذ!

ورد عليه فى سخرية: ما بلاش إهداء أحسن!

قال: لا والله.. لازم أكتب لك الإهداء اللى يعجبك!

عندئذ صوب زكريا سهام نظرات الغيظ إليه لحظات كما لو أنه يفكر فى الخطوة التالية أو الدرس الأخير الذى يجب أن يدركه ذلك الضابط الأديب.. وفجأة اختطف مجموعته القصصية وطوح بها فى الهواء حتى سقطت على صفحة النيل، ثم التفت إليه وقال: قبل حرفة الأدب يا أستاذ يلزمك التأدب وشىء من الذكاء الاجتماعى.. أنا والله احترت فى أمرك.. وموش عارف ليه أنت مقبل على الحياة هكذا بلا سبب!

ومرت سنوات حتى كان هذا الضابط الأديب قد وعى الدرس واستفاد من نصائح زكريا، حيث أقبل ـ على ما يبدو ـ دون كلل ولا ملل على القراءة المنهجية، على نحو ما تكشفت عنه إبداعاته الأدبية الجيدة فيما بعد، وإلى حد تفوقه على البعض من أقرانه الأدباء، ثم يشاء حظ زكريا الحجاوى العاثر أن يصبح مرؤوسا له، وأن يذيقه ألوانا من المر والحنظل، وحتى وصل الخلاف بينهما حول قضية الفنون الشعبية إلى طريق مسدود، حيث صدر قراره ـ إمعانا فى الانتقام والتنكيل ـ بإبعاد زكريا عن هذا المجال الذى نذر له حياته وجهده، مقرونا بحل فرقة الفنون الشعبية التى استنفدت من وقته وجهده الغالى والرخيص حتى قدر له أن يجمع عناصرها من مختلف ربوع مصر.. سواء من المطربين والمداحين والغوازى والعازفين الحاذقين على الربابة والسمسمية والطنبور والطبلة والدف!

كنت شاهدا على ذلك بالمصادفة البحتة، حين تغيبت عن مجالسه وقتا غير معهود، وذهبت وتلميذه طوغان رسام الكاريكاتير إلى مقر عمله بوزارة الثقافة دون أن ندرى شيئا مما حل به، حيث استقبلنا بابتسامة كسيرة وهو جالس على مقعد فى الصالة بين غرف الموظفين بعد عزله من وظيفة مستشار الوزارة لشئون الفنون الشعبية، وإغلاق مكتبه بالضبة والمفتاح!

ولا زلت أذكر دموعا ترقرقت فى عينى طوغان بعد أن غادرناه وقال: تصور أن زكريا

كان يمر عليه أيام لا يجد فيها ستة مليمات ثمن تذكرة أتوبيس «سانت كروفت» أو خمسة مليمات ثمن تذكرة الترام، فكان يمشى على قدميه ذهابا وإيابًا لمباشرة عمله رفيع الشأن. . إذ كان وقتئذ فى الأربعينات سكرتير تحرير صحيفة المصرى واسعة الانتشار.

وتساءل طوغان: لم أعرف لزكريا على مدى صداقتى به ثمة ما يشغله فى حياته سوى الثقافة بوجه عام ورعاية طابور المثقفين الشبان الذين يقتفون أثره، ماذا لو كان زكريا مواطنا فى أى دولة متقدمة ومتحضرة. . ألم يكن يستحق أن تتوافر له كل أسباب الراحة والعيش الكريم حتى يواصل رسالت الثقافية المتميزة بلا منغصات. . ألم يكن يستحق إطلاق اسمه على معهد أو مركز ثقافى وأن تقام له التماثيل من باب التكريم والوفاء بالجميل؟!

فرقة الشارع والحارة

على أن السؤال ظل يشغل بال أصدقاء وتلاميذ زكريا زهاء ثلاثين عامًا، عن الأسباب الحقيقية وراء الخلاف الذى حدث بينه وبين وزارة الثقافة إلى حد التنكيل به، وكنا قد سمعنا من بعض العالمين ببواطن الأمور فى الحقل الثقافى، أن زكريا كان قد أصر على ضرورة الاهتمام بكل ألوان الفنون الشعبية بشكل مؤسسى، لا أن يقتصر الأمر على الجوانب المظهرية وتقديم عروض فرقته للفنون الشعبية فى المناسبات، وبعدها يسعى هو وأفرادها إلى القعود وانتظار الفرج كعمال التراحيل، حتى اكتشفت السر بينما أتفحص بدقة محتويات الحقيبة الخاصة التى خلفها وراءه، وضمت عناوين إبداعاته الإذاعية وكتبه ومقالاته، وأبحاثه، وسجل نشاطاته!

كان السر فى المذكرة التى تقدم بها إلى الوزارة وأصر على تنفيذها، ولعلها تشى بثراء تجاربه وأفكاره ورؤاه فى بعث وإحياء الفنون الشعبية. . ودون حاجة إلى نشر نص المذكرة حرفيا غفلا من عبارات السخرية التى وصف بها المختصين الذين اعترضوا على المذكرة من حيث المضمون والأهداف والآليات وسجلها بخط يده، فقد كانت تتضمن وضع الخطط التى تتيح لمختلف المحافظات التواصل الثقافى والوجدانى مع الفنون الشعبية، عبر تكوين فرق للغناء والرقص الشعبى خاصة بالوجهين البحرى والقبلى، والبدء فى تشكيل نواة للفرق التى تقدم فنون الشارع والحارة والقرية، وبينها: المداحون ـ شاعر الربابة ـ

مغنى الموال ـ «الصهبة» أو «الضامة» ـ أولاد رمر ـ الأراجوز ـ المنشد الدينى ـ طقوس الذكر . . إلخ .

على أن ما أدهشنى حقا مطالبة زكريا الحجاوى فى هذه المذكرة بصرف مبلغ ألفى جنيه فحسب نظير أجور العاملين فى فرقة الفنون الشعبية التابعة للثقافة الجماهيرية مقابل إحياء ستين حفلا ما بين عامى ٦٩ و ١٩٧٠ ، ومع ذلك رفضت الوزارة تنفيذ هذه المشاريع بدعوى أن البند لا يسمح وأنه ليس ثمة حاجة ولا قيمة لهذه الفنون!

الاشتراكية تجلب النعاس فى المنوفية

ولأن الشىء بالشىء يذكر . . فقد نوهت تلميحا لا إفصاحًا بواقعة الخلاف بين زكريا ووزارة الثقافة فى مقال نشرته روزاليوسف إثر وفاته عام ١٩٧٥ تحت عنوان «زكريا الحجاوى حيًا و . . قلت :

«قاد وزير الثقافة ثروت عكاشة إبان المرحلة الناصرية قافلة تضم عددا من كبار الصحفيين والمفكرين وبعض الممارسين للعمل السياسى سراً وعلانية . توقفت القافلة عند قرية صغيرة بمحافظة المنوفية وأضيئت المصابيح الكاشفة حتى تحول ليل الريف إلى نهار ، وكان المطلوب من هؤلاء أن يخطبوا فى الفلاحين عن ثورة يوليو وتبنيها للاشتراكية وأنها السبيل الوحيد إلى الرخاء والعدل والمساواة وإنصاف المعدمين والشغيلة ، ورغم تعاقب الخطباء فى شرح النظرية الاشتراكية من مختلف زواياها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، إلا أن الفلاحين تخلوا على غير العادة عن كرمهم ومجاملاتهم للضيوف حتى أن بعضهم استبد به النعاس ثم غط فى سبات نوم عميق مسموع ، أما الذين لم يناموا بعد . فكانت ملامحهم تشى بقلق وانزعاج بالغين إزاء هؤلاء الأفندية الذين جاءوا من القاهرة حتى يفسروا ذلك اللغز الغامض المسمى بالاشتراكية . . وحتى أوشكت الأمسية أن تحقق عكس أهدافها تمامًا .

وعندما انتهى الخطيب الرابع طلب ثروت عكاشة من زكريا الحجاوى إنقاذ الموقف ، وكان من الممكن أن يعتذر إذ لم يكن اسمه مدرجا ضمن قائمة الخطباء ، كما أن الخلاف بينه وبين بعض المسئولين عن الثقافة كان على أشده حول قضية الفنون الشعبية التى وهب لها حياته ، حتى وصل الخلاف إلى حد إبعاده عن هذا المجال ، بل إلزامه بالتوقيع فى دفتر

الحضور والانصراف من الوزارة دون عمل يؤديه وهو الذى اعتاد رحابة الحياة والجزع من «شغل» المكاتب و«حبسة» الجدران وعشق العمل وسط البسطاء وأبناء الريف والعمال والسواحلية!

لكن شهوة زكريا الحجاوى للكلام وولعه بمغازلة آذان مستمعيه وإيمانه العميق بالاشتراكية، جعلته يستجيب لرجاء ثروت عكاشة، فما كان منه إلا أن ابتعد عن الميكروفون وقفز من المنصة ثم وقف وسط جمع الفلاحين يطلب منهم أن يقتربوا منه ويلتفوا حوله و. .

صلوا بينا على النبى!

عليه الصلاة والسلام!

فلما أيقن أنهم تهيأوا لسماعه ولهفتهم لمعرفة القول الفصل حول لغز الاشتراكية من مفتى الفنون الشعبية، عندئذ راح يحدثهم بلغة المصطبة التى ألفوها، وهكذا تدافعت على شفتيه العبارات الريفية المأثورة غاية فى السلاسة والعذوبة والتألق، ذكرهم بالعديد من الأمثال الشعبية التى تتردد فى ريف المنوفية بوجه خاص حول التعاون والتكاتف والمشاركة وتقاليد القرية الموروثة عن الأجداد والأسلاف، التى تحض على هذه المبادىء والقيم، وعن «صينية العشاء» التى تعودت العائلة فى الريف الاجتماع حولها فى المساء، وكل فرد يمد يده لتناول قدر حاجته من الطعام، بعد أن ساهم طوال النهار فى العمل بالحقول بقدر طاقة كل منهم على العطاء واللى بنشتغل من زمان على هداها من غير اسم، ودى بقى يا إخوانى هية «الاشتراكية» اللى بيقولوا عليها، واللى استشهد من أجلها سيدى فلان وفلان من أولياء الله الصالحين وفلان وفلان من أبطال السيرة الشعبية اللى بنسمعها من شعراء الربابة ومطربى الموال الأحمر و. . هتف الفلاحون فى حماس «تعيش الاشتراكية»!

هكذا أنقذ زكريا الحجاوى الموقف بنجاح فائق، وتلك كانت أبرز معالم شخصيته الأسطورية عبر نجدة الملهوف وإنصاف المظلوم ومؤازرة فرسان الحكمة وأساطين الكلمنجية الساخرين من أوضاع المجتمع المقلوبة فضلا عن بساطته ومودته وحضوره الغامر ونظرته الفاحصة كجواهرجى يميز بين معادن الناس وأسلوب التعامل معهم، والتأثير فى وجدانهم قبل عقولهم مهما اختلفت طبقاتهم أو ثقافتهم أو غرابتهم!

كهنة كل العهود

على أى حال فقد كان الجحود أو الانتقام العبثى الذى لاقاه زكريا الحجاوى على يد ذلك الضابط الأديب المتنفذ، بمثابة الفاجعة الثانية التى تجرع مرارتها فى حياته، وإن شئنا الدقة فى المرحلة التى عشتها فى رحابه وكنت خلالها قريبا منه. . أما الفاجعة الأولى والثالثة وغير ذلك فسوف تأتى مناسباتها تباعًا!

ومن عجب أن الفواجع التى ابتلى بها زكريا الحجاوى على يدى بعض المتنفذين فى السلطة، كانت عنوانا للمثل القائل إن «المصائب لا تأتى فرادى» ولعلها مصداقا لحكاية طريفة وبليغة كان كونفوشيوس حكيم الصين قد رواها على تلاميذه، حين وجد امرأة وحيدة فى المقابر تشكو الخوف من ذئب مفترس وسألها عما يرغمها إذن حتى تعيش فى مكان يتهدده ذئب مفترس، وقالت: لأنه يا سيدى لا توجد هنا حكومة مستبدة!

وابتسم كونفوشيوس وقال لتلاميذه: حقا إن الوحش المفترس أخف وطأة على الإنسان من حكومة مستبدة!

يحكى صديقه أديب المسرح نعمان عاشور فى عموده «جولة الفكر» عن العنت وألوان الجحود الذى لاقاه زكريا الحجاوى. . يقول:

كان زكريا الحجاوى رحمه الله واحدا منا. . من هؤلاء الذين تحملوا كل الضربات المسعورة التى وجهتها مختلف عهود التخلف إلى رءوس الخارجين على سدنة المعابد من «كهنة الفراعنة». . هكذا كان يسميهم زكريا. . وهذه إحدى صياغاته الغريبة البارعة التى كان يدفع بها تعبيراته فتعيش بيننا فكاهة نقدية للتنذر بها على المقاهى. . بينما هى تحمل أرق المعانى وأعمق المفاهيم!

جلست معه وكنا وحدنا على قهوة محمد عبد الله الشهيرة البائدة فى ميدان الجيزة من سنوات بعيدة. . وكان ذلك قبل طلوع الفجر وهو لا يزال يحكى عن نظريته الجديدة حول «كهنة الفراعنة». إنهم ليسوا طائفة ولا طغمة ولا جماعة. . وإنما هم فيالق متتابعة من خدام كل سلطة تقبض على نواصى الأمور. . تدفع بهم الأجيال إلى مختلف العهود. . معظمهم يخرج من باطن الملايين الشعبية. . فإذا أهلوا على المعترك الحافل فى أى مجال

من مـجالات الحـياة . . سـياسـة أو وظيفـة ـ تجـارة أو زراعـة أو صناعـة . . أدب أو فن أو فكر . . وجدتهم وقد حصلوا على نفس ما كان يحصل عليه كهنة الفراعنة من قرابين، وإن يكن على صورة عصرية مستحدثة، فقد كان الفرعون بوصفه الإله المعبود . . يهب كهنته حق الحصول على القرابين بتحديد نوعية ما يقدمه لهم الشعب فى معابدهم من عطايا . . غربانا وأبقاراً وحنطة وبقولا وأغناما . . وبذلك ينسون أنفسهم فى كهنوتية جديدة ويصبح كل منهم مهما كان منبته الشعبى واحداً من سلالتهم . . وهكذا الحال فى كهنة مختلف العصور»!

غنخ شاشنقى

قد لا يعلم أبناء الجيل الراهن . . أن معظم الذين تربعوا على عروش الصحافة والأدب والإذاعة وفنون التمثيل والغناء خلال النصف الثانى من القرن العشرين وما بعده، هم بذور كان قد غرسها زكريا الحجاوى وتعهدها بالتوجيه والرعاية، وسقاها عبر الحوار والمعايشة من رحيق روحه العاشقة لمصر، وحتى أينعت عطاء متجددا وإبداعا يثرى الحياة، والأمثلة كثيرة تصعب على الحصر، وبينها الدكتور يوسف إدريس ونعمان عاشور ورجاء النقاش ووحيد النقاش ومحمود السعدنى والدكتور سمير سرحان والشعراء صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى والإذاعى طاهر أبو زيد والدكتور مصطفى محمود، والصحفى المغامر سعد زغلول ومن السودان جيلى عبد الرحمن ومحمد الفيتورى ومعين بسيسو من فلسطين، وغالب هلسا من الأردن ومن الرسامين صلاح جاهين وطوغان وغير هؤلاء كثر من نجوم وأرباب الفن الشعبى فى طول مصر وعرضها، وحتى آخر العنقود فى اكتشافاته المبهرة للموهوبين، حين اصطحب الصديق مصطفى نبيل وقدمه هدية إلى المفكر والكاتب الكبير أحمد بهاء الدين، وأصبح من بعد كاتبا مرموقا ورئيس تحرير مجلة الهلال الثقافية سابقًا .

ومما لا شك فيه وعبر العديد من الشهادات والشواهد الماثلة بات هناك إجماع على أن الحجاوى صاحب هذه المدرسة العظيمة التى غدر بها أعداء النجاح عمدا أو عن جهل بيروقراطى موروث أو مستأصل، ولعل من مفارقات الأقدار أن بعض تلاميذه وأصدقائه ممن أسهم إنسانيا أو ثقافيا فى الأخذ بيدهم إلى مدارج التألق والشهرة تنكروا له كما لو أنهم المعنيون بالمثل القائل «اتق شر من أحسنت إليه» ورغم أنه لدغ من أصحاب المواهب

منتهية الصلاحية ومنبت الخسة والضغينة أكثر من مرة إلا أنه لم يعلن توبته أبدا، وظل قانعا راضيا بأنه لم يقصر فى خدمة أحد.

قلت له يوما: يا عم زكريا.. العاقل من اتعظ بتجاربه وأخطائه.

وقال ضاحكا: ومن قال لك إننى عاقل.. هل كان الأنبياء وأصحاب الرسالات والمجاهدون عقلاء بالمعنى الانتهازى الرائج هذه الأيام.. إذن لكفوا أيديهم والتزموا بيوتهم وسكتوا على الضلال، وما كان أغناهم عن المشاق ومكابرة الاتهامات الباطلة والشرور!

وسكت قليلا يفكر.. ثم قال فى هدوء: ثق يا بو حجاج أنهم سوف يذهبون دون أثر سوى الندم والذكر السيئ.. ولن أتوانى شخصيا عن تعذيبهم عبر مواصلة العطاء ويدى الممدودة بالمعروف والمعرفة.

والمدهش حقا أننى وجدت له ما يشابهه فى التاريخ الإنسانى والمصرى القديم بوجه خاص، كلما استعرضت سيرة حياته الحافلة بالمآثر والعطاء والجحود والتجاهل، ولعلى هنا أذكر بالمناسبة بعضا مما رواه الحجاوى شخصيا من العبارات المأثورة عن مثله الأعلى «عنخ شاشنقى» ذلك الحكيم الفرعونى الذى عاش فى عين شمس إبان القرن الخامس قبل ميلاد عيسى عليه السلام.. إذ يقول:

ـ افعل الخير وارمه وسط البحر

ـ إذا فعلت معروفا لخمسمائة إنسان ورعاه واحد فقط، فحسبك أن جزءا منه لم يطيع!

ـ لا تقتل حية وتترك ذيلها!

ـ قد يستر الصمت حمقًا.

ـ يسرق السارق بالليل ويقبض عليه بالنهار.

وعلى غرار «عنخ شاشنقى» الذى حدثنا عنه زكريا الحجاوى، وصلنا الكثير من حكمة «بتاح حتب» وغيره من المفكرين الفراعنة التى لا تزال تؤكد مصداقيتها حتى بعد مضى آلاف السنين!

على أنه إذا جازت المقاربة بين كونفوشيوس وزكريا الحجاوى من زاوية البحث عن التراث الشعبى وبعثه من جديد، وبينهما الأغنية القديمة ودورها فى تعزيز فكر الانسان

المصرى وصلاته بمنابعه الروحية وهويته الحضارية، فهناك على سبيل المثال ما يروى عن أديبنا الكبير يحيى حقى نظيرا للاوتس «لودزه» حكيم الصين العظيم!

وأصل الحكاية أن زكريا الحجاوى كان قد أخذ عهدا على يد يحيى حقى عندما كان مسئولا عن مصلحة الفنون أوائل ثورة يوليو، كى يواصل المشوار الذى بدأه على درب البحث الميدانى الدءوب عن الفنون الشعبية أو ما كان يسميه زكريا «مسودة الحضارة، إذ كان يرى أنها ضاعت فى زحام المدينة الحديثة، وناءت تحت وطأة فنون الغرائز المريضة الوافدة مع موجات الغزوات الاستعمارية على مصر، وإذا كان للمدينة صوت يعلو على صوت السواد الأعظم من الفلاحين والعمال والطبقات الشعبية، فلأن الحكم الجاهل أو المستبد كان لا يسمح بالذيوع والانتشار إلا للفنون والآداب التى تعبر عن الطبقة أو الفئة المساندة لحكمه فحسب!

من هنا لم يكن بعيدا أو مستغربا إذن أن يقارن العهد الذى أخذه زكريا الحجاوى عن يحيى حقى، بذلك العهد الذى أخذه كونفوشيوس على يد «لاوتس» الذى قال: إنى أعرف كيف يطير الطير ويسبح السمك ويجرى الحيوان، فإذا كان الذى يجرى على الأرض يمكن اقتناصه، والذى يسبح فى الماء يمكن صيده، والذى يطير فى الهواء يمكن إصابته بالسهام، لكن يظل هناك تنين مهول، ولست أعرف كيف يركب الريح ويخترق السحاب ويعلو فى جوزاء الفضاء ولست أستطيع أن أجد لها مثيلا غير لغز ذلك التنين!

على أن زكريا الحجاوى بعد أن نال العهد على يد يحيى حقى، فقد خرج بعدها إلى ربوع مصر من أقصاها إلى أدناها راهبا متبتلا، وقد شمر ساعديه للبحث والتنقيب فيما يشبه المسح الثقافى الجغرافى لمصر حتى يتيسر له جمع مفردات الفنون الشعبية أو «مسودة الحضارة المصرية»!

واقع الحال أن زكريا الحجاوى الذى تأثر بالحكماء المصريين وكانت الحكمة المصرية المتواترة عبر التاريخ تترى فى حديثه وإبداعاته، كان قد تأثر بشكل ما بالحكمة وحكماء الصين أيضا.. ربما لتوغله فى قراءة الأدب الشعبى الصينى، وربما لأن طبيعته الإنسانية والاجتماعية والفكرية كانت تنسجم إلى حد كبير مع الحكمة الصينية التوافق مع رؤاها، فكان الرجل المثالى على حد تقديره ليس الإنسان المتبتل المنقطع للعبادة فحسب، وإنما صاحب العقل الناضج الهادى الذى يعيش حياة البساطة والقدرة على التامل وعشق الجمال وصحبة الناس.

وكان يقول إن الكون هو بداية الحكمة، والحكيم لا يتكلم عن الحكمة، لأن الحكمة لاتنتقل إلا عبر القدوة والتجربة، لا عبر الأقوال والنصائح، والذى يعرف الطريق إلى الحكمة، عليه أن يتمثلها فى حياته الخاصة وفى علاقاته بالمجتمع، كذلك كان يقول إن الحكيم المثالى هو الذى يكبت فى نفسه روح المباهاة بحكمته، وعليه أن يلتزم جادة التواضع، وأن يقلل من سناه ولآلئه، وأن يكون من الذكاء بحيث يوائم دوما بين تألقه وقتامة غيره، وألا يتألم ولا يتشفى من أعدائه ومعارضيه، لأنها غريزة طبيعية سواء فى الأحداث المبتدئين، أو بين الجهلة والموتورين!

ولعل زكريا أقل وأدل على عقيدته وفلسفته فى التعامل مع الحياة والناس!

عم محمد الخضرى

www.books4all.net

على أن ما يميز زكريا الحجاوى عن «كونفوشيوس» أنه لم يكن أميا، بل كان مثقفا موسوعيًا وعالما بجماليات اللغة العربية سواء الفصحى أوالعامية، وهو ما أسهم فى جذب الانتباه إلى بواكير دراسته الميدانية للآداب والفنون الشعبية التى بدأ فى نشرها على صفحات جريدة المصرى أوائل الأربعينات، ثم واصل مشواره على هذا الدرب فى مجلة «السوادى» والرسالة الجديدة منذ عام ١٩٥٤، ثم صحيفة القاهرة.. الخ

أما عن تجارب زكريا الحجاوى على خشبة المسرح الشعبى فكانت البداية من خلال أوبريت «يا ليل يا عين» وهو قد استطاع أن يصمد للضغوط البيروقراطية وأصر على استبعاده أصوات «سبايا شارع الهرم» على حد وصفه لمطربى ومطربات الكباريهات، وأن يقدم ولأول مرة أصواتا عفية وعفوية تشربت من الينبوع المصرى الحقيقى الذى فتن بعذوبته وأسكرته نشوته.. وكان شجاعا ومقدامًا بحق فى تبنى هذا الاتجاه الفنى الجديد عبر تقديم نجوم هذا الفن على مسرح الأوبرا بملابسهم الشعبية وآلاتهم الموسيقية البسيطة وهو ما نطلق عليه بالتعبير الشعبى «بعبلهم»، أو على حد وصف أحد النقاد الساخرين الذين أطلق على نهج وأسلوب زكريا الحجاوى الذى كان يكره التزويق والمكياج سواء فى المسرح أو الحياة وصف «بطينه ولا غسيل البرك» وهو كان نداء الباعة الجائلين على الخضراوات والفاكهة الطازجة عهدئذ، بما يعنى أنها أشهى مذاقًا وأكثر نظافة وأمنا فى تناولها بعد غسيلها فى المياه الآسنة والبرك الراكدة.

كذلك فإن زكريا الحجاوى قد نجح كما لم يتوقع أحد فى أن يجنب المثقفين إلى الاهتمام واحترام هذه الألوان من الفنون المندثرة ونجومها المنسيين الذين لم يجدوا لإبداعاتهم متسعا أو منفذا سوى احتفاليات الموالد وأفراح البسطاء وفقرات السيرك.

روى لى عم محمد أحمد الخضرى الذى ناهز الثمانينات، وهو عازف قدير على العديد من الآلات الموسيقية واختاره زكريا لمرافقته فى جولاته الميدانية بحثا عن الفنون الشعبية، إن زكريا كان يدخن زهاء خمس علب سجاير يوميا حين كان يباشر بروفات أعماله المسرحية التى كان يعرض فيها ألوانا من الفنون الشعبية، وأنه كان يضطر أحيانا إلى النوم فى أسوء اللوكاندات وأحيانا على الدكك والكراسى بعد نهاية العرض.. وأذكر أنه كانت تنتابه حالة من الوجد والجنون حينما كان يطارد عازفا موهوبا على الربابة أو الأرغول، أو مطربا أو مطربة شعبية ذات صوت عفى جميل، ويظل يحاول معهم عبر الترغيب والإقناع حتى يوافقوا على الحضور إلى القاهرة والعمل فى فرقته ثم الفرق الشعبية للدولة، وكان يبذل من أجل ذلك كل ما فى وسعه لراحتهم وتسكينهم فى درجات وظيفية، ولذلك كانوا ينظرون له باعتباره أباهم الروحى ويدينون له بالحب والفضل!

ثم يضيف عم محمد أحمد الخضرى واقعة طريفة، حين اصطحب زكريا عددا من الفنانين والعازفين الذين التقى بهم خلال جولات البحث عن الفنون الشعبية، ثم اقتحم بهذا الجمع مكتب يحيى حقى فى مصلحة الفنون وقال: أقدم لك سفراء الفن الشعبى إلى عميد الثقافة والمثقفين المصريين، وكانوا جميعا كما هم فى حياتهم يرتدون الملابس الشعبية ويحملون بعض آلاتهم الموسيقية البسيطة، ودهش يحيى حقى ورحب بهم وطلب لهم مقاعد للجلوس فى مكتبه، ثم راح يتبادل معهم الحوار حول الفنون الشعبية وأصلهم وفصلهم، وعبر إشارة من زكريا راحوا يردون التحية ليحيى حقى بالغناء والعزف على الأرغول والربابة والسمسمية، إيذانا بالموافقة على مشاركتهم فى أوبريت «يا ليل يا عين»!

الموسيقى تجذب الأسماك إلى الشباك

ولد الفنان الشعبى زكريا الحجاوى فى الرابع من يونيو عام ١٩١٤، أى قبل اندلاع ثورة ١٩١٩ بخمس سنوات، وكانت المطرية مسقط رأسه، ونما وترعرع وسط بيئة اجتماعية متماسكة ذات تقاليد راسخة، يحترف أهلها صيد الأسماك من بحيرة المنزلة، وتنتمى عائلته إلى قبيلة الحجاوية المعروفة بالعريش، بينما كانت أمة الطيبة من أعراب «منيا القمح» بمحافظة الشرقية، وهو كان الابن الخامس والأخير للأسرة، ومما يروى عن والده أنه كان تاجرا وسيما وكريما وميسور الحال، وكان زكريا يحدثنا عنه بفخر واعتزاز بشجاعته كما لو أنه عنتر بن شداد أو الزناتى خليفة.

قضى زكريا طفولته مدللا سعيدا، كونه آخر العنقود، ونشأ فى أجواء الطبيعة الخلابة حيث تحيط بحيرة المنزلة بالمطرية من ثلاث جهات، فجعلت منها شبه جزيرة تنفرد بسطوع ضوء القمر خلابا ورومانسيا على صفحات مياهها الهادئة، تتخللها أشرعة المراكب الراسية فى أحضانها والهادية على سطحها، ثم إن صوت الصيادين الشجى لم يكن ينقطع عن الغناء خلال عملية الصيد ليل نهار، إذ كان لكل نوع من أسماك البحيرة مثل البلطى والبورى والشبار والنجرور إيقاع ونغم غنائى معين يجذبه إلى شباك الصيد.

إلى ذلك كانت هناك عوامل جانبية مضافة كان لها تأثير السحر فى شخصية زكريا الحجاوى وعلاقته الواعدة فيما بعد بفنون الموسيقى والغناء والمسرح، ومن ذلك جهاز «الجرامفون» أعجوبة ذلك الزمان، حيث كان يصدح فى بيت آل الحجاوى بشتى ألوان الطرب الشائعة عهدئذ، لكن سيد درويش كانت له جاذبيته الخاصة لدى الفتى زكريا، فهو الذى غذى وجدانه بملكة النظم الغنائى المصرى الأصيل، وتفتح عقله وضميره ووجدانه على أغنياته وأوبريتاته المسجلة على الاسطوانات، وثرائها فى التعبير عن البيئة الشعبية فى شتى مناشطها الاجتماعية والمهنية.

أما المداحون فكان لهم غالب التأثير فى مشاعره ورؤاه وممارساته للفن الشعبى، إذ كانوا دائما يشنفون أسماع الناس فى المطرية وفى سائر ربوع الدقهلية بموروث الأدعية والتواشيح وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، فكان زكريا يلح على والده ووالدته حتى يستضيفوا هؤلاء المداحين فى ليلة من ليالى موسم الحج، وإذا بالجيران يعتلون أسطح

المنازل حتى يسمعوا لهم عن قرب أو بعد، وينهالون عليهم بالطعام الجيد وما تيسر من المال وهم فى نشوة روحية وانبهار وجدانى!

ولاشك أن هذا التنوع فى المنابع الروحية والجمالية قد انعكس على اختيارات زكريا الحجاوى للمهن والهوايات التى مارسها على مدى عمره، فقد كان يرحمه الله قاصا وكاتبا وصحفيا ورسامًا وموسيقيا وملحنا وشاعراً وباحثا ومؤرخا، وفوق هذا وذاك كان محدثا بارعًا وظريفا وصعلوكًا نبيلا من طراز خاص.

من سيرة حياته العريضة أنه وقع فى هوى طفلة جميلة اسمها مريم ولم يتجاوز السادسة من عمره وظلت صديقته مدة عامين، وحتى كانت الصدمة التى هزت كيانه فى هذا السن الغض.. حين سقطت ميتة من فوق سطح منزلها، وبعدها راح يسأل والدته: ما هو الموت؟ ولماذا غيب هذا الموت مريم عن أهلها وعنه؟ فكان الحادث الشىء غير العادى الذى عكر صفو طفولته، ومنذ ذلك الحين تفتحت عيناه ومشاعره على الحزن وآلام البشر، وثارت فى نفسه العديد من التساؤلات التى لم يجد لها جوابًا فى طفولته.

غدر البحر وتبعاته

فى المدرسة الابتدائية تعلق زكريا بمدرس اللغة العربية وكان اسمه عبد العال الحيمى الذى لمس فيه نبوغًا مبكراً وولعًا بالقراءة، وشجعه وأولاه اهتماما خاصًا، فكان يأتى إليه بالكتب والقصص التى تناسب سنه، ثم يناقشه حولها.

كان ذلك فى السنة الثانية الابتدائية على النظام التعليمى القديم، حين دخل مفتش اللغة العربية الفصل الذى يضم زكريا الحجاوى، وبعد أن راجع مع التلاميذ المواد التى درسوها من المقرر، عاد يسأل كل تلميذ: ماذا يحب أن يكون عندما يصبح رجلا؟ وتراوحت إجاباتهم بين دكتور.. مهندس.. محام.. ضابط، لكن إجابة الحجاوى كانت مختلفة.. قال: أود أن أكون أديبًا.

وسأله المفتش مندهشًا: ماذا تعنى بكلمة أديب؟

وقال: مثل العقاد وطه حسين وهؤلاء الذين يكتبون القصص والروايات

عندئذ أدرك المفتش أنه تلميذ غير عادى وربت على كتفه وهو يتمنى له أن يصبح أديبًا.

فى هذه الفترة كان محمد شقيق زكريا الأخ الأكبر قد تزوج من أمينة ابنة الحاج محمد السودانى الريس وهو كان من أعيان المطرية، وتشاء مصادفات القدر أن تصبح هى زوجة زكريا فيما بعد إثر وفاة زوجها، من باب الإحلال والشهامة كعادة الصيادين فى المنزلة عندما يغيب غدر البحر أحد رجالات الأسرة، وكانت تكبره بثلاث سنوات ولحسن الحظ أنها صديقته التى كان يستأنس بالحديث معها فى طفولته، إذ كانت لديها حصيلة وافرة من «الحواديت» التى ترويها على مسامعه، وهى ـ أى الحواديت ـ أصبحت فيما بعد أحد مصادر دراسته للفن الشعبى.

العشماوى باشا على التليفون

على أن زكريا التلميذ انتقل لاستكمال تعليمه بمدرسة أميرية فى بورسعيد، وكان ترتيبه الأول فى الشهادة الابتدائية على مستوى مديرية القنال، فاستحق مكافأة الملك فؤاد الأول وكانت أربعين جنيها ذهبية عدا ونقدا بالإضافة إلى ساعة حائط ألمانية الصنع تدق ايقاعات منغمة كل ربع ساعة، وقد ظل يحتفظ بها فى دورات حياته.

خلال إقامته فى بورسعيد التحق بمدرسة إيطإلية حرة لتعليم الموسيقى، حيث أجاد العزف على البيانو وكتابة النوتة الموسيقية، وقد أفادته الدراسة فيما بعد، فى دخوله ميدان الفن الشعبى.. فكان غالبا ما يكتب النوتة الموسيقية لأحانه وألحان التراث الشعبى.

فلما التحق بمدرسة الفنون والصناعات الملكية بالقاهرة ظل على نبوغه وتفوقه، فكان الأول دوما فى ترتيب سنوات الدراسة، فيما أخفق عبد الفتاح شقيقه الأكبر عدة مرات فى اجتياز امتحان الشهادة الابتدائية.

فى القاهرة تفتحت لزكريا مواهب جديدة وتعلق بشواغل ثقافية وسياسية شتى، وبينما كان شغوفا بالتردد على المسارح وصالات المنوعات فى ذلك الزمان، وراح يجرب الإبداع فى مجالات التأليف الغنائى والتلحين الموسيقى، وإلى حد أن المطربة ملك طلبت منه أن يكتب لها أوبريتات غنائية والمساعدة فى تطوير ما كانت تؤديه بالفعل من الاوبريتات على مسرحها الخاص، إضافة إلى المسرحيات والاسكتشات التى كتبها لفرقة أحمد المسيرى الجوالة، وكان الشاعر الفنان عبد الرحمن الخميسى واحدا من نجومها فيما بعد.

أما على الصعيد السياسى فقد اشتعل حماسا وطنيا فى قيادة المظاهرات الطلابية التى كانت تهتف بسقوط الملكية وجلاء الاستعمار البريطانى عن وادى النيل، وهى شعارات ثورة ١٩١٩ التى شهد إندلاعها ولم يزل طفلا.

وقد بدأ نجم الحجاوى يلمع لأول مرة زعيما طلابيا فى أوساط الحركة الوطنية إبان حكومة إسماعيل صدقى الجائرة والمعادية للشعب، وعندما قاد مظاهرة عارمة خرجت من مدرسة الفنون والصناعات الملكية وكان لا يزال طالبا فى الصف الثانى، انضمت لها جموع طلابية من الجامعات والمعاهد العليا وراحت تندد بعجز الحكومة عن مجابهة الأزمة الاقتصادية التى عصفت بالعالم واكتوى بها السواد الأعظم من الشعب المصرى، مما اضطر البوليس للتصدى لها بالقوة، والحيلولة دون تقدمها إلى البرلمان أو قصر عابدين.

وحكى لنا زكريا الحجاوى كيف قام وزملاؤه باحتجاز ناظر المدرسة والمدرسين عندما حاولوا منعهم من التظاهر، وعندما حاول البوليس اقتحام المدرسة لم يفلح، وكان الخطباء قد اتهموا دستور ١٩٢٣ بالاخفاق فى التعبير عن طموحات الأمة وثوابتها، وأدانوا سياسة كبت الحريات و.. فجأة دق جرس التليفون فى غرفة ناظر المدرسة.. وجاء صوت العشماوى باشا وزير المعارف يسأل: أين الطالب المدعو زكريا الحجاوى؟.. وعندما عرف أنه كان يخطب وقتئذ فى حوش المدرسة قال: بلغوه أننى فى انتظاره على التليفون.

وكان الحجاوى يكن احتراما خاصا للعشماوى باعتباره من الشخصيات الوطنية والثقافية المرموقة.. لذلك أسرع فى الرد على مكالمته.

ـ ألوه معالى الوزير.. أنا زكريا الحجاوى

ـ يا زكريا.. أطلب منك سرعة فض المظاهرة والإفراج فورا عن الناظر والمدرسين واغلاق باب المدرسة وبعدها تعالى وزملاؤك لمقابلتى فى وزارة المعارف.

ـ لكن يا باشا مظاهرة طلبة مدرسة الصنايع العليا انضمت لها مظاهرات طلابية أخرى، وهى سلمية ولا تهدد الأمن العام، ومعاليك تدرك ولا شك أنها لدواعى وطنية ملحة وليست عبثا سياسيًا.

ـ يا زكريا.. أنا متفق معاكم فى الدوافع.. ومختلف فى الأسلوب.. تعالى نتفاهم بهدوء.. وإذا أقنعتنى حتى بتقديم استقالتى فسوف استقيل فوراً.

وهكذا اختتم زكريا القصة بتفاصيل الحوار السياسى الوطنى المثير الذى دار بينه

وزملائه وهو الطالب الزعيم وبين وزير المعارف، وإلى حد نجاحه فى اقناع العشماوى باشا بالاستقالة من منصبه وهو ما تحقق فيما بعد، بينما لم يكن يدور فى ذهن الحجاوى بالطبع وقع حكايته العجيبة على أسماعنا، فالذى كان يهمه فحسب كحكاء بارع أن يمتعنا بصرف النظر عن إضافاته للوقائع، ، إذ كانت قدراته واقتداره على الحبك الدرامى والتشويق والإثارة لا تبارى، وعنايته فحسب بالمغزى الأدبى والسياسى أو الاخلاقى فى هذه القصة أو غيرها.

رب أخ لى لم تلده أمى

والشاهد أن زكريا كان زعيما طلابيا بالفعل فى مقتبل شبابه، وكان صديقا وقتئذ للعديد من نجوم السياسة الذين سبقوه إلى الشهرة والمناصب والثراء، بينما ظل راضيا بنصيبه وقانعًا بحاله وسعيدا بحياته، ما دام حوله من يحبونه ويحبهم، ويسمعون له ويسمع لهم، وعهدى به أنه كان يعشق الصحبة الحلوة والحوار المثمر وإطلاق العنان لخياله الخصب والسهر والمؤانسة الممتعة ليلا حتى الصباح.

فى القاهرة التى سكنها ولم يتجاوز الثامنة عشرة من العمر، كان شغوفا بالسياسة والثقافة والفنون، ثم إنه كان صديقا أو مريدا لنجومها منذ اشتغاله موظفا لأول مرة فى مديرية الجيزة، وهو قد بدأ مشواره على هذا الدرب متزامنا مع مشاوير عدد من أصدقائه. . وبينهم الأديب محمد على ماهر، والشاعر الفنان عبد الرحمن الخميسى، والشاعر محمود حسن إسماعيل، والأديب مهدى مصطفى، والموسيقارمحمد عبد الوهاب حلمى والفنان التشكيلى عبد السلام الشريف، والروائى سعد مكاوى والكاتب المسرحى نعمان عاشور وعضو الطليعة الوفدية المناضل عزيز أحمد فهمى، والدكتور ياسين عبد الغفار الذى أصبح فيما بعد أستاذا فى أمراض الكبد.

عن رفيق دربه وصديقه الأثير محمد على ماهر، حدثنى زكريا الحجاوى عن صفاتهما وميولهما المشتركة كما لو كانت التجسيد الحى لتناسخ الأرواح، وقال إنه ينتمى إلى أسرة صوفية من مدينة طهطا، وهو قد وفد إلى القاهرة عام ١٩٣٩، وكله شوق ونهم للثقافة والفن، وكان قد تعرف على زكريا فى توقيت معرفته بمحمود حسن إسماعيل الذى جاء من بلدته النخيلة المجاورة لطهطا.

قال لى محمد على ماهر عن لقائه بزكريا لأول مرة أنه أدرك فيه أشياء غريبة لافتة للنظر، ملامح وجهه ذكرتنى بنجوم عصر النهضة رغم عروبته وإفريقيته، وأذكر أنه كان للطربوش «عوجة» عياقة فوق رأسه، بينما كان ممسكا بعصاه والبالطو على ذراعيه إذ كان الوقت شتاء، ساعتها تصورت نفسى وكأنى أمام شوبان أوفرانزليست، ورغم كل هذا الجمال والوسامة إلا أنها لم تكن تشغل باله قط.

ثم يكمل محمد على ماهر شهادته: لا أنسى بعد هذا العمر والعشرة الطويلة لحظة قدمنى محمود حسن إسماعيل إلى زكريا، لقد جذبنى الوهج الذى كان يشع من وجهه، وأذكر أنه أمسك يدى فجأة وقال: من الآن هذا صديق عمرى.. بينما قلت لنفسى «رب أخ لم تلده أمى»، فقد شعرت أن زكريا هو الفنان الذى أنشده، ومن المتعين اختياره رائدى فى هذا الزمان، بينما قال زكريا لى: لقد اخترنا اليوم من عمرنا دهراً.

ويستطرد محمد على ماهر فى الإشادة بمآثر صديقه زكريا وقال: سرعان ما تبادلنا التعارف العائلى، فكان يزورنى فى بلدتى كما كنت دائما أرد له الزيارة فى المطرية، وأذكر أن أعيان بلدتنا كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر، ويتحلقون حوله ويستمعون له كما لو أنه ظاهرة فريدة تذكرهم بأولياء الله الصالحين والزعامات الوطنية المحبوبة.. كما كان الفلاحون يحجون إلى مجلسه ويستمتعون بحديثه العذب وكأن على رءوسهم الطير، ولم يكن يتأتى له كل هذا الحضور إلا لأنه كان ذكيا وموهوبًا وصادق القول والشعور!

ومن ظرف زكريا الحجاوى ما يروى عن علاقته بصديقه محمد على ماهر، وابتكارهما للغة خاصة كانا يتخاطبان بها دون أن يتبينها أى من الحاضرين، وكانا ينطقان العبارة أحيانا بالمقلوب، وأحيانًا يقدمان أو يؤخران من كلمات العبارة، وربما يحذفان منها بعض الكلمات، وكانا يستخدمان هذا الأسلوب فى الحديث كلما عن لهما التعليق الساخر على موقف ما.. وبعدها ينفجران فى الضحك.

تبديد عهدة البطاطين

عن علاقة زكريا بالريف وأهل الريف عندما انتقل إلى مدينة الحوامدية فى وظيفة بسيطة مديراً إداريًا لمستشفى صغير، فكان أصدقاؤه من الفنانين والأدباء الذين يحضرون لزيارته من القاهرة، يدهشون كيف يعامله الأهالى وكأنه أحد الفاتحين أو أحد مشايخ

الطرق الصوفية، وكيف كان أهل الحوامدية يبهرون بشخصيته المتواضعة وقلبه الكبير وعقله الراجح الذى يختزن كنوز الحكمة والمعرفة.

وهكذا خلال إقامته فى الريف وطفولته فى مرابع الصيادين أدرك معاناة الفقراء، وكانت زاده فى التعبير عن آلامهم وطموحاتهم عبر توجيهه للشعراء والمطربين والحكائين الشعبيين، وعبر إبداعاته القصصية والدرامية والغنائية فى الإذاعة والمسرح وكتابة القصة.

ولعل من طرائف ما يروى عن زكريا خلال عمله بالحوامدية، أنه جرؤ على تبديد عهدته من البطاطين.. وعندما جرى معه التحقيق حول هذه الواقعة، قال إنه وزعها على الفلاحين المعدمين عندما اكتشف أنه مرت خمس سنوات دون استعمالها ولا خرجت من المخازن لتهويتها، وأن حشرة «العتة» راحت تنخر فى نسيجها، ثم استدعى هؤلاء الفلاحين الذين وزع عليهم البطاطين وشهدوا له بالفضل.

كذلك كانت للحجاوى موهبة التحليل النفسى للشخصيات فى هذه المرحلة العمرية، فكان يستطيع إلى حد كبير الجزم من أول لقاء واستجواب للشخصية أن يحدد معالمها وبواطنها الشخصية بصورة دقيقة، والكشف عن خباياها كما لو أنه ولى من أولياء الله الصالحين المكشوف عنهم الحجاب، وقد لازمته هذه الفراسة بعد ذلك وكانت له فى ذلك مواقف مشهودة.

ولأن زكريا كان كذلك حكاء وظريفا وموسوعى الثقافة ومشهودا له بالوطنية، لذلك تحول مقر إقامته إلى ما يشبه «البرلمان الشعبى» الذى كان ينعقد أحيانا حتى الفجر فى الحوار المتبادل حول القضايا الوطنية وحل الخلافات والمشكلات بين أهالى الحوامدية.

يذكر أن قرار نقل زكريا الحجاوى للعمل فى مستشفى الحوامدية لم يكن من قبيل الترقية الوظيفية، وإنما كان أقرب إلى النفى لأسباب سياسية، وقد طالعتنى بين أوراقه نص الخطبة التى ألقاها عام ١٩٤٢ فى الحفل الذى أقامه أهالى الحوامدية بمناسبة نقله إلى مديرية الجيزة، ومن حسن الصدف أن أحد المدرسين حرص على تسجيل خطبة الوداع التى ألقاها فى حينها بخط يده، وللأسف أن تداولها من يد إلى أخرى منذ ذلك الزمن البعيد، كان السبب فى تآكل بعض كلماتها.. قال الحجاوى:

يا أصدقائى الرافعين من قدرى وتكريمى بحضورهم.. تتهاوى على زمنى المعانى، وتترى فى ضميرى الأغانى، وتتواثب على حاضرى المثالث والمثانى، فأعانى من حر فرحى

ما أعانى من همس خجلى ويعانى . . ففرحى بيوم ما احتملته . . وخجلى لمعنى ما ظننته . . يشدان أوتار نفسى فيفقدانى حسى، وينسيانى يومى وأمسى، فلست أدرى أبا لفرح أزهو وأحفل، أم لخجلى أغفو وأجفل . . وعلى أين فإنى أمام المعنين لا أملك إلا دمعتين .

بلد النخيل . . والتكريم طقس من طقوس الاجتماع، لمن أظهر فى منصبه شيئا من الإبداع، فينبرى له كل بيان . . وكل يراع . . ولكن من أنا . . ومال الضجة هنا . . الكاتب مغمور وموظف منكور، كانت جرعة من الدواء أغدى على الناس من وجوده ومن حظوظه وجدوده وحتى اختتم زكريا خطبة الوداع قائلا : أنا باعث الأعراس ومضوع الأغراس ومعطر الانفاس ومحارب الأرجاس بين الدمى والناس . . وصديق حزين، وحدى الصدى المسكين . . الخ .

جمعية الأطواق

مما يذكر عن نشاطات زكريا الحجاوى السياسية إبان الأربعينات، إنشاؤه جمعية «الأطواق» نسبة لأطواق النجاة من الغرق، وكانت تعنى بوضع البرامج والدراسات التى تعالج مشكلات مصر الداخلية والتحريض على فضح ألاعيب القصر وفساد الملك ومقاومة الإنجليز، بل وكان للجمعية «ميثاق» وقسم للانضمام إلى عضويتها، وكان أنور السادات من بين الذين وقعوا على الميثاق مع رشيد النحال المحامى، وعبد السلام وفا الكاتب الصحفى، والمهندس أحمد كامل مدير شركه أطلس، والضابط السابق حسن عزت، بالإضافة إلى توءم روح الحجاوى الأديب محمد على ماهر .

وكان المؤسسون لجمعية الأطواق قد التقوا بمختلف قادة الأحزاب السياسية فى ذلك الوقت وبينهم زعامات حزب الوفد والشيخ حسن البنا المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين وأحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة، وقدموا لهم تصورا لأهداف الجمعية والآليات المقترحة لتنفيذها، توطئة لقيام جبهة سياسية عريضة للإنقاذ الوطنى، لكن على ما يبدو أن بوليس القلم السياسى كان للجمعية بالمرصاد، ربما لعضوية السادات الذى كانت تدور حوله الشكوك والشبهات لعلاقته السرية بالألمان، وربما لأن الأحزاب المصرية تقاعست عن التجاوب مع طموحات جمعية الأطواق . . ومن ثم أسدلت عليها ستائر النسيان .

على أن بدايات المحن التى كابدها زكريا الحجاوى الطالب السياسى المثقف، حين حاولت السلطات استمالته إلى جانبها فأبى واستنكر، فيما ظل أكثر من حزب سياسى يسعى لضمه إلى صفوفه، خاصة وكان الطلاب عهدئذ بمثابة الدينمو المحرك للعمل السياسى، لكنه رفض الانضمام كعضو عامل فى أى من هذه الأحزاب لافتقارها على حد تقديره للجدية والإخلاص فى حل مشكلات مصر!

وهكذا فوجىء وهو لم يزل فى السنة النهائية بمدرسة الصنايع الملكية بترحيله من القاهرة ونفيه إلى المطرية، وكان قلم البوليس السياسى صاحب هذا القرار وهو كان المسئول عن مراقبة نشاط الحركة الوطنية، ومن ثم كان حرمان زكريا الحجاوى من الامتحان النهائى وإخفاقه فى الحصول على الدبلوم وهو المتفوق والأول على دفعته بصفة مستمرة.

بعدها انضم مع جيل الشباب الذى أطلق على نفسه «النقراشيون» نسبة لفهمى النقراشى باشا الذى أعجب بزكريا الحجاوى وأمر بتعيينه موظفا فى الإدارة الهندسية التابعة لمجلس مديرية الجيزة، ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى تقرر إبعاده لميوله الوطنية، إلى مدينة الحوامدية التابعة لمحافظة الجيزة كما أسلفنا.

هنا وفى تلك الفترة من حياة زكريا الحجاوى كان تعارفه أوائل الأربعينات على أنور السادات عبر صديقه محمد على ماهر الذى كان يشغل وظيفة معاون مستشفى القصر العينى، بالتزامن مع تعارفه كذلك ولأول مرة على الدكتور ياسين عبد الغفار النائب بالمستشفى، وكانت ميولهم السياسية آنذاك أقرب لحزب الوفد، دون أن ينضموا إلى عضويته.

عن بدايات العلاقة بين زكريا والسادات روى لى رسام الكاريكاتير طوغان أنه شاهد أنور السادات لأول مرة أوائل الأربعينات وهو يدخل بصحبة محمد على ماهر إلى مجلس زكريا الحجاوى فى قهوة محمد عبد الله، وكان يرتدى قميصا لونه «كاكى» ذا أكمام طويلة، ولاحظ أنه ظل صامتا لا يشارك فى الحديث الذى يديره زكريا كالعادة مع ضيوفه، ولاحظ أنه كان يمسك بيده إحدى روايات الجيب واسعة الانتشار آنذاك، وعندما سأل محمد على ماهر عن ذلك الوافد الجديد.. قال إنه ضابط وطنى مفصول من الجيش اسمه محمد أنور السادات.

كذلك روى لى طوغان أن زكريا اصطحب أنور السادات فى الأربعينات لزيارته فى

منزل الأسرة بالجيزة، وفجأة دخل صديقه الحميم محمود السعدنى من غير ميعاد، وسأله عن ذلك الرجل الأسمر المشغول بقراءة روايات الجيب وقال طوغان: اسمه أنور السادات وهو ضابط مفصول من الجيش وأن وزكريا الحجاوى يراهن على أنه سوف يحكم مصر يوما من الأيام و.. كبت السعدنى فى نفسه الضحكات!

تهريب السادات من القصر العينى

أذكر فى صيف عام ١٩٧٢ أننى التقيت بالكاتب الأديب «محمد على ماهر» فى شقة كان يستأجرها زميلنا القاص الصحفى «فهمى حسين» بشارع الحمراء فى بيروت وكان يعمل آنذاك فى إعلام منظمةفتح الفلسطينية.

ليلتها كان «محمد على ماهر» فى حالة صفاء وتألق، وكان حديثه على غير عهدنا بجديته وتجهمه أو صوفيته فى أخريات أيامه يقطر ظرفا ومرحا ودعابة، وانتهزت الفرصة وأثرت فيه كوامن ذكرياته الحلوة مع رفيق دربه «زكريا الحجاوى».. وتطرق الحديث سجالا بيننا حتى سألته عن دوره فى واقعة هروب «أنور السادات» من مستشفى قصر العينى عام ١٩٤٥.

وقال محمد على ماهر: إن العملية أخذت وقتا للدراسة والتخطيط، وكان السادات قد طلب عرضه على طبيب السجن وكان شابا وطنيا اسمه حامد حمدى إسماعيل الذى قرر أن حالة السادات المرضية تستدعى نقله للعلاج فورا خارج السجن، وكان ذلك حسب الخطة الموضوعة لتهريبه قبل مثوله للمحاكمة بتهمة ضلوعه فى حادث اغتيال أمين عثمان باشا، ولذلك قرر تحويله بعد أن كشف عليه إلى مستشفى قصر العينى، واستجاب مدير السجن وأمر بنقله للعلاج فى قسم «الباطنى» الذى كان يشرف عليه الدكتور «ياسين عبد الغفار» وكانت تربطنى والحجاوى به صداقة قديمة وفكر ونهج وطنى واحد.. ولولا مساعدته الشجاعة لما تمكنا من تهريب السادات تحت أنظار حرسه من البوليس وهو يرتدى زى ممرض!

وأضاف: كنت ما أزال أعمل فى وظيفة معاون مستشفى، وكان دورى مقصورا على تهريب «السادات» إلى قبو مهجور ومنه إلى الشارع عبر ممرات وخبايا قصر العينى التى كنت أعرفها عن ظهر قلب.

فى شارع جانبى من حى المنيرة كان بانتظارنا زكريا الحجاوى وابن شقيقه المتوفى عزت وكان لا يزال فى السادسة عشرة من عمره ـ ورجل الأعمال الضابط السابق «حسن عزت»، صديق «السادات» الذى كان متخفيا كذلك عن عيون رجال القلم السياسى فى زى سائق لورى.

فى ظلام أحد الشوارع الجانبية خلع «السادات» ملابس المرض وارتدى زى عامل صيانة «الأفرول والكاب الأزرق» وجلس فى صندوق اللورى بينما جلس «عزت» إلى جوار «حسن عزت» حتى يرشده إلى الطريق لبيت الحجاوى فى المطرية حيث تقرر إخفاء «السادات» عن الأنظار. . ودعناهم أنا وزكريا الحجاوى ـ يقول محمد على ماهر ـ وعدت إلى المستشفى لاكتشف أن عددا من كبار ضباط البوليس السياسى يباشرون عملية تفتيش كل شبر بالمستشفى بحثا عن «السادات». . وأنهم منعوا الدخول أو الخروج من البوابات الرئيسية وحتى أبواب عنابر المرضى. . واستمر الحال كذلك حتى الصباح حيث صدرت الصحف تحمل فى عناوينها الرئيسية خبر هروب «السادات»، لكن ما كاد «محمد على ماهر» يرحمه الله ـ ينتهى من بداية قصته أو شهادته على ظروف وتفاصيل عملية هروب «السادات» من قصر العينى. . حتى راح يضحك من أعماقه على نحو متصل حتى فاجأته «الزغطة».

أسرع «فهمى حسين» يقدم له كوب ماء. . وشربه دفعة واحدة. . وانتظرنا أن تهدأ «الزغطة» لكن دون جدوى. . فقد كان على ما يبدو أضعف من أن يقاوم الأسباب التى دفعته فجأة إلى الضحك. . وأدركت «فهمى حسين» أنّ علينا أن نحثه على الهدوء عبر تحويل دفة الحديث إلى موضوع مختلف حتى تزول عنه حالة الزغطة المباغتة. . وشيئا فشيئا هدأ «محمد على ماهر» واستعاد حالته الطبيعية وبعدها روى أحداثا وتفاصيل غاية فى الطرافة عن مواقف وملابسات وقعت خلال رحلة هروب «السادات» من القاهرة إلى المطرية.

قال إن الوقت كان شتاء فى شهر طوبة، وهكذا خلال سير اللورى فى الطريق الزراعى، بدأ «السادات» يشعر بلفحات عاتية من الهواء البارد. . واضطر إلى تنبيه «حسن عزت» بالتوقف. . لكن صوته تلاشى فى صوت الريح وجلبة الموتور. . واضطر لذلك إلى الدق فوق كابينة اللورى بكلتا يديه. . وتوقف اللورى. . ونزل السادات من الصندوق. . وإذا به يكتشف أن «حسن عزت» والفتى «عزت الحجاوى» ينتفضان كذلك من شدة البرد. . لأن نوافذ اللورى كانت بلا زجاج. . عندئذ طلب السادات تأجيل

مواصلة الرحلة إلى المطرية حتى الصباح، لدواع أمنية ـ هكذا قال ـ إذ كان يخشى أن يكون هناك من عرف خطة تهريبه ويتعقب اللورى، بينما الحكاية أنه كان باللورى بطانية استخدمها الثلاثة للنوم والراحة أسفل اللورى. . لكنهم اكتشفوا أنها لا تكفى سوى غطاء لشخص واحد بالكاد.

فلما تحرك الركب فى المساء خطرت «للسادات» فكرة. . أن يتبادلوا النوم لمدة ساعة. . حتى يأتى الدور على أخر للنوم والاستمتاع بالدفء تحت البطانية بينما يواصل من لم يأت عليه الدور ممارسة التمرينات الرياضية والجرى طلبا للدفء.

وقال «محمد على ماهر» إن الثلاثة وصلوا المطرية وقد أصابتهم نزلات برد وكحة، فإذا عبد السلام شقيق زكريا الحجاوى بانتظارهم على أطراف المطرية. . وإذا «صينية العشاء» التى كثيرا ما كانت تأتى فى أحاديث الرئيس «السادات» دليلا على أخلاق القرية والشهامة والكرم تدخل عليهم فى قاعة البيت الدافئة وعليها مالذ وطاب من صنوف الطعام التى بادر الجيران إلى تقديمها احتفاء بضيف الحجاوى وهما الأسطى إبراهيم وهو الاسم المستعار للسادات بينما اختار زكريا لحسن عزت اسم المعلم إسماعيل مقاول البناء!

البحث عن الذات

امتدت إقامة السادات وحسن عزت شهورا فى منزل الحجاوى، إلى حين توافر الأدلة القانونية التى تبرئ السادات من تهمة الضلوع فى اغتيال أمين عثمان، وإدانة زملائه والحكم عليهم بالسجن، لكن الغريب من أمر السادات، أنه ظل يأبى البوح علانية بفضل أصدقائه فى تهريبه ثم إيوائه بالمطرية زهاء ثلاثين عاما، حتى ولو بكلمة عابره أو إشارة ضمنية فى كتابه «البحث عن الذات»، وخلال هذه الفترة كان جزاء سنمار من نصيب زكريا، وهو نفس جزاء محمد على ماهر الذى عانى ويلات الحاجة والمرض واضطر للهجرة والتنقل ما بين لبنان والكويت والإمارات للعمل فى صحفها وإذاعاتها، ومن هنا كانت سخريته اللاذعة من كتاب «البحث عن الذات» وقال: كان أولى بالسادات اختيار اسم آخر وهو «البحث عن الملذات».

لكن والحق يقال إنه ما إن ذاع خبر وفاة زكريا بالدوحة، حتى كانت مبادرة السادات إلى رد اعتباره، عبر تشييع جثمانه فى جنازة رسمية، وتعيين ابنه أسامة ضابطا فى الحرس

الجمهورى، والاعتراف علانية ولأول مرة يوم الاربعاء ٢٨ نوفمبر ١٩٧٩ بشهامة وشجاعة زكريا خلال زيارته لمنزل آل الحجاوى فى المطرية، عندما احتضنه هاربا من السجن عام ١٩٤٥، ومختبئا عن عيون البوليس السياسى عام ١٩٤٨، وضيفا عليه فى المطرية للحوار وللاستجمام والاستمتاع بمساجلات زكريا مع أقاربه وأصدقائه الصيادين!

فى المطرية كان فى استقبال السادات سعد الشربينى محافظ الدقهلية وأرملة زكريا وشقيقه عبد السلام، حيث كشف الأسطى إبراهيم «سابقا» عن شخصيته الحقيقية، وأصدر قراره بتحويل منزل الحجاوى إلى متحف يضم أعمال وصور ومتعلقات زكريا «فنان الشعب» وهو اللقب الذى خلعه على زكريا فى ذلك اليوم.

لم تقتصر زيارة السادات على متحف «فنان الشعب»، لكنه وجد نفسه يستجيب تلقائيا لدوافع خفيه على ما يبدو، حين ابتعد عن سيارته الرسمية التى كانت تنتظره إيذانا بنهاية الزيارة.. ثم إذا به يمشى الهوينى فى شارع سعد زغلول حتى نهايته، ثم شارع داود الريس حتى نهايته حيث يقع ناصيتهما منزل الحجاوى وهو يشير إلى البيوت من حوله، ويتذكر بالاسم بعضا من سكانها، ويسأل عمن بقى منهم على قيد الحياة ويتبادل معهم الحديث والذكريات ويشكرهم على مودتهم إبان اختفائه تحت اسم الأسطى إبراهيم.

لكن السادات لم يتوقف عند هذا الحد، وللمرة الثانية لا يستجيب لدوران محرك السيارة الرسمية تأهبا للعودة إلى القاهرة، وأصر على أن يستكمل شريط ذكرياته فى المناطق المحيطة بالمطرية، حيث تقدم راجلا على الطريق وموكب المرافقين والحرس من حوله لا يعرفون إلى أين ومتى ينتهى به المطاف، حتى فوجئوا به وهو يهبط إلى مركب شراعى ويطلب من صاحبه أن يتجه إلى «جزيرة سلام»، وطاف بها، والتقى بالعديد من الأهالى الذين عرفوه من قبل، بينما كانت دهشة بعضهم بلا حدود عندما أدركوا أن الأسطى إبراهيم الذى عرفوه تاره سائقا للورى.. وتاره أخرى ميكانيكى لنشات بحرية أو تاجر مواشى.. هو.. هو بقسماته وصوته أصبح رئيسا لجمهورية مصر.. ثم يرددون فى دهشة عبارة «سبحان العاطى الوهاب».

عاشق المداحين

فى القاهرة . . واصل الرئيس أنور السادات محاولته الخلاص من وطأة الشعور بالذنب ، حيث صدر قراره الثانى بإعادة الاعتبار لفنان الشعب وإحياء ذكراه عبر تغيير اسم مسرح السامر إلى مسرح زكريا الحجاوى ، بل وكان والسيدة حرمه فى طليعة المشاهدين للعرض المسرحى الغنائى الراقص حول سيرة حياته وما حفلت به من عطاء وإبداعات عبر أوبريت «عاشق المداحين» ، وأذكر وكنت من حضور الحفل . . أن السادات نهض لمصافحة نجوم الأوبريت ، وكان قد سبق وتعرف عليهم من طول صداقته لزكريا الحجاوى سواء فى ندواته أو جولاته وحفلاته ، ونقل عنه فى أقواله وخطبه بعدما أصبح رئيسا لمصر . . الكثير من عباراته الشعبية ، وبينها «أخلاق القرية» «كبير العائلة» أو «صينية العشاء» التى طالما استخدمها تارة فى شرح مفهوم الاشتراكية وتاره أخرى فى التدليل على شهامة الاتحاد السوفيتى فى إعادة بناء القوات المسلحة بعد أن فقدت أسلحتها فى حرب يونيو ١٩٦٧ ، ثم انقلب على الاتحاد السوفيتى ١٨٠ درجة ، تماما كما انقلب على أصدقائه الأوفياء الذين وقفوا إلى جانبه فى أوقات الشدة .

جدير بالذكر والتنويه بأمسية «عاشق المداحين» ، أنها بدأت وسط حضور كبير فى الثامنة والنصف مساء وحتى العاشرة والنصف ، حيث كان الرئيس السادات فى البداية قد افتتح معرضا خاصا فى باحة المسرح ضم ثروة معرفية ثمينة من مخطوطات الفنان الراحل وأعماله الفنية وإبداعاته الأدبية ومقتنياته الخاصة وبعضا من أشعاره وأزجاله إضافة إلى الملاحم الشعبية التى جمعها من الريف ومضارب البدو وقرى الصيادين ، ثم أزاح السادات الستار عن تمثال نصفى بالحجم الطبيعى الذى كان عليه زكريا الحجاوى ، والمدهش أن ينهض بعمله المثال المعروف مبروك فى أقل من ٢٤ ساعة !

وروى لى الفنان مبروك يومها أن عبد الفتاح شفشق وكيل وزارة الثقافة والإعلام اتصل به يسأله إن كان بوسعه انجاز التمثال خلال هذه الفترة القصيرة ، ولا أدرى لماذا أو كيف وافقت على هذه المغامرة الفنية ، خاصة ولم التق بزكريا الحجاوى شخصيا ولم يكن لدى سوى صورة صحيفة له ، لكن حبى له وولعى بإبداعاته الفنية وعطائه غير المسبوق فى جمع التراث الشعبى ، إضافة إلى الحكايات المشرقة التى كنت أسمعها عنه من أعضاء فرقة

الفنون الشعبية التى كونها، إذ كانت لها مفعول السحر فى إنجاز هذا التمثال الذى نال تقدير الجميع.

والشاهد أن الأديب الصحفى عبد المنعم الصاوى وزير الإعلام والثقافة الأسبق، كان صديقا حميما لزكريا الحجاوى منذ عملا معا فى صحيفة المصرى، من هنا جاءت الكلمة التى افتتح بها الحفل تشى بمآثر الفنان العظيم، وكيف كان إيمانه بلا حدود بالفن كرسالة حب وحوار مع الطبيعة والإنسان وقدرته الفذة على اكتشاف ما فى النفس الإنسانية من نوازع.

وأضاف أن زكريا الحجاوى كان واحدا من أصدق الذين عبروا عن بيئاتهم بوعى وإحساس مرهف، وقد آمن منذ اللحظة الأولى أن الموهبة كامنة فى الريف، فى قراه أو نجوعه وفى أحياء المدن الوطنية، وهو قد استطاع وحده وباقتدار لم يسبقه أحد، فى الكشف عن هذه المواهب، وأن يكون جيلا مؤمنا بتراثه، والتعبير عن نفسه بصدق، والمشاركة فى صياغة الوجدان العام. . وتلك هى مصر أم التاريخ والحضارة والمعلم الأول التى قادت ولا تزال تقود شعبها وسط العواصف والأنواء إلى برالأمان والحب والجمال.

بعدها أزيح ستار المسرح عن أوبريت «عاشق المداحين» بمشاركة ١٢٠ فنانًا وفنانة فى مقدمتهم المطربة خضرة محمد خضر وفاطمة سرحان وجمالات شيحه وهن من اكتشافات الحجاوى فى دروب الفنون الشعبية، فيما قام بالتمثيل عزيزة راشد وفتحية طنطاوى ومحمد أبو العينين، ونهض بمهمة الإخراج يسرى الجندى وكتب نص الأوبريت واحد من تلاميذ الحجاوى وهو عبد العزيز عبد الظاهر الشاعر الكادح الذى نبت فى بطون الريف.

وقد بدأ العرض بأغنية «باسم الله حنبتدى الليلة» التى كان الحجاوى دائما ما يبدأ بها حفلاته وبرامجه الفنية، تخللتها مقاطع غنائية شعبية من مؤلفاته الشهيرة، وتحكى عن غرامه وحبه لمصر وصمودها العظيم التى جسدتها أسطورة «ناعسة وأيوب المصرى»، وبعدها جاء الدور على ملحمة «سعد اليتيم» التى كانت واحدة من اكتشافات زكريا الحجاوى، ومن خلال المعالجة الدرامية ظهر سعد اليتيم ليؤكد للناس أنه يعيش بالناس ولهم، وأنه يسعى من أجل أن يعيش الجميع فى حب ووئام على نحو الطباع والقيم والمبادىء التى عاشت بها مصر على مر العصور.

ثم تتابعت المشاهد الغنائية الراقصة عبر بانوراما شائقة تستعرض فئات الشعب المصرى

ومهنهم وحرفهم التى نهضت مصر بفضلهم وعلى أكتافهم وجسدها الحجاوى فى أعماله الإذاعية والمسرحية، بداية بالفلاحين والبنائين والصنايعية والحدادين والصيادين والمراكبية والبياعين وحتى العتالين.

ولعل النجاح الباهر الذى تحقق لأوبريت «عاشق المداحين» يكمن فى اعتماده فى الأساس على الفنانين والعازفين الشعبيين الذين طالما كانوا نجوما فى فرقته وفى جولاته ولياليه الاحتفالية خاصة السهرات الرمضانية فى حى الحسين، بينما كان للديكور تأثيره الضافى على أجواء الأوبريت، إذ كان بسيطا وواقعيا لا يتجاوز فرش الريف من الحصير وحوائط البوص والمقاعد الخشبية والفوانيس.. وربما لهذا النجاح وذلك الصدق فى التعبير انهالت الدعوات من الدول العربية التى استضافت فرقة زكريا الحجاوى وأوبريت «عاشق المداحين»، فضلا عن مشاركتها فى المهرجانات العربية للفنون الشعبية.

ثم كانت مغامرة وزارة الثقافة التى صادفها النجاح والتوفيق عندما عرضت أوبريت عاشق المداحين على المسرح الرومانى الأثرى فى تونس أكبر تجمع دولى للفنون تحتضنه مدينة قرطاج سنويا، وكتب النقاد الفرنسيون والعرب كثيرا وفى تقدير بالغ يشيدون بالصور الشعبية التى تعكس التقاليد والروح المصرية الفطرية، وكيف نجحت فى مخاطبة الوجدان العام من خلال الأغانى والرقصات والمواويل ومديح المداحين.

رحيق النحلة و«سويتش» الحكمة

إذا جازت المقولة الدارجة أن الفنون جنون، فقد كان زكريا الحجاوى نصف مجنون ونصفه الآخر عاقلاً وحكيمًا شديد البأس على تطويع البشر، فائق الاقتدار على تلوين الحياة وفق رؤاه وعلى هواه ومزاجه الخاص.

وبقدر ما كانت هذه الخصال موضع تقدير البعض ممن سبروا أغواره واقتربوا من أوضاعه الاجتماعية، واستهدوا بمصابيح أنوار مواهبه وملكاته الأدبية والفنية، كان للبعض الآخر ثمة قوالب جامدة ومعايير بيروقراطية للحكم على الحجاوى تستخف بدوره، وتبخس ريادته وتعتبر الفنون الشعبية مسخرة ولعب عيال.

لكن زكريا الحجاوى الذى عرفته عن قرب وتتلمذت فى مدرسته وأخذت عليه العهد

ضمن المئات من الحواريين والمريدين من أبناء الطريقة الحجاوية، كان رجلا ولا كل أعلام المثقفين فى عصره، ظريفا، وصبورا على العمل الدءوب بما يفوق احتمال البشر، ولولا مكاره الحياة وأحمالها الثقيلة التى كان يئن تحت وطأتها لكان له شأن يفوق الشأن الذى كان عليه، رغم خلوده الباقى فى كل درب ثقافى بادر إليه، وكل عطاء ما يزال لإبداعاته فيه موضع ريادة وإشادة.

من قبله، ومن بعده بين المثقفين والباحثين جاب مصر طولا وعرضا على قدميه، وعلى نفقته الخاصة ومن دخله المتواضع، من ذا الذى بحث واكتشف فنونها الأصيلة المنسية، ومن غيره كان المعلم الذى عرفنا بمفرداتها الحضارية المخبوءة والمبعثرة على شفاه الرواه وغناء ورقصات الفنانين الشعبيين.

كان زكريا الفرد مؤسسة ثقافية متحركة لا تهدأ، لكأنه النحلة التى ترشف رحيق الزهور والورود فى بساتين مصر المعمورة بأولياء الله الصالحين كما كان يقول، وكان يغيب عنا أيامًا وأسابيع ثم يعود إلى القاهرة يسقى مثقفيها وبسطاءها شهد الفنون الشعبية المعتقة، عبر لياليه الجميلة وإبداعاته الإذاعية والمسرحية، وذلك والكم الهائل من البحوث والمقالات والحوارات الصحفية.. فهل تجاوز الباحث الأديب الشعبى الراحل محمد جاد حين وصف دوره الثقافى بأهم وأعظم «سويتش» جيد التوصيل والتواصل بين حكماء مصر القديمة والإنسان المصرى الجديد؟

وزكريا كان بإجماع من خالطوه وعرفوا قدره من أصدقائه الأدباء والفنانين أو المفكرين «سندباد مصر الرابع» الذى جاب أرض مصر من كل اتجاه، أو على حد وصف عمرو بن العاص لمساحة مصر عبر السير على الأقدام «طولها شهر وعرضها عشر».

كان رفاعه الطهطاوى «سندباد مصر الأول» فى العصر الحديث، فهو قد امتطى ظهر مركب شراعى طاف به شهورا فوق صفحة النيل، ليتوقف عند القرى والدساكر والنجوع، يختبر نجابة أبنائها ويختار من بينهم طليعة البعثة المصرية لدراسة الثقافة الأوربية.. إيذانا بنقلها والاستفادة منها فى مصر.

أما عبد الله النديم فصيح الثورة العرابية ولسان حالها، فقد فرضت عليه ظروف إجهاضها الاختفاء عن أعين الانجليز، ومن ثم كان عليه التنقل دوما بين صعيد مصر ودلتاها وصحاريها، وقد ساهمت لباقته وثقافته ودرايته بأحوال البشر وهو الصحفى الأريب والظريف الودود فى الاختلاط بالناس بسهولة، والاشتغال بالزراعة والتجارة

والوعظ وكتابة الأزجال والمنشورات الثورية . . من ثم حق عليه وصف «سندباد مصر الثانى» .

وسيد درويش كان السندباد الثالث، عبر جولاته وصولاته ومخالطته لشتى الطبقات وأصحاب المهن والحرف ميدانيا فى بيئاتهم حتى يستلهم فى موسيقاه وألحانه ألوان أفراحهم وشقائهم وأمانيهم، ولذلك جاءت معبرة وصادقة وكتب لها الخلود أبد الدهر .

على أن سيرة حياة زكريا الحجاوى تؤهله ولا شك لصفات «السندباد الرابع» دون منافس، فهو قد بدأ مشواره فى أربعة أرجاء مصر وهو على شوق عارم لفهمها والقرب منها والغزل فى محاسنها وتلك كانت مفاتيحه لاكتشاف خلودها، دون أن تثنيه عقبة لبلوغ مراده، حتى لو اقتضاه الأمر النوم فى المساجد ومحطات السكك الحديدية!

كان صاحب طريقة تؤمن بأن مصر هبة مقدسة، وأن الله حباها بكل المقومات والخصائص التى تؤمن دورها القيادى فيما حولها من جوار وتخوم، موقعها فريد، ومناخها طيب، وترابها كحل، ونيلها خمر وعسل، وشعبها من صلب الفلاحين الرواد الذين زرعوا أول بذور النماء، وصنعوا أول حضارة فى التاريخ .

ولعل ما يميز زكريا من مواهب، قدراته الفريدة التى لا تبارى فى الكشف عن مواطن الجمال المصرى، إذ كانت ملامح هذا الجمال تمر بنا أو تطرق أذاننا فلا نكاد نتعرف عليها أو نتذوقها، وربما أعرض عنها البعض فلم يجد فيها قيمة جمالية مضافة، بل وربما ابتذلوها، وذلك كان الذوق العام والرؤى الغالبة للفنون الشعبية قبل أن يحملها على كاهله ويبشر بها المصريين كرسالة ثقافية سامية .

كانت لديه حاسة فطرية كما لو أنه جواهرجى خبير فى اللؤلؤ والماس، فما أن يلمح الجمال حتى يقترب منه ويتفحصه ويصنفه ويثمنه قبل أن يزيل ما قد علق به من صدأ وإهمال أو تزييف، ثم يعيد هذا الجمال للتداول والتذوق العام، يشع منه السحر والرقة وأصالة تأخذ بالألباب .

أذكر أن آخر سهراتنا معه كانت فى شقة رسام الكاريكاتير أحمد طوغان بشارع شريف، وكم شهدت هذه الشقة «اليابانية» الطراز سهرات رائعة ضمت الأصدقاء من الصحفيين والمثقفين والظرفاء والمتكلمين، فكان لزكريا دوما سبق الإدلاء بالقول الفصل فيما كان يعن لنا من قضايا وحوارات .

وأشهد أنه كان صاحب نبوءة العبور التى كانت الافتتاحية العظيمة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، فبينما خيمت على سهراتنا أجواء نكسة ١٩٦٧ شهورا من الحزن والإحباط ، كان زكريا يملؤه التفاؤل وحتميات قلب موازين الهزيمة إلى النصر المبين ، فكان يقول : «قد تهزم مصر ويجتاحها الغزو وتبتلى بالتسيب والإهمال والغفلة ، لكنها عبر روحها الزاخرة والحضارة الخالدة التى تسرى فى العروق والعقول لا تضيع أبدًا وتستيقظ دوما لاستعادة اتزانها وعافيتها ، وقال إن ما حدث فى يونيو ١٩٦٧ لم يكن هزيمة لمصر وإنما هزيمة أخطائها .

ومن المعروف أن زكريا ظل يقدم عروض فرقته الشعبية على جبهة القتال للترفيه عن القوات المسلحة وشحذ معنوياتها طوال فترة حرب الاستنزاف ، وهو كان يلقى آنذاك محاضرات فى النوادى والجامعات حول أسباب الهزيمة ورؤيته فى تجاوزها ، فيما كانت مشاركة فرقته فى مختلف المناسبات الوطنية وأعياد المحافظات ولياليه المشهودة مع بناة السد العالى ، فكان يقدم ألوانا شتى من الفنون الشعبية ، وبينها أفراح الريف «وزفة الجهاز» ورقصات الوجه البحرى والقبلى وعرب الصحراء الغربية وسيناء ، عبر أوبريتات غنائية راقصة يرافقها الشعر الشعبى الجميل وكان زكريا فى كل ذلك المكتشف لأصوات المطربين الشعبيين من أمثال محمد طه وأبو دراع ويوسف شتا ومتقال وخضرة محمد خضر وفاطمة سرحان والدة المطربة سوزان عطية ، إلى غير ذلك من قيامه بمهام التدريب والديكور والإخراج والتلحين وكتابة النصوص .

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

خشونة الصوت الجميل

ذات أمسية بهيجة فى شقة طوغان قبل أسبوع واحد من تحولها إلى عش الزوجية أوائل السبعينات ، كانت لنا جلسة استماع مع زكريا لموهبة غنائية جاءت فى صحبة المخرج الإذاعى الكبير يوسف الحطاب ، وكان فتى فى الرابعة عشرة من عمره ، حيث امتدت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل والفتى الفنان يشنف آذاننا بألوان من التواشيح الأندلسية والتركية وكم من عيون إبداعات محمد عبد الوهاب الغنائية ، ولذلك إيقنا أن زكريا الحجاوى سوف يضمه إلى فرقته حتما ومن كل بد ، خاصة وكان يميل برأسه منتشيا بصوته ذات اليمين وذات الشمال ، فلما طلب يوسف الحطاب منه أن يبدى رأيه فى أدائه وفى مستقبله . . قال بهدوء : العبرة بالبلوغ .

وضحكنا من أعماقنا قبل أن يدركنا الفهم، إذ كان من المتيقن أن يجتاز الفتى مرحلة المراهقة إلى الشباب فى أمان فربما نجا صوته الغض من مغبة الخشونة . . ومن المدهش أن تتحقق مخاوف زكريا وأن يعتزل الفتى الغناء بعدما إخشوشن صوته فى مرحلة الشباب، حيث تحول إلى ممثل إذاعى بعد احتضان زكريا له وتعهده بالتدريب على الإلقاء والتمثيل ثم ضمه إلى الفرقة الشعبية التابعة لوزارة الثقافة .

ولعلى من هنا أحسب أن نقطة الضعف الإنسانى فى سيرة حياة زكريا الحجاوى تكمن فى إنكاره لذاته عبر طابور التابعين من الموهوبين الذين كان ينجذب لهم وينجذبون له، ويتعهدهم بالرعاية والتوجيه، ثم يأخذ بيدهم إلى مدارج الشهرة والتألق، وربما لذلك لم يتسع وقته ولم يسعفه الجهد حتى يفرغ لنفسه، ويؤمن حياته من غدر الزمان وتآمر الغيلان من الجهلة والمستبدين .

يقول عنه تلميذه ورفيق دربه الأثير الكاتب الساخر محمود السعدنى : كانت مجالسنا معه تنفض ليلا أو نهارا، ونكتشف أنه أعطى كلاً منا مفتاحا للثقافة، وأن علينا أن نفتح به خزائن المعرفة وهو كان أول من لفت انتباهنا بل وحرضنا على قراءة الأدب الروسى إبان عهود القياصرة واكتشفنا بعد قراءة أعمال تشيكوف وتولستوى وديسكوفسكى أن علينا أن نعيد النظر فى أساليبنا وموضوعات أعمالنا القصصية والروائية!

وقال لى شاعر السودان الكبير محمد الفيتورى : كان الحجاوى القلب الكبير الذى بدد غربتى، وهو الذى شجعنى على مواصلة قرض الشعر، فما أن اكتملت قصائدى ونضجت وتنوعت أغراضها حتى أخذ بيدى إلى أحد الناشرين من أصدقائه وأقنعه بطبع ديوانى الأول، ثم قدمنى إلى مصطفى أمين فى أخبار اليوم، وإلى محمد حسنين هيكل فى آخر ساعة، وأوصى فتحى غانم بى خيرا حتى اقتنع بالعمل معه محرراً فى القسم الأدبى بمجلة صباح الخير .

وقال لى الفنان عبد السلام الشريف إن زكريا الحجاوى كان القابلة التى ولدت على يديه موهبة الفنان صلاح جاهين، وأذكر أنه زارنى يوما فى منزلى بضاحية «نزلة السمان» وبصحبته شاب بدين «مزقلط» حليق الرأس «زلبطة» وقدمه لى قائلا إنه ينتمى إلى عائلة محترمة كل رجالها من أرباب القانون والقضاء، وجده من زملاء الزعيم الوطنى محمد فريد .

لم أصدق زكريا فى بادىء الأمر إذ كانت هيئة جاهين توحى بعكس ذلك، حتى أننى

لم أتوسم فيه أى موهبة وقتئذ، ثم بدأ يتردد على مكتبى فى جريدة المصرى بصحبة زكريا وهو يرتدى جلبابا فضفاضا ويحمل معه حقيبة تحتوى على أدوات الرسم وكمية هائلة من السجاير، وعرضت عليه أن يرسم ما يشاء وأن يكتب ما يشاء، وفضل أن يرسم القصص التى كانت تنشرها المصرى آنذاك، ثم فوجئت بتعدد مواهبه، وقد بدأ بالرسم «الاستريتش»، ثم وجهته إلى الكاريكاتير، فكانت رسومه فتحا مبينا غير مسبوقة من حيث الخطوط والأفكار والتعليقات.

ثم يأتى الحديث عن موقف زكريا الحجاوى من موهبة الناقد الكبير رجاء النقاش، عندما أدركها خلال لقاءاته وحواراته مع شباب الأدباء والفنانين الذين كانوا يترددون على ندوته اليومية فى مقهى محمد عبد الله، ونحسب أن رجاء النقاش قد كشف بأسلوبه الأدبى الرقيق مزيدا من الضوء والعرفان بالفضل لهذا الفنان العظيم، عبر شهادته الضافية التى نشرتها صحيفة العربى الناصرية يوم ٢٦ أغسطس عام ٢٠٠١، خاصة وكان رجاء شاهدا على الدس والجحود وسوء الفهم الذى تعرض له زكريا، حين ألقت به المقادير خارج صحيفة «الجمهورية» الوليدة، وهو الذى اختار لها هذا الاسم قبل إعلان الجمهورية، حيث كانت سلطة السيادة لا تزال بيد مجلس الوصاية على عرش الملك أحمد فؤاد، بينما كان «صوت التحرير» الاسم الذى اختاره أنور السادات للصحيفة فى البداية، ولا شك أن زكريا بذل بإجماع الشهادات جهدا خارقا من دمه وأعصابه، مضافا لها خبراته الصحفية الثمينة منذ كان سكرتيرا لتحرير جريدة المصرى، سواء فى اختيار طاقم العمل فى المحررين، وسواء وضع نظام العمل، الأمر الذى كان وراء صدور الجمهورية قوية ومعبرة عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والتنوير بطموحاتها فى إعادة بناء مصر الاشتراكية.. وتلك هى المهمة والدور الذى حرم زكريا من الاضطلاع به.

والشاهد بالمناسبة أن ثمة سراً لم يكشف عنه الستار بعد حول استقالة زكريا الحجاوى من جريدة المصرى والتحاقه بالعمل فى صحيفة الجمهورية، وكان قد تعرض لوشاية دنيئة بدعوى اتصاله بجمال عبد الناصر وتحريضه على أحمد أبو الفتح رئيس تحرير المصرى، مما أدى إلى توقفه عن العمل احتجاجا، حيث قبع عدة أسابيع فى مسقط رأسه بالمطرية، إلى حين استدعاه أنور السادات وأسند إليه منصب مدير تحرير الجمهورية.

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

أمير الصعاليك

وهكذا فى إحدى حلقات «ذكريات العمر» التى رواها رجاء النقاش على الكاتبة الصحفية فريدة الشوباشى لم يكن بوسعنا سوى نشر شهادته عن زكريا الحجاوى كاملة تحت عنوان «أمير الصعاليك»، إذ كانت محيطة بكل التفاصيل الدقيقة لخبايا واقعة فصله من صحيفة الجمهورية وتحليلها بموضوعية، خاصة وأن رجاء النقاش تناول الظروف والأجواء السياسية والصحفية أوائل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كما لو أنه يؤرخ لها.. يقول:

فى صيف عام ١٩٥٣، قرر مجلس قيادة الثورة فى مصر إصدار أول صحيفة تنطق باسمه، صدر ترخيص هذه الصحيفة وهى صحيفة «الجمهورية» وكان صاحب الامتياز الصحفى، أى مالك الجريدة «جمال عبد الناصر حسين» ولا يزال هذا الترخيص فيما أعلم موجودا إلى الآن فى هيئة الاستعلامات باسم جمال عبد الناصر، قرر مجلس قيادة الثورة أن يكون المسئول عن إصدار الجريدة هو أنور السادات الذى كان فى المنصب المعروف الآن باسم رئيس مجلس الإدارة، أما رئيس تحرير الجريدة فقد وقع اختيار الثورة على الصحفى الراحل الأستاذ حسين فهمى ليشغل هذا المنصب وكان حسين فهمى رئيسا لتحرير جريدة «الزمان» المسائية التى كان يمتلكها «إدجار جلادباشا» أحد الرجال المقربين إلى الملك فاروق، ولا أعرف الأسباب التى جعلت مجلس قيادة الثورة يختار حسين فهمى بالتحديد لرئاسة التحرير فلم يكن حسين فهمى من المعروفين بأن لهم صلة سابقة برجال الثورة، مثلما كان معروفا عن أحمد أبو الفتح، وإحسان عبد القدوس وحلمى سلام ثم ذلك النجم الذى بدأ يلمع بقوة وبسرعة فى تلك الأيام وهو محمد حسنين هيكل، وكل ما سمعته عن سبب اختيار حسين فهمى لرئاسة تحرير «الجمهورية» هو أنه كان قريبا لأحد الضباط الأحرار المهمين وهو لطفى واكد، وكان لطفى واكد فى ذلك الوقت مديرا لمكتب عبد الناصر ومن أقرب الضباط إليه.

على أن الرجل الأول فى مشروع جريدة «الجمهورية» كان هو أنور السادات وكان هو صاحب القرار فى كل شىء، ولعل عبد الناصر قد اختار أنور السادات لمشروع جريدة «الجمهورية» لأن السادات كان يعمل بالصحافة فى فترة من حياته قبل الثورة، فقد عمل

فى مجلة «المصور» وعمل فى «روز اليوسف» وكان بصورة عامة معروفا فى الأوساط الصحفية فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات قبل قيام الثورة.

وقد شعر رجال الثورة بعد أن تولوا السلطة ان من الضرورى أنه تكون لهم جريدة تعبر عنهم وتنقل وجهة نظرهم إلى الناس، ولم تكن فكرة تأميم الصحف قد تبلورت فى أذهانهم بعد، حيث إن هذا التأميم أو التنظيم كما سمى فى وقتها لم يتحقق فيما أذكر إلا فى مايو ١٩٦٠.

أما الصحف اليومية الكبرى القائمة فى ذلك الحين فى مصر فكانت هى «المصرى» و«الأهرام» و«الأخبار» ولم يكن رجال الثورة يشعرون بالاطمئنان إلى هذه الصحف، وكانت «المصرى» بالتحديد تمثل أكبر تهديد وأخطر مصدر من مصادر القلق بالنسبة لهم فهى جريدة قوية واسعة الانتشار والتأثير، وهى من ناحية أخرى جريدة «حزب الوفد» الشعبى الضخم الذى كان يمثل أكبر قوة سياسية فى البلاد فى ذلك الحين.

وكان رئيس تحرير «المصرى» والشخصية الرئيسية المؤثرة فيها هو أحمد أبو الفتح، وكان كاتبا شعبيا معروفا بالوطنية والجرأة والشجاعة، وكان أحمد أبو الفتح يعرف جمال عبد الناصر وعددا آخر من رفاقه منذ وقت مبكر قبل قيام الثورة وكان عبد الناصر نفسه فيما يقال يتردد على «المصرى» بين الحين والحين، وكان يلتقى بأحمد ابو الفتح ويحاول أن يسرب بعض أفكاره وأفكار زملائه من الضباط الأحرار عن طريق «المصرى» بل إن كثيرين من المؤرخين للثورة يقولون إن أحمد ابو الفتح قد أسهم فى تحديد موعد قيام الثورة فقد كان مقررا أن تتم حركة الثورة فى الجيش بعد موعدها المعروف وهو ٢٣ يوليو بعدة أشهر أخرى، ولكن أحمد أبو الفتح أبلغ الضباط الأحرار عن طريق واحد من كبار هؤلاء الضباط وهو ثروت عكاشة أن الملك فاروق عرف بقضية هؤلاء الضباط الأحرار وإنه قرر تصفيتهم عن طريق ضابط كبير هو حسين سرى عامر الموالى للقصر، ومن المعروف أن أحمد أبو الفتح هو زوج شقيقة الدكتور ثروت عكاشة وبناء على المعلومات التى قدمها أحمد أبو الفتح إلى الضباط الأحرار، قرر عبد الناصر تقديم موعد قيام الثورة، وكان الموعد الجديد هو موعدها المعروف الآن أى ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢.

أبو الفتح أقوى صحفى والمصرى أقوى صحيفة

كان أحمد أبو الفتح يعرف رجال الثورة وعلى رأسهم عبد الناصر، ولم يكن يحس أن هؤلاء الرجال موضع خوف أو غموض بالنسبة له، فقد كان يعتبرهم من أصدقائه ومن الذين تأثروا بجريدة «المصرى» واستفادوا منها فى الإعداد لحركتهم الثورية، وهكذا كانت «المصرى» أقوى صحيفة، وكان أحمد أبو الفتح أقوى صحفى فى الساحة الإعلامية فى الأشهر الأولى للثورة ومع ذلك فقد كان مقدرا أن يحدث صدام عنيف بين «الثورة» و«المصرى» بعد استلام الضباط الأحرار للسلطة، فقد كانت الثورة تشعر أنها قوة سياسية جديدة، وأنها لن تتمكن من أن تلعب دورها وتنفذ برنامجها الكامل إذا بقيت القوى السياسية القديمة على حالها، فقد كان على هذه القوى القديمة أن تحمل عصاها وترحل فى نظر الثورة، وكان عليها أن تترك المسرح الوطنى لقوة الثورة الجديدة، ولكن عالم السياسة لا يعرف أبدا قوة تركت مكانها بإرادتها واختيارها، ولذلك كان لابد من «الصدام» بين الثورة والقوى السياسية القديمة، وهو الصدام الذى وقع بالفعل سنة ١٩٥٤ وانتهى بإغلاق جريدة «المصرى» وحل الأحزاب جميعا بما فيها حزب الوفد.

وكان الوفد والمصرى جريدته الأولى، قوة شعبية واسعة التأثير عميقة النفوذ شديدة التغلغل فى نفوس الناس وعقولهم، وإن كان من الثابت أن هذا الحزب الكبير لم يكن قائما على التنظيم «الدقيق» وكان أشبه بتيار وطنى عام يجتمع الناس حوله ويؤيدونه.

ويبدو أن أحمد أبو الفتح كان يتصور أن الثورة قد أدت دورها بوضع نهاية للنظام الملكى وإعلان الجمهورية، وأن على رجال الثورة أن يسلموا القيادة لحزب الوفد، ما دام الوفد هو حزب الأغلبية. وبالطبع كانت هذه الفكرة تتناقض تماما مع خطة الثورة وبرنامجها ولم يستطع أحمد أبو الفتح أن يتفهم الوضع الجديد فعارض الثورة بعنف ولا يزال يعارضها ويلقى عليها وعلى زعيمها عبد الناصر بالاتهامات حتى اليوم، وليس المجال هنا هو مجال الحديث عن الصدام الذى وقع بين الثورة وبين القوى السياسية القديمة، أو الصراع بين عبد الناصر وأحمد أبو الفتح، فذلك موضوع آخر يخرج عن نطاق هذه الذكريات والمهم هو أن الثورة قررت إصدار جريدة جديدة تعبر عنها وتدافع عن مواقفها وفلسفتها واختارت أنور السادات لإنشائها والإشراف عليها.

وكان من أقرب أصدقاء السادات إليه منذ الفترة التى خرج فيها من الجيش فى الأربعينات قبل أن يعود إليه قبل الثورة بسنوات قليلة صحفى مشهور هو الكاتب الفنان زكريا الحجاوى الذى كان يشغل فى ذلك الحين سكرتير تحرير جريدة «المصرى» وكان السادات ـ كما هو معروف ـ قد تم طرده من الجيش فى أواخر الأربعينات، وتعرض لظروف شخصية بالغة القسوة، وجاع وتشرد واضطر للاختفاء عن العيون، وفى هذه المحنة التى تعرض لها السادات واستمرت عدة سنوات وقف زكريا الحجاوى إلى جانبه بكل قوة ونبل، ولم يكن الحجاوى يعرف فى ذلك الحين أن السادات يمكن أن يعود إلى الجيش أو أن يكون له شأن فى حكم مصر ذات يوم، ولذلك كانت مساندة الحجاوى للسادات فى محنته خالصة لوجه الله والوطن والصداقة.

كان زكريا الحجاوى فنانا متعدد المواهب، وكان إنسانا جذابا ساحر الشخصية بالغ الصدق والأمانة وكان فيه «رجولة شعبية» أصيلة وهى الصفة التى تجعلنا نطلق عليها صفات مثل «ابن البلد» و«الجدعنة» بالاضافة إلى ما كان يتمتع به من خفة ظل غير محدودة، ومن الثابت أن الحجاوى لم يبخل بشىء من أجل حماية السادات والبحث عن عمل له ومساعدته فى الاختفاء كلما طاردته السلطة. وكان الحجاوى حريصا على أسرة السادات حرصه على أسرته الخاصة، فكان يرعى هذه الأسرة ويقدم لها كل أنواع العون والمساعدة.

كان هذا موقف الحجاوى من السادات عندما كان السادات يمر بمحنة طويلة قاسية، ولذلك كان المعروف عند الجميع أن علاقة السادات بالحجاوى هى علاقة صداقة قوية جدا، كما أنها علاقة قديمة تسبق قيام الثورة، وعندما تقرر إنشاء جريدة «الجمهورية» سنة ١٩٥٣، كما سبقت الإشارة، كان الحجاوى يحتل مركزا صحفيا حساسا فى الصحيفة التى كانت تعارض الثورة وتتحداها وهى «المصرى» ولذلك فعندما أراد السادات أن ينشىء جريدة «الجمهورية» كان من الطبيعى أن يختار زكريا الحجاوى مساعدا له بسبب ما بينهما من صداقة قديمة حميمة، وبسبب خبرة الحجاوى الصحفية الواسعة، وبسبب موقعه من جريدة «المصرى» كسكرتير لتحرير هذه الصحيفة القوية الكبيرة، والتى كانت الثورة تضعها على رأس القوى الكبيرة المعارضة لها. أما من جانب الحجاوى فقد كان شديد الإيمان بأن مصر بحاجة إلى قيادة شابة جديدة، وكان يرى فى الثورة ورجالها ما يمثل هذه القوة الجديدة التى يمكن أن تنهض بمصر وتواجه مشاكلها الصعبة، أى أن الحجاوى قد تقبل العمل مع السادات عن اقتناع وإرادة وطنية قوية، وليس لمجرد الصداقة

القديمة بينهما، كما أن الحجاوى كان بعيدا كل البعد عن منطق الخيانة لأصدقائه القدماء من أصحاب المصرى وعلى رأسهم أحمد ابو الفتح.

وذهب الحجاوى ليعمل مع السادات فى تأسيس جريدة «الجمهورية» وأعطى الحجاوى للعمل الجديد كل شىء، وقته وإخلاصه وخبرته وتعب أيامه وسهر لياليه، وقام الحجاوى بدور غير عادى لاقناع كل الخبرات الصحفية العالية فى جريدة «المصرى» وغيرها بالانضمام إلى جريدة «الجمهورية» فى الوقت الذى كانت فيه الجريدة الجديدة لا تزال مشروعا على الورق، ولم يكن مشروعا مضمون النجاح، بل لقد كانت الثورة نفسها لا تزال فى خطواتها الأولى تواجه رياحا عاتية من كل الاتجاهات وحتى من داخلها هى نفسها، ولم تكن المراهنة على الثورة وجريدتها بالأمر السهل أو المأمون الجانب، ولكن الحجاوى راهن على الثورة والجريدة، لأنه كان مفكرًا وأديبا وفنانا شعبيا بكل معنى الكلمة، وكان يعرف بذكائه وقلبه وتجاربه الشخصية الخاصة أن شعب مصر يعانى معاناة كبيرة وأنه بحاجة إلى قوة جديدة لإنقاذه. وقد رأى فى الثورة هذه القوة الجديدة.

وبفضل جهود الحجاوى انضم إلى مشروع الجمهورية عدد من أكفأ الصحفيين أصحاب الخبرة الفنية العالية، أذكر منهم الفنان الكبير عبد السلام الشريف والأستاذ إبراهيم موسى الذى كان رئيسا للقسم الخارجى فى «المصرى» والأستاذ إبراهيم عامر الذى كان من الكتاب السياسيين المعروفين فى «المصرى» وغيرهم.

عبد الرحمن الخميسى

ويستطرد رجاء النقاش فى شهادته: كان عبد الرحمن الخميسى قد عرفنى بزكريا الحجاوى منذ الأيام الأولى لانتقالى من قريتى إلى القاهرة فى أواخر عام ١٩٥١، وذلك قبل قيام الثورة بأقل من عام واحد وقد وجدت فى الحجاوى منذ الأيام الأولى لمعرفتى به أبا وأستاذا وأخا وصديقا لا مثيل له فى خدمة الآخرين دون أن يشكو من العناء والتعب ودون أن يتردد فى تقديم عون هو قادر عليه، وكان الحجاوى من خلال صلتى به يعرف كل شىء عنى، ويعرف الظروف الاقتصادية الصعبة التى كنت أمر بها وكانت تهددنى بالحرمان من الاستمرار فى تعليمى الجامعى، حيث إن أبى رحمه الله وكان مدرسا إلزاميا - لم يكن يستطيع من خلال مرتبه الضئيل أن يواصل الإنفاق على حياتى وتعليمى، وكان

الوالد مسئولا وحده عن أسرة تضم أكثر من عشرة أفراد، وذات صباح وفى فترة الإعداد لإصدار «الجمهورية» فوجئت بالحجاوى يطرق باب شقتى المتواضعة التى كنت أسكن فيها مع الأسرة فى حارة «مهدى» بحى شبرا وكانت زيارة الحجاوى مصدرا لدهشتى الكبيرة إلى أبعد حد، فالحجاوى لم يكن يعرف عنوان بيتى، ولم يكن قد زارنى أبدا فى هذا البيت، وسألته عن الطريقة التى وصل بها إلى عنوانى فقال إنه عرف منى بالصدفة اسم الحارة التى أسكن فيها، فجاء إلى هذه الحارة وطرق كل الأبواب، وسأل السكان فى جميع الشقق حتى اهتدى إلى مسكنى.

بهذه الطريقة، وبهذا الجهد وهذا الإصرار النبيل استطاع الحجاوى أن يصل إلىّ ليقول فى بساطة: إنه عيننى فى «الجمهورية» مقابل عشرة جنيهات فى الشهر تعيننى على الاستمرار فى دراستى الجامعية، وكان ذلك بالنسبة لى طوق نجاة لا شك فيه.

وبدأت أتردد على جريدة «الجمهورية». أذهب إليها كل يوم بعد انتهاء دروسى فى كلية الآداب فى الثانية بعد الظهر، وأبقى فى الجريدة حتى منتصف الليل وكنت أبقى جالسا فوق مكتبى لا أغادره أبدا ولم أكن أحب أن اختلط بالآخرين، أو أفرض نفسى على أحد، وكنت أصحب معى بعض الكتب للقراءة كلما وجدت فراغا لذلك.

وأخذت حركة الإعداد والتحضير لإصدار الجريدة تنشط وكان النجم الأساسى وسط هذه الحركة الدائبة المتجددة هو زكريا الحجاوى. . كان لا يمل من العمل، وكان متفائلا مستبشرا وكان يملأ أجواء الجريدة بحيويته المتدفقة وخفة ظله وإنسانيته وكثيرا ما كان يردد أن «الجمهورية» سوف تكون بداية لعصر صحفى جديد فى مصر، وأنها سوف تكون منبرا لأصحاب المواهب الحقيقية من أبناء البلاد الذين لم يفرضهم على العمل سوى قدراتهم وليس أية عوامل أخرى خارجية.

أم العروســة

وتمر الأيام والحجاوى ممتلئ بالنشوة والسعادة والآمال الكبيرة، وكان كما يقول المثل الشعبى أشبه «بأم العروسة. . فاضية ومشغولة» وكان يحس أن مشروع الجريدة الجديد كبير وجميل وأن الولادة الرائعة أصبحت قريبة.

وفجأة وقبل صدور العدد الأول من «الجمهورية» بحوالى أسبوع ودون مقدمات، وجدنا قرارا موقعا باسم أنور السادات معلقا على لوحة الاستعلامات فى مدخل الجريدة، وكان مضمون هذا القرار هو إيقاف زكريا الحجاوى عن العمل ومنعه من دخول الجريدة.

كان القرار مثيرا للذهول عند الجميع فقد كان الحجاوى محورا للحركة والنشاط والأمل داخل الجريدة وكان خالى الذهن تماما مما يتم تدبيره له فى الظلام، ولم يتوقع ولا توقع أحد صدور مثل هذا القرار مع صداقته الطويلة والشهيرة للسادات ومع ما له من فضل عليه أيام محنته، وما بذله من جهد غير عادى فى إنشاء الجريدة وتوفير عناصر الحياة لها، لم يكن الحجاوى ينتظر أبدا مثل هذه النتيجة المؤلمة والتى جاءت بغير مقدمات تفسرها أو تبررها وذهبت إلى الحجاوى حيث كنت أتوقع وجوده وذلك فى قهوة «عبد الله» الشعبية الصغيرة بميدان الجيزة وهى القهوة التى تعود عدد كبير من أدباء مصر المعروفين فى الخمسينات أن يلتقوا فيها، وكان الحجاوى من ألمع نجوم هذا المقهى الصغير الذى لا يبعد أكثر من بضع خطوات عن بيته.

وجدت الحجاوى كما توقعت، كان مهموما بدرجة كبيرة، وكان وجهه غارقا فى الحزن والألم والتعاسة.

وأحسست أن عمره قد تقدم به سنوات كثيرة فى أيام قليلة وانعكس هذا التقدم فى العمر على كل شىء فيه.. من كلماته إلى حركاته إلى ملابسه إلى نظرات عينيه الحزينتين المرهقتين.

وبعد أيام صدرت جريدة الجمهورية بكل العاملين فيها إلا صاحب «العرس» الأصلى زكريا الحجاوى وحرصت فى هذه الفترة على أن أذهب إلى الحجاوى كل يوم بصورة منتظمة لألتقى معه فى قهوة «عبد الله» رغم ما كان فى ذلك من عناء شديد لى، بل حرصت على أن أقدم إليه جزءا من مرتبى التافه الصغير، وذلك لأننى لاحظت أنه وقع فى أزمة مالية واضحة، ولم تكن قروشى القليلة ذات نفع من أى نوع له، ولكنها كانت كل ما كنت أملكه للتعبير عن مشاعرى نحوه فى هذه المحنة العجيبة.

وتغيرت الدنيا حول زكريا الحجاوى وكنت ألاحظ هذه التغيرات فى ألم وحسرة فقد كنت شابا صغيرا لم أصل إلى العشرين بعد، وكان إحساسى بالحياة أكثر براءة من أن يتحمل ما رأيته أمام عينى من مشاهد وأحداث.

أصبح الحجاوى وحيدا، لا تجد حوله أحدا ممن كانوا يحيطون به فى كل لحظة وفى كل مكان. . فى بيته ومكتبه وفى الشارع والمقهى. . لقد أصبح الزحام الشديد حوله فراغًا وبرودة.

وقد علمتنى الحياة بتجاربها العديدة أن هذه ظاهرة طبيعية فى مجتمعنا، بل لعلها تكون ظاهرة طبيعية فى حياة الناس جميعا، فالناس مع الغالب لا مع المغلوب ولكننى فى ذلك الوقت سنة ١٩٥٣ لم أكن أستطيع أن أستوعب مثل هذه الظاهرة المريرة، ولم أكن أجد لها تفسيرا أو مبررا فكيف تخلى الناس بهذه السرعة عن رجل كانوا يملئون حياته بالضجيج، ويظهرون له من العواطف ألونا كثيرة وبراقة.

الإعدام المدنى

www.books4all.net

لقد ترسب فى نفسى من إثر هذه الصدمة الأولى والكبرى فى حياتى الثقافية شعور بأن الأديب فى مجتمعنا ضعيف مهما كانت قوة موهبته وأصالة نبوغه بل ترسب فى نفسى أكثر من ذلك شعور بأن الإنسان فى هذا المجتمع كائن هش يمكن أن تعصف به الصدفة فى أية لحظة، ولم أكن أتصور أن يتعرض أديب وفنان موهوب مثل زكريا الحجاوى لما يمكن أن نسميه الآن «بالإعدام المدنى» لمجرد غضب شخصى عليه، مهما كانت قوة هذا الشخص ومهما كان سلطانه، ولم أكن أتصور ان يصبح الحجاوى أو أى إنسان آخر متهما ومحكوما عليه دون أن يعرف حقيقة تهمته ودون السماح له بكلمة واحدة ينطقها فى الدفاع عن نفسه.

لقد تحولت حياة زكريا الحجاوى بعد هذه الصدمة تحولا أساسيا، فلم يعد إلى الصحافة أبدا بصورة جدية وظل كذلك حتى وفاته حوالى سنة ١٩٧٥ فيما أذكر، أى خلال أكثر من عشرين سنة قضاها فى الحياة الثقافية بعد الصدمة التى تعرض لها على يد السادات وقضى الحجاوى هذه السنوات الطويلة يكتب للإذاعة والمسرح، وقطع أرض مصر بمدنها وقراها من الاسكندرية إلى أسوان بحثا عن الفن الشعبى فى ألحانه وأغانيه وأصوات مطربيه، وأنجز الحجاوى فى هذا المجال إنجازات رائعة، وأتاحت له أجواء الثورة بعد استقرارها فرصا للتألق والنجاح فى المجالات الجديدة التى اقتحمها وفتح لها فى الثقافة والفن أبوابا كانت مغلقة.

وقد كان ما تعرض له الحجاوى هو كما أشرت أول صدمة ثقافية كبيرة فى حياتى .

وقد حاولت فى ذلك الحين أن أعرف الأسباب التى كانت وراء قرار السادات المفاجىء بطرد زكريا الحجاوى على هذه الصورة المؤلمة والتى تخلو من أى معنى من معانى الوفاء، وكنت راغبا إلى أقصى حد فى فهم الأمر على حقيقته كما أننى كنت أحب الحجاوى أعمق الحب وكنت على يقين بأنه لم يرتكب خطأ يستحق هذا العقاب وكنت فوق ذلك كله أريد أن أفهم كيف يدور العالم حولى، وكيف تدور فيه الأحداث وتحدد المصائر الإنسانية، وكانت الفرصة أمامى متاحة لمحاولة الفهم، فقد كنت وقتها «مصححا» فى الجمهورية ولم يلتفت أحد إلى وجودى المتواضع المحدود فى الجريدة، فكنت أذهب إلى الجريدة كل يوم وأسمع بعض ما يتردد فيها حول هذا الموضوع .

خرجت من بحثى عن الحقيقة بمجموعة من الأسباب ترددت فى حينها وتناولت هذه القضية، فقد قيل إن السادات تلقى معلومات تؤكد له أن الحجاوى كان يتصل بجمال عبد الناصر ويحرضه على الجريدة ولابد من تغييره، بل لقد قيل إن السادات يملك تحت يديه تقارير منسوبة إلى الحجاوى ومرفوعة منه إلى جمال عبد الناصر تدور كلها حول هذا المعنى، وقيل إن الحجاوى كان يعامل السادات أمام المحررين كصديق قديم له، بل وكصاحب فضل عليه فكان يناديه باسمه المجرد أى « . . . . . يا أنور» وكان هذا الأسلوب فى التعامل مزعجا للسادات ومرفوضا من جانبه .

كان السادات قد تغير وضعه، وأصبح فى أعلى درجات السلطة ولكن الحجاوى كان يعامله كصديق قديم له وكان يخاطبه بنوع من الألفة، وأحيانا كان يخاطبه بلهجة تعليمية، استنادا إلى ما كان بين الاثنين من علاقة قديمة ويبدو أن هذا الأمر عند السادات كان خطيئة لا تغتفر .

وقيل أيضا أن الحجاوى كان ينسب لنفسه الفضل الأكبر فى تأسيس «الجمهورية» مما كان يسىء إلى السادات وإلى موقعه كمسئول أول عن الجريدة .

ولم أكن فى حاجة إلى أن أبذل جهدا كبيرا لكى اكتشف أن الاتهام الرئيسى الموجه إلى الحجاوى كان اتهاما مزورا . . فالحجاوى لم يكتب تقارير سرية ضد السادات أو غيره . . ذلك أمر تم تلفيقه بالتأكيد لأن طبيعة الحجاوى ونفسيته وأخلاقه كانت جميعا لا تسمح له باللجوء إلى مثل هذا الأسلوب . . وكان لابد من تلفيق تهمة بهذا الحجم للحجاوى واشاعتها بين الناس دون تقديم أى دليل مادى واضح عليها لتبرير إصدار قرار ضده بطرده من عمله .

أما ما كان ينسب إلى الحجاوى بعد ذلك من طريقة معاملته للسادات فهو صحيح من

حيث المظهر ولكن الحجاوى كان يفعل ذلك بمحبة وحسن نية وأدب جميل فى التعامل، فقد كان الحجاوى أستاذا فى حسن التعامل مع الجميع وما كان يفعله مع السادات كان قائما على الاعتقاد بأن أساس العلاقة بينه وبين السادات هو أساس إنسانى يقوم على الثقة المتبادلة منذ أن تعرض السادات لمحنته القديمة، وكان الحجاوى هو أقوى الذين وقفوا إلى جانبه وعاونوه معاونة جدية.

الزوايا المظلمة

لقد كان الحجاوى على شدة ذكائه طيب القلب شديد الثقة بالناس غير عابىء بالزوايا المظلمة التى تعمل عملها العنيف فى بعض النفوس وقد كان على الحجاوى أن يدفع ثمن هذا كله.

ومنذ هذه التجربة التى تعرض لها الحجاوى تخلى السادات نهائيا عن صديقه القديم، وعندما كان السادات رئيسا للجمهورية تعرض الحجاوى لظروف عديدة منها فصله من وزارة الثقافة و«الثقافة الجماهيرية» وانهيار المنزل الذى كانت تقع فيه شقته فى الجيزة، لم يجد مخرجا من هذه الظروف العسيرة ألا أن يترك مصر ويسافر إلى قطر للعمل هناك، وفى قطر لقى رعاية رائعة واستثنائية من الكاتب الكبير «الطيب صالح» الذى كان مديرا للإعلام فى قطر فى ذلك الوقت.. وقضى الحجاوى فى قطر ثلاث سنوات حيث مات هناك بعد أن أتعبته التجارب والصدمات ورحلة الحياة الخالية من الأمان.

وعندما عاد الحجاوى ميتا ليدفن فى مصر تذكره السادات، وأمر بإقامة حفله لتكريمه بعد رحيله فى مسرح السامر، وحضر السادات بنفسه هذا الحفل ثم أمر بتغيير اسم «مسرح السامر» إلى «مسرح زكريا الحجاوى» ولم تمض فترة طويلة على ذلك حتى اختفى اسم زكريا الحجاوى من المسرح وعاد إليه اسمه القديم، ويقال إن السادات قد أسدى بعض الخدمات لأبناء زكريا الحجاوى بعد رحيله خاصة ابنه الأكبر أسامة الحجاوى ولا أدرى مدى صحة هذا الكلام وليس من المستبعد أن يكون هذا هو ما حدث بعد موت الحجاوى.

على أن هذه الصدمة التى تعرض لها الحجاوى سنة ١٩٥٣ وتعرضت لها معه فى بداية حياتى الثقافية، ظلت حية فى أعماقى بآثارها العنيفة وكانت هذه الآثار توجهنى على

الدوام فى فهمى لأنور السادات وتحليلى لشخصيته خاصة بعد أن تولى السلطة الكاملة فى مصر من سنة ١٩٧٠ إلى سنة ١٩٨١ ، فالأسلوب الذى تخلص به السادات من الحجاوى هو نفس الأسلوب الذى لجأ إليه مرارًا فى التخلص من أقرب الناس إليه فى قمة السلطة ، فقد كان دائما يلجأ إلى المفاجأة بعد أن يتظاهر بالمودة والصداقة الكاملة لمن ينوى أن يعصف بهم ويقضى عليهم ، وكنت واثقا من أن السادات سوف يضرب ضربته المعروفة باسم ١٥ مايو ، ليعصف بكل من ساعدوه على الوصول إلى السلطة ، وبنفس الطريقة المفاجئة وتلفيق الوثائق والمستندات والأسباب ، وقد ظلت فى نفسى «علامة استفهام» كبيرة حول شخصية السادات الإنسانية منذ تلك الصدمة الأولى الكبيرة .

وعلامة الاستفهام هذه لم تزل قائمة فى نفسى ، ولم أستطع أن أتخلص منها أبدا وهى تصاحبنى دائما كلما فكرت فى السادات أو حاولت أن أفسر بعض مواقفه العديدة بعد أن أصبح شخصية أساسية فى تاريخنا المعاصر ، وانعكست آراؤه وقراراته على الشعب كله .

دائما فى عقلى ونفسى يبدو السادات لى من الناحية الإنسانية على وجه خاص مصحوبا بعلامة استفهام كبيرة .

* * *

انتهت شهادة رجاء النقاش لتفسح المجال لشهادة الشاعر الكبير محمد التهامى ، وكان قد التقانى إثر مقال كتبته فى صحيفة «الشرق» القطرية عبر مسلسل بعنوان «حكايات ذلك الزمان» ، تناولت فيه واقعة فصل زكريا الحجاوى من صحيفة «الجمهورية» .

قال لى الأستاذ التهامى إن السادات كان فى المغرب عندما نكل الملك محمد الخامس بالجلاوى وهو كان أحد وزرائه المتنفذين ، وبينما صحيفة الجمهورية التى لم تكن قد صدرت بعد تتلقى الخبر الذى بثته وكالات الأنباء عبر جهاز «التيكرز» تلقت فى أعقابه خبر تعيين السادات لى ضمن هيئة تحرير الجمهورية ، فما كان من زكريا الحجاوى والكاتب الصحفى عبد العزيز جبر إلا أن تبادلا السخرية علانية حول اختيار السادات لى وإلى حد الرقص فى صالة التحرير وهما يرددان الجلاوى . . الجلاوى ، فكان قرار السادات فصل زكريا الحجاوى ومنعه من دخول الجمهورية مقرونا بفصل عبد العزيز جبر أيضا .

بلدى يا بلدى

والحقيقة أن الجهود الثقافية المضنية التى بذلها زكريا الحجاوى فى حياته رغم معدومية الإمكانيات وافتقاره للتمويل المطلوب، إلا أنه تمكن بأعجوبة من جمع وغربلة وإعادة تقديم الفنون الشعبية للجماهير، إذا كانت من حيث الكم والكيف والآليات والأساليب جديرة بأن تنهض بها مؤسسة ثقافية وميزانية ضخمة.

صحيح أن روادًا آخرين سبقوه وزاملوه فى هذا الميدان الجديد على الثقافة والمثقفين، لكنهم جميعا كانوا من الذين يستمدون ثقافتهم حول الفن والأدب الشعبى من الكتب والبحوث، ويؤدون أعمالهم على النمط الأكاديمى النظرى البحت، وبينهم إدوارد لين الذى وضع كتابًا عن عادات المصريين وتقاليدهم والسيدة بهيجه صدقى وكتابها عن «الأغانى المصرية الشعبية» والدكتور عبد الحميد يونس وكتابه "الأساس المنهجى لإحياء الفنون الشعبية» وهو نفس النهج والمنوال الذى تبناه رشدى صالح فى تسجيل ودراسة الفنون والآداب الشعبية وقدمت المذيعة سميرة الكيلانى ـ رحمها الله ـ فقرات منها فى حلقات أسبوعية بالتليفزيون.

قبلهم كان دور الرواد من أمثال تيمور وسعد الخادم وأحمد أمين، أما زكريا فكان مختلفا ورائدا فى علاقته الميدانية بالفنون الشعبية فى بيئتها الطبيعية، وأظنه كان نهج وأسلوب علماء الحملة الفرنسية فى كتاب «وصف مصر»، لكن ما يميز زكريا الحجاوى عنهم يكمن فى المعايشة المتأنية وذلك الحب الكبير الذى كان يكنه لمصر وللشعب المصرى إلى حد العبادة، عبر استخلاص أجمل ما ينطوى عليه من سجايا وعادات وتقاليد، والتعبير عنها بصدق وعفوية من خلال الغناء والمواويل والأساطير والحكايات والنداءات الشعبية وحتى الغوازى والأدباتية، ولعلنا نذكر بالمناسبة تلك الأغانى والألحان الشعبية الرائعة التى وضعها لمسرحية الدكتور رشاد رشدى «بلدى يا بلدى».

هنا نستدعى شهادة الكاتب الصحفى عبد الرحمن فهمى المنشورة فى العدد الأسبوعى لصحيفة الجمهورية يوم ١٩ ديسمبر عام ١٩٦٨ . . يقول:

أما زكريا الحجاوى ملحن هذه المسرحية فقد كان مفاجأة لى، رغم ما كان يربطنى به

من صداقة أو قل «تلمذة» يصل تاريخها إلى ١٨ عامًا مضت، عرفت خلالها زكريا الحجاوى القصصى، ثم المحرر فى كل فروع التحرير، إلى حد عمله معلقا رياضيا على مباريات فريق المجر الدولى برئاسة بوشكاش عام ١٩٥٣م، فيما كتب زكريا تحقيقات عن أهم حوادث البوليس، أذكر منها مصرع النقراشى وسفاح كرموز فى الوقت الذى كتب فى عامود المرأة وهو يصف فستان البيجوم أغاخان وريتا هيوارت عندما زارتا مصر.

وكذا عمله محررا فنيا ينقد الأفلام، بالإضافة إلى مهمته الأساسية فى كتابة المقالات الأدبية والسياسية التى كان لها شأن قبل الثورة. ثم رأس زكريا تحرير إحدى المجلات الأسبوعية، لكنه ترك منصب رئيس التحرير قبل أن يصدر العدد الأول!! فقد وجد فى منصب رئيس التحرير والمكتب الضخم المخصص له والتليفونات العديدة التى بجواره والفراش الذى يقف على بابه.. وجد فى هذا سجنا لفنه وعبقريته، فتركها وهرول فى الشوارع.. ثم أصبحت علاقتى به سماعيه وهو يؤلف للإذاعة ثم أصبح صاحب فرقة للفنون الشعبية.

لكن الذى لم أكن أعرفه عنه من قبل، بل لم أكن أتصوره أنه ملحن أيضا!! وملحن لمسرحية ضخمة لها وضع خاص مثل مسرحية (بلدى يا بلدى) ولم يكن ملحنا ممجوجًا يكثر من المقطوعات الموسيقية بلا داع، بل طوع الموسيقى بحيث جعلها فى خدمة النص ومن أجله حتى أن العيب الوحيد الذى أخذته على هذه المسرحية الناجحة أنها أوبريت أكثر منها مسرحية!... والسبب زكريا الحجاوى!!

على أن أوبريت «يا ليل يا عين» التى كتبها زكريا عن أسطورة مصرية اكتشفها الباحث الأديب توفيق حنا كانت بمثابة الفتح المبين فى التعريف بالفنون الشعبية وتقديمها للجمهور وفقا للأصول المسرحية، وكان زكى طليمات قد اختاره يحيى حقى مدير مصلحة الفنون ورعاية وزير الثقافة الهمام فتحى رضوان لإخراج المسرحية، ويحيى حقى يعتبر ـ كما سبق وذكرناه ـ صاحب الفضل فى تشجيع زكريا الحجاوى وحثه على مواصلة المهمة التى بدأها على صعيد البحث الميدانى عن الفنون الشعبية وإعادة تقديمها فى أشكال مسرحية غنائية راقصة.

عبد الحليم نويره فى البرارى

ولعل مما يكشف عن أسلوب ونهج زكريا الحجاوى فى معالجته الميدانية المباشرة للفنون الشعبية، عندما أصر على أن يصطحب معه الموسيقار عبد الحليم نويره لمدة شهر ونصف ما بين أواخر عام ١٩٥٦، وأوائل عام ١٩٥٧، طافا خلالها بمنطقة القناة ودمياط ومناطق البرارى والصيادين فى شمال الدلتا، للاستماع إلى ألوان الموسيقى والغناء الشعبى وتنوع فنون الرقص الفردى والجماعى فى البيئة والأجواء الطبيعية، وبعدها شرع نويره فى وضع ألحان وموسيقى أوبريت يا ليل يا عين، بينما أصر الحجاوى كذلك على تقديم الفنانين الشعبيين بملابسهم وآلاتهم الموسيقية البسيطة وهم يؤدون معظم الأغنيات الراقصة التى كتبها خصيصا للأوبريت والمستوحاة من التراث الشعبى، وهو كان أول عمل مسرحى يعتمد فى مادته وموضوعه على الفنون الشعبية وتقديمه على مسرح الأوبرا الذى تخصص منذ افتتاحه فى عروض الأوبرات العالمية وحفلات الموسيقى الكلاسيك والمسرحيات الدرامية الكبرى، وهكذا استطاع الحجاوى فى دأب ومرونة التغلب على المعوقات البيروقراطية وأعداء النجاح، وأن يبسط أعقد المفاهيم التى استعصت على الذين يقرءون ويكتبون، والذين لا يقرءون ولا يكتبون، مما كان له وقع السحر فى نفوس الجماهير. . ولم يكن ذلك سهلا، وإلا لكان قد تبعه أحد، أو ملأ الفراغ الذى تركه أحد.

وبقدر ما كانت «يا ليل يا عين» درسا فى التاريخ الفرعونى على نحو ما ذهب إليه النقاد، كذلك كانت من حيث الصياغة المسرحية مزيجا هارمونيا منسجما فى الربط بين الرقصات الغنائية والأمثال الشعبية والصلوات والمحاكمات الإلهية، عبر حكاية فتى من الصعيد يعمل صيادا وابنة عمه «خضراء» الجميلة التى ولدت فى نفس قرية حبيبها «ليل»، وبانتظار تتويج حبهما بالزواج والتبات والنبات وخلفة الصبيان والبنات، عندئذ تظهر حورية البحر «عين» وتقع هى الأخرى فى غرام «ليل» حتى تستحوذ تماما على قلبه واهتماماته، لكن وبعد أكثر من لوحة غنائية راقصة ينتصر الحب الحقيقى بين ليل وخضرة.

ولأن الأوبريت أحرز نجاحا منقطع النظير، إلى حد استمرار عرض يا لين يا عين

شهورا، ولأنه ظل كذلك محور كتابات النقاد والصحفيين والباحثين، من هنا فرضت الأوبريت نفسها على أساليب وصيغ ورقصات فرق الفنون الشعبية، سواء فى قطاعه العام مثل الفرقة القومية أو فرقة رضا فى القطاع الخاص، لكن ظل مأخذ زكريا على هذه الفرق التى ولدت فى رحم يا ليل يا عين، أن رقصاتها كانت فى سرعتها تقليدا للرقص الأوربى حيث كانت نشأته فى أجواء باردة، بينما الرقص الشعبى بطىء بسبب حرارة الجو فى مصر.

على أى حال فقد استمر زكريا الحجاوى فى جمع مسودة الحضارة من هنا وهناك، وراح يقدم الفنون الشعبية على المسرح والمشاركة فى الموالد والمناسبات الوطنية والدينية، وحقق نجاحات مقدرة، حتى لبى دعوة حكومة قطر كى يواصل المشوار الثقافى الذى بدأه فى مصر عبر البحث والتنقيب عن الفنون الشعبية الخليجية.

سهراية يحيى حقى

فى كتابه الممتع «سهراية مع الفن الشعبى» يقول الأديب الكبير يحيى حقى فى لهجة منصفة: «أقدم لك الآن على الصفحة التالية زكريا الحجاوى مد الله فى عمره، فهو الذى جلس من فرط أدبه إلى الأستاذ بالكثير ـ يقصد أحمد باكثير ـ الذى كلفته مصلحة الفنون بإعداد أسطورة يا ليل يا عين التى اكتشفها توفيق حنا إعدادا مسرحيا غنائيا ـ جلسة المريد من الشيخ، وأعانه على كتابه النص من قبيل الاقتراح الذى إن أسعده القبول لا يكربه الرفض. ولقد لقيت زكريا الحجاوى أول مرة وهو شاب ناشئ يدهش له كيف يحتل فى صحيفة المصرى إبان رواجها.. ورغم التزاحم الشديد، صفحة كاملة يكتب فيها ما يشاء.. تارة قصصا وتارة شطحات، تشرق وتغرب، ولكنها تتلمس دائما الإنسان لا فكرة تفلسف، بل كائنا ينبض بالحياة والمفارقات ويواجه القدر.

ورئيس التحرير الرأسمالى لم يترك له الحبل على الغارب، إلا لأنه تحسس فأيقن أن القراء يرضون عن هذه الصفحة ويتتبعونها ويطلبون المزيد ملء زكائب تدلق على مكتبه. كان الجسر قائما بين الكاتب والقراء، وأنا لا أريد أن «أنبط» على انقطاعه اليوم، فلقد كان من العسير أن لا تحس فى صفحة زكريا شيئا جديدا ليس هو اللغة أو الأسلوب أو فكراً رائداً يحلق فى العلالى. إذن ما هو إلا لقاء بكر مع الحياة فى حضن الفرح، بها ثمار وفيرة متعددة عدد خيرات الطبيعة مقطوعة لتوها من الشجرة عليها زغب وقطر الندى، هى فى

يد أناس آخرين تفرز وتغسل وتعبأ فى أكياس نايلون وتحفظ فى ثلاجات، فلا تولد على الأفواه إلا وهى شائخة، فزكريا لم يكن يمنح من علم مدرسى أو مكتبى بل من تجارب معيشية، حتى ملابسه حينئذ كانت عليها آثار غربة فى ما حور من صلصال مصر، فلقد تبقى لها لون لم أره على غيره ممن سلموا من «الهجنة» أتمنى أن أقرأ دراسة عن أذواق أبناء الريف عندنا فى اختيار ألوان ثيابهم أو حتى ألوان الشربات الذى كانوا يقدمونه للضيوف قبل هجوم الكاكولا وأخواتها؟ ولماذا يصر أغلب الفعلة من مصر العليا على هذا الجلباب المخطط بقلم عريض بالأبيض والبنفسجى أو الأزرق وهى فى المدينة لا تصلح إلا كيس مرتبه؟

ثم يواصل يحيى حقى معزوفته الأدبية فيما كان عليه زكريا الحجاوى من مآثر ومواهب يقول: حتى وهو جالس تحس أن يداً تنتش ملابسه، لأنه كالنحلة لا تعيش إلا فى الزحمة، إذا بقى وحيدا يتأسى وجفت عصارته، يختنق إذا لم يلتقط أنفاس جماعة تحيط به، وهذا شرط تألق نجمه، لأنه حينئذ يجد المدد ووعاء فيضه فيض كريم.

. . السكوت عند زكريا الحجاوى موت والحركة هى الحياة. . إنه لا يمشى بل يجرى إلى كشف جديد. . إلى حب جديد، وما كان هذا شأنه فهو مستبطن لروح فدائى.

كان زكريا هو الذى جاب لنا مصر من أقصاها إلى أدناها بحثا عن الفنان الشعبى، لم نتعرف عليه بل لعله هو الذى تعرف علينا، لقد احتل الآن مكانة مرموقة فى سامر الفنون الشعبية، وعرفه وأحبه الناس من خلال مسلسلاته الإذاعية والفرق الشعبية التى كان فيها واسطة العقد والدنيا معا، لقد صقله النجاح الآن وهيهات أن يخمد من تأجج ذهنه، لقد دهشت حين وجدته يتطوع فيكتب لنا أيضا نصوص بعض الأغانى فى لوحات يا ليل يا عين بإحساس رقيق وأسلوب جميل، فبلغت بين أغانينا مستوى رفيعا، إنه وتر فى قيثارته، لا أدرى لماذا لا يعزف عليها كثيرا. . هو لا يستبطن روح فدائى فحسب، بل روح شاعر أيضا»!

٧٢ ملحمة و١٢٠ مسلسلاً إذاعياً

على أن الإذاعة كانت بوجه خاص الساحة الأرحب التى استوعبت إبداعاته ومحصلة مشواره المضئ من البحث عن جذور الفنون الشعبية فى منابعها وبيئتها، ومن ذلك ما قدمه

للإذاعة المصرية من بين ٧٢ ملحمة وأسطورة قدر لها جمعها أواكتشافها من بطون الريف وفيافى الصحراء وأكواخ الصيادين وسواء المستوحاة من وبيئتها، أو تقديم أبطالها دراميا عبر ١٢٠ مسلسلا وبينها أيوب المصرى ـ سعد اليتيم ـ أنس الوجود ـ ليالى الرشيد ـ ابن عروس ـ ست الملك ـ عزيزة الفرشوطية ـ ليالى شهريار ـ شوق ـ الأرملة العذراء ـ الحب الأسير ـ جزيرة الحب ـ الشياطين ـ أجراس الشك ـ طاطا ـ إنصاف ـ أجازة صيف ـ ملاعيب شيحا ـ وراء الأسوار ـ سداح مداح ـ زينة النسا ـ العقد اللولى، كذلك قدم الحجاوى العديد من المسلسلات الخاصة لإذاعة الكويت وهى: عنترة، المظلومة، أسطورة الحب واللؤلؤ، أسد ابن الفرات، بلقيس أنشود الزمان، عزيزة ويونس.

أما السهرات الخاصة التى قدمها للإذاعة المصرية فى شكل سباعى أو خماسى فكان من بينها:

بلد السعادة، موكب الرؤيا، القاهرة الألفية، كفر الأصول، الميثاق، الشيخ رجب، محاكمة الناى، روبابيكيا، كريمة، أنس الوجود، كيد النسا، أيوب المصرى، سارة والعقاد.

وكذلك قدم زكريا الحجاوى عملين من التراث الشعبى الخالص فى شكل مسلسلات بينهما: خيال المآته ورقص ودماء.

ومن السهرات والمسلسلات التى أعيدت إذاعتها عدة مرات منذ الخمسينات وحتى الستينات وغيرها من الخماسيات والسباعيات وجارى فى بعض موضوعاتها روح العصر الحديث: نانا ـ الحب والغيرة ـ الموعود ـ حياة الإمام محمد عبده ـ أبو نواس ـ هدير نفسى ـ العودة ـ هند بنت عتب ـ فوق البركان ـ على فين ـ فارس من حماة ـ الأيام الأربعة وهى متابعة درامية للمواقف الحاسمة التى رافقت ثورة ٢٣ يوليو ـ فارس من الخرطوم ـ شهر زاد الجديدة ـ أول الطريق ـ الحرة اليمنية ـ فى مفترق الطرق ـ الموعد الأخير ـ الكرامة ـ أبو العريس ـ عظيم الشان والشنشان ـ الساحر العربى ـ تقانين ـ رابع المستحيلات ـ سنة من عمرى ـ أجراس الحرية ـ الأرض الكافرة ـ إيوان العرب ـ حديث الأجيال ـ قطر الندى ـ فارس بنى حمدان ـ المال والحال، نانا، الحب والغيرة، الحب والصيف، الموعود.

من باب السبق الأدبى والفنى يحسب لزكريا الريادة فى كتابة المسلسلات الإذاعية

«أولا» بالتزامن مع السيناريست السينمائى محمد حسن كامل المحامى، وكذا ابتكاره للمقدمة والنهاية الغنائية للمسلسلات الإذاطعية «وثالثًا» تجربته الرائدة فى مسلسل «وراء الأسوار» حيث ابتكر شخصية الراوى للأحداث وقام بهذا الدور الفنان محمود شكوكو على غرار «صندوق الدنيا» الذى كان يروى للأطفال مشاهد السفيرة عزيزة أو عنترة بن شداد التى تترى أمام أبصارهم عبر عدسة مكبرة. . وقد أضاف زكريا التلحين والغناء وأقوال الراوى فى المسلسلات الإذاعية «ورابعًا» تلك الأحاديث الشيقة التى كان يلقيها فى الإذاعة أسبوعيا عبر أسلوب الحكى الذى يصاحبها من الغناء الشعبى الحى، من باب التأكيد على المعانى والمعلومات بشكل واقعى وشائق، والدعوة غير المباشرة للتذوق الفنى، كذلك يذكر لزكريا الحجاوى كتابته وعرضه لعدد من البرامج الإذاعية الأسبوعية من بينها فن الشعب وعلى رأى المثل وهو دراسة أدبية للأمثال الشعبية التى ترسم معالم الشخصية المصرية الشعبية عبر تقديمها فى شكل تمثيلية تفسر معنى أو مغزى تلك الأمثال ومتى شاعت وموطنها ومناسبة ظهورها، إضافة إلى دراسته القيمة لشخصية «المداح» فى برنامج شخصيات تبحث عن مؤلف!

جدير بالذكر أن معظم إبداعات زكريا الحجاوى الإذاعية تستوحى التراث الشعبى دراميا أو تاريخيا أو حتى عاطفيا، وتسليط الأضواء على مضمونها الروحى والأخلاقى ودعوتها إلى النبل والجمال والفضيلة عبر أسلوب ضمنى سلس بعيدا عن النصح الخطابى المباشر، وتلك كانت السمة الغالبة فى كل إبداعاته ومقالاته وكتبه ودراساته أو تلك التى قدمها على المسرح وفى الإذاعة بوجه خاص.

جيهان السادات فى سرادق الحسين

وزكريا الحجاوى صاحب فكرة مسرح السامر، وإنشاء أول مركز رسمى للفنون الشعبية، وكذا أول فرقة للفنون الشعبية، وهو كان المؤلف والملحن والمخرج لعروضها الجماهيرية على مسرح المقطم والسرداق الرمضانى فى حى الحسين، فكان الناس يدخلونها مجانا كل ليلة من مختلف الطبقات والمشارب، ويستمتعون بحضور الحجاوى على المسرح وهو يقدم ويشرح فى لباقة وحيوية فقرات العرض، ما بين العزف الفردى والجماعى على الآلات الموسيقية الشعبية وما بين الغناء الشعبى فى الريف والبوادى

والبرارى، وأحيانا يلحظ وسط الحاضرين كاتبا كبيرا أو فنانا لامعا أو سياسيا مرموقا، ويستدعيهم على المسرح ويجرى معهم حوارات ثقافية ممتعة، ويوما كان الكاتب والمفكر الكبير أحمد بهاء الدين وسط جمهور سرادق الحسين وبصحبته زوجته السيدة ديزى والسيدة جيهان السادات وكان زوجها لا يزال نائب رئيس الجمهورية ـ فيما أذكر ـ ورغم أنه كثيرا ما كان نجوم الجنس اللطيف ضيوفا على خشبة المسرح . . إلا أنه استدعى أحمد بهاء الدين فقط، حتى لا يسبب حرجا للسيدة جيهان السادات ولا يجلب على نفسه القيل والقال، وأذكر أنه نادى عليهم فى تلك الأمسية قائلا ومن اللى شرفونا فى سهرتنا الحلوة النهاردة الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين وحرمه وحرم الصديق «البار» السيد أنور السادات . . الخ . . الخ .

وفى تحقيق صحفى نشرته مجلة آخر ساعة للكاتب الصحفى سعد كامل الذى أصبح فيما بعد مديرا للثقافة الجماهيرية يصف الحالة الإبداعية التى تهيمن على زكريا الحجاوى وسط الجمهور فى سرادق الحسين . . يقول :

«فى المناقشات التى نشرتها آخر ساعة فى العدد الماضى حول مهرجان الفنون الشعبية رأى هام لفرقة الفن الشعبى اليونانى . . إنهم يرون فى اليونان أنه لا محل للإعداد المسرحى للفن الشعبى على الأوبرا لأن الفن الشعبى فى رأينا إذا جدد لم يصبح فنا شعبيا !

وكذلك أكدت الفرقة الرومانية هذه النظرية عمليا فجميع أعضائها من الهواة . . ومن بينهم راقصون جاءوا من مرزعة واحدة فى أحد أقاليم رومانيا . . جاءوا كما هم بملابسهم الريفية كما هى !

وفى مصر تبنى فكرة تقديم الفن الشعبى بلا تزويق الفنان زكريا الحجاوى . . الذى قابلته آخر ساعة . . وتحدثت إليه هذا الأسبوع .

منذ أن بدأ رمضان . . والسرادق الذى تغمره الأضواء ويحتشد بالألوان من مختلف الطبقات . . يردد الأغانى الشعبية التى ألفها ولحنها الفنان الصديق زكريا الحجاوى و . . عندما ذهبنا إليه ذات ليلة كان يجلس فى مؤخرة السرادق وكله استغراق فى اللحن الذى تؤديه «خضرة» . . كانت الجماهير تطالب ملاعيب شيحة وملاعيب شيحة هى المسلسلة الإذاعية الناجحة التى ألفها زكريا فى العام الماضى . . وارتفع صوت «خضرة» الفضى يردد . .

حبيت يا ولدى باحب بلدى وأهل بلدى . . بلدى يا ولدى

وطنك أفديه وأحميه وأبنيه وأقرأ له ماضيه تسلم لى وليه

يانا يا بلدى

بلدى يا ولدى

متى أشوفك يا قلبى واطمنت . . وحبيبى فى إسنا وأنا بلدى أرمنت . . قالوا نخطبك من بلد المريس . . ولا قوم يمر على جرجا وبرديس . . قلت لهم كيف وأنا رجل حسيس أهلى وقربائى . . وأحبابى فى أرمنت . . متى أشوفك يا قلبى مبسوط . . ده حبيبى فى جرجا وأنا بلدى أسيوط . . قالوا واد مين أنا قلت حتسأل ليه ده أنا ابن أصل وأصلى ما يعلاش عليه . . ده أنا حلو فى عينه وأنا لابس زعبوط، وارتفع صوت «خضرة» باللازمة الغنائية التى لحنها لها زكريا . . لا . . لا . . لا

فاضطرب طرب الناس . . وضجت أكفهم بالتصفيق يصاحبون به اللحن، واشتد الحماس ببعض الشباب . . فراحوا يتمايلون طربا وحماسًا . . وقلت لزكريا . . عجيب هذا اللحن . . وأعجب منه الكلام . . متى . . وكيف ألفته ولحنته . . وابتسم الأستاذ زكريا وقال فى تواضعه المعروف :

«كنا نحيى حفلة فى أرمنت بالصعيد . . وكان على أن أؤلف أغنية صعيدية . . جريا على عادتى عند زيارة كل بلد فى الوجه القبلى أو البحرى . . وانتحيت جانبا من السرادق كما أفعل الآن . . وكتبت هذه الأغنية ولحنتها . . ثم حفظتها فى الحال للفرقة . . فغنتها»!

ولما أبديت اندهاشى من السرعة التى تم بها التأليف والتلحين . . ضحك الفنان زكريا وقال : بركة العجز!

وزكريا الحجاوى شخصية عجيبة . . لو شئنا أن نكتب عنها لاحتجنا إلى صفحات وصفحات، ولكن الكثير يعلمون أنه منذ عشرين عاما وهو يهيم بحب الفن الشعبى، وقد بدأ حياته زعيما لمدرسته يشارك بمواهبه فى قيادة المظاهرات ضد أعداء الدستور . . وانتهى إلى الفن فنظم الشعر . . وكتب القصص واشتغل بالصحافة . . ثم تفرغ لرسالته الأخيرة وهى إحياء الفن الشعبى .

إن زكريا يقول . . إن الخطأ الذى يقع فيه الكثيرون هو تصورهم أن الفنان الشعبى يجب أن يرتدى الحرير ويدهن وجهه بالمساحيق ليصعد إلى المسرح . . وأن يستبدل آلاته الموسيقية بأخرى حديثة . . مع أن هذا التغيير من شأنه أن يغير من طبيعة الفن والفنان الشعبى . . لقد جاء إلى هذا السرادق منذ أيام «خوسيه» مدير فرقة الفنون الأسبانية وراعه

ما تقدمه الفرقة من ألحان وأخذه الحماس . . فانتقل إلى منصة الفرقة . . وشارك «خضرة» فى ترديد الأغانى بالصوت والكفوف .

وجلسنا بعض الوقت . . وإذا بالأستاذ أندريه رايدر الموزع الموسيقى لأغانى عبد الوهاب من سنوات . . إذا به يدخل إلى السرادق فى هدوء ليجلس إلى جوار زكريا . . وتأملت الفنان الكبير . . كانت جوارحه كلها تنصت إلى خضرة وهى تؤدى أغنية اليمن التى ألفها ولحنها زكريا ، كان لحنا عجيبا أشهد أننى لم أسمع أقوى منه بالنسبة لجميع الأغانى التى رددها المغنون بمناسبة ثورة اليمن . . إن خضرة تنطلق بصوتها ومن ورائها فرقتها .

أدفع روحى ثمنا لأبطال اليمن ياللى رفعتو شرفنا العالى على صارى الزمن . . زى ما سيدنا سليمان حكم الجو زمان . . بلقيس جات له فى الأذان شايلنها له الجان . . شهدوا الناس للمصريين جيش طاير من غير جناحين . . عدى البحر فى غمضة عين وحصر العار ما بين جبلين .

وترتفع صيحات الجماهير . . مصفقة لهذا اللحن الذى تردده إحدى بنات الوطن . . ولكن صيحاتهم تشتد إلى حد الرياح . . عندما تغنى خضرة خاتمة هذه الأغنية بقولها :

الإمام البدر هرب والاستعمار انضرب . . ياللى وهبتم الدم الغالى فوق أرض العرب . . وتتنوع الأغانى والمواويل . . وكلها من تأليف وتلحين هذا العبقرى الشعبى العجيب الذى ذرع البلاد . . قرية قرية . . ومدينة مدينة . . وجاء إلى العاصمة يحمل أسرار الفن الشعبى . . وفى استراحة بسيطة . . يدور بيننا وبين زكريا الحجاوى هذا الحديث :

ما الذى جعلك تكرس كل جهودك من أجل الفن الشعبى؟

ـ لقد نشأت فى بيئة شعبية وسمعت غناء الصيادين فى المطرية ببورسعيد . . واكتشفت أن الغناء الصادق واللحن الأصيل . . يكمن فى أفواه أبناء قرانا فى الوجه البحرى والصعيد . . ولم يكن من الممكن أن يعلو الفن الشعبى فى عهد الملكية البغيض الذى كان يحارب الفنانين الشعبيين عن وعى وإدراك . . ولما قامت الثورة . . أدركت رسالتى على الفور . . سافرت إلى الصعيد . . وإلى الوجه البحرى . . وأغريت جميع الفنانين بالحضور معى إلى القاهرة . . وتمكنت من أن أعرض فنهم لأول مرة على مسرح الأوبرا من خلال أوبريت «يا ليل يا عين» .

ولعل من طريف ما يذكر عن سرادق الحسين الرمضانى، أن الشرطة كانت تقتحمه أحيانا دون تنبيه أو إنذار بحثا عن المطاردين وتعقب النشالين، فكان زكريا يقنع الجمهور بالهدوء والتزام مقاعدهم إلى حين تهدأ الجلبة حتى يواصل العرض.

ثم أتذكر صحبتى لزكريا وفرقته عام ١٩٦٩ للمشاركة فى احتفاليات الليلة الكبيرة لمولد السيد أحمد البدوى فى مدينة طنطا، ومنذ تلك الليلة ظل أحمد سالم مدير السيرك القومى حريصا على أن يتأكد أولا قبل المشاركة فى المناسبات والاحتفاليات، إن كان زكريا وفرقته سوف يشاركون فى إحيائها، حتى يتراجع عن منافستها بدعوى أنها تسحب من السيرك القومى جمهوره.

حكاية اليهود

www.books4all.net

وإذا كان شاغل وهم الإعلام والنخب الثقافية المصرية والعربية الجانب السياسى والاستراتيجى فى الصراع العربى الإسرائيلى، فقد كان لزكريا الحجاوى فضل الريادة على صعيد الإدراك المعرفى بالظاهرة اليهودية عبر كتابه الموسوعى «حكاية اليهود» الصادر عام ١٩٦٨ وكان للأديب الكبير خيرى شلبى مبادرته فى إعادة التذكير بأهمية الكتاب ونشره فى سلسلة «الدراسات الشعبية»، واختار على غلافه الحكمة التى يقولها التاريخ للعرب واليهود والمستهودين «لو عقلوا لفطنوا.. كيف يطرد واحد الفا»، هكذا تقول شريعة اليهود، وهكذا يمضى عالمنا العظيم زكريا الحجاوى ليفتت الأسطورة اليهودية، ويعمر الذاكرة العربية بمدافع التذكر ومدفعية قراءة الماضى اليهودى «ليكشف الكثير عن نمط الشخص اليهودى.. طريقته فى السلوك.. قناعاته الهمجية.. اهتماماته التخريبية، ذاكرته المتآمرة على الجوييم « غير اليهود».

ونحسب أن هذا الكتاب الذى تجنب مزالق التطرف والعنصرية قد نجح فى الإحاطة بالشخصية اليهودية، عبر عرض وتحليل ما يؤمن به اليهود من الأساطير.. يقول زكريا إن «برستد» يقر بأن كتاب الأمثال فى العهد القديم منقول بالنص عن الحكيم المصرى «ابنوبى».. بمعنى أن النص العبرى ترجمة حرفية للأصل «الهيروغليفى» خاصة ومن عادة الحكيم المصرى القديم أن يبدأ نصائحه بقوله:

«أمل أذنيك لتسمع أقوالى، واعكف قلبك على فهمها لأنه شىء يفيد إذا وضعتها فى

قلبك» وهو نفس ما تؤكده البدايات فى سفر «أمثال العهد القديم» : «أمل أذنيك واسمع كلام الحكماء، ووجه قلبك إلى معرفتى، لأنه حسن إن حفظتها فى جوفك» .

أذكر أن الممثل والمخرج والشاعر الكبير نجيب سرور وهو الذى لحق بركب التلاميذ والمريدين لزكريا فى خمسينيات القرن الماضى، كان من أشد المتحيزين لكتاب «حكاية اليهود»، وقد شهدت له نقاشا مع زكريا حوله خلال جلسة جمعتنا معه فى «كازينور» الذى كان متاخما آنذاك لكوبرى عباس بالجيزة. . وفى مقال له تحت عنوان «زكريا الحجاوى والحية الفتاكة» كان قد كتبه فى أعقاب رحيله عام ١٩٧٥ ، يعترف عبر سطوره بأيدى زكريا الحجاوى البيضاء على الثقافة وعليه شخصيا، ثم عاد يكرر ما ذهب إليه من تقييم لكتاب «حكاية اليهود» تحت بيت من شعر أبو العلاء المعرى : «يموتون بالحمى وغرقى وفى الوغى . . وشتى المنايا صادفت قدرا حما» .

يقول نجيب سرور :

كثيرة هى الذكريات عن أستاذنا الحجاوى . . بقدر ما هى كثيرة روافد النهر الكبير، وكما يفيض النهر . . فتفيض الروافد . . تجف الحياة فى العروق . . فتكف القلوب الكبيرة عن الفيضان . . أو أصبح الرجل حقا فى عداد الذكريات؟! ذلك الرجل العاشق للذكريات الذى عاش يجمع ويستجمع ذكريات مصر وأبناء مصر وروح مصر وصوت شعبها . . كل هذا العمر . . أصبح فى عداد الذكريات؟! قصيرة هى أعمار الباحثين عن الروح والباحثين عن روح مصر بوجه خاص فى زحمة الأشباه والأشباه والمسوخ . . من أول حدوتة يسمعها الطفل فى مهده إن كانت لنا مهود حتى آخر نفس يلفظه الرجل قبل أن يودع مصر والعالم . . ليبدأ الرحلة من جديد . !! ونفيق فجأة على صوت الناعى . . لنجلس فنكتب المراثى والتأبينات من باب سد الخانة . . أو باب رفع العتب أو باب سد الباب على اللوم والاعتراض . . ذكريات يا زكريا . . إنى مبشرك بمراثى تكتب على عجل . . وبحفلات تأبين من أجيال مدينة لك بالكثير ثم يموت الحزن كما يموت كل شىء، لأن الحزانى يفقدون الذاكرة والذكريات . . مع التسليم مهما يكن الأمر وصدورا من أعماق روح مصر ذاتها بأن الخيرة فيما اختاره الله!

الخيرة إذن أن يختار الله إلى جواره زكريا الحجاوى . . الشاعر . . الزجال . . المخرج . . الممثل . . الناقد . . الذواقة . . الجامع للتراث الشعبى . . المحقق والدارس لهذا التراث . . الرائد فى كل طريق أتاحت له «المقادير» و«الظروف» أن يضع قدمه عليها!

يقول الحجاوى ابن الشعب والرجل الموسوعى مقدما كتابه الرائع «حكاية اليهود»: وهذا التراث الجليل الذى بدأت عملية جمعه والتعريف به شفاها فى المحاضرات والندوات، وتحريرا فى مقالات بشتى الصحف والمجلات منذ عام ١٩٥٠ باسم الفن الشعبى جامعا لكلمة «الفن» الموسيقى والألحان والأدب، لأن كلمة الفن هى المحكية على لسان الفلاحين عندما يريدون التعبير عن الأدب الشعبى ـ الموال بصفة خاصة ـ هذا العمل استغرق العمر . . وقد بات أول طلائعه يدخل المطبعة لمن أهدى الجزء الأول منه؟! لمن!

يذكرنى صوت الحجاوى هنا بصوت الحكيم المصرى القديم: لمن أتحدث اليوم؟!

وبنفس صوت المصرى الحكيم: «منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه»؟!

منهج . . وتاريخ . . وتراث الحجاوى نفسه . . يفرض علينا التداعى السابق كنتيجة «للظروف» و«للمقادير» وللمكتوب وغير المكتوب على جبين ابن الشعب فى أى موقع من مواقع الخلق والإبداع والابتكار والريادة والبحث .

فلماذا لم يكتب أحد كلمة عن «حكاية اليهود» الجزء الاول من موسوعة الحجاوى الشعبية . . ولماذا سيحلو منذ الآن وإلى حين مقدرا بالزمن اللازم لمسح الدموع ـ الحديث عن دور الحجاوى وتراثه وإنجازاته؟! . . لماذا نكتب عن أبائنا وأبنائنا بعد الرحيل؟! . . لماذا لم نسمعهم ولم نقل لهم كلمة طيبة وهم بيننا على قيد الحياة؟! أيها الخجل . . أين حمرتك! على حد تعبير هاملت! إنى اعترف بأننى مدين شخصيا بكثير الكثير للحجاوى . . منذ أن تعرفت عليه فى بداية الخمسينات وكنت أعمل مخرجا وممثلا بالمسرح الشعبى! ولكن . . ألم أقل كثيرة هذه الذكريات . . وكثيرة هى روافد النهر الكبير . . وأن يموت نهر . . فهذا قدر الله . . ولكن أن يموت ناطق العمر محاصرا بصمت العمر . . مرهونا تراثه وذوب وجدانه وفكره بدوران تروس المطابع . . فتلك هى المأساة الملهاة! . .

الحجاوى بالأرقام:

١ ـ الحجاوى أول من نبه إلى قيمة الاعتماد على الفن الشعبى فى الأفلام والمسرحيات والأعمال الفنية .

٢ ـ أول من حول الموالد إلى مؤتمرات شعبية تعتمد على الفن الشعبى الفطرى .

٣ ـ فى أحضانه كتبت أول أسطورة من الفولكلور «يا ليل يا عين» .

٤ ـ قام بأول جولة لجمع الرقص الشعبى وقام بعرضه على مسارح عواصم البلاد .

٥ ـ صاحب فكرة قوافل الثقافة ومنشئها .

٦ ـ صاحب فكرة قصور الثقافة ومنفذها . . وفرق الفن الشعبى إلى جانب المسرح والكتاب . . الأساس الثقافى لفن المحافظات .

٧ ـ فى أحضانه نشأت الفرقة القومية للفنون الشعبية .

٨ ـ منشىء معهد الفنون الشعبية ومركزها ونوادى الفولكلور .

٩ ـ صاحب فكرة الفرقة النموذجية للفنون الشعبية التى عملت على مسرح المقطم .

كل ما سبق ذكره زكريا الحجاوى فى إهدائه لكتابه «حكاية اليهود» وبكل إنكار الذات يتوارى لينسبه إلى آخرين فليس المهم فى نظره من صاحب «الأفكار» وهو صاحبها بلا جدال . . ولكن المهم أن الأفكار تتجسد وتمشى فى الواقع المصرى طولا وعرضا وشمالا وجنوبا على قدمين؟

إن الحجاوى يصدر كتابه «حكاية اليهود» بسطور من شعر الكاتب المصرى القديم «حوار محب» الذى عاش ومات فى بنى مزار ـ المنيا فى عام ١٣٥٥ ق . م ولا نجد أروع منها تأبينا للحجاوى ولا ختاما لكلمتنا هذه الخجولة عن الرائد الكبير : «إن الثقافة تهدى الضال . . وتذكر الغافل . . وتملأ الناس معرفة بالأسرار المقدسة رحلتها . . وتحيى أيامنا بالعلم . . وتدفع عن أيامنا شر الحية الفتاكة» . . إنها حكايات زكريا الحجاوى نفسه مع الحية الفتاكة من خلال حكاية اليهود وحكاية اليهود مع مصر . . ومصر مع اليهود!

غير مجدٍ فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شادى؟

ترى هل يفرجون عن الأجزاء الأخرى من موسوعة الحجاوى الملحمية الشعبية الثورية؟!

مجرد سؤال!!

وعلى الرغم من رؤية المتخصصين الذين يعدون كتاب «حكاية اليهود» أوفى وأدق مرجع لفهم الشخصية اليهودية ، إلا أن هذا الجانب من تقييم أو نقد مؤلفات وابداع زكريا

الحجاوى ليست مهمة ولا عناية كتابنا عنه، وإنما الإحاطة البانورامية الشاملة لسيرة حياته، خاصة وكل جانب منها يحتاج أن يفرد له كتاب خاص، إذ رغم إنجازاته الثقافية غير المسبوقة كما ونوعية معرفية، يظل أبرز ما أنطوت عليه سيرة حياته يكمن فى زخم علاقاته الإنسانية المتشعبة مع الناس أو يطيب لنا أن نسميه «أدب الاتصال بالمجتمع»!

بيجماليون

من بواكير مؤلفات زكريا الحجاوى مسرحيه«بيجماليون» الصادرة عام ١٩٤٠ والتى سبق بها بيجماليون توفيق الحكيم، فكانت بحق بمثابة ولادته الأدبية، ولعله من طريف ما رواه عنها، أنه كان يتخذ من مكتبة الجيزة آنذاك مقراً لاستقبال أصدقائه من الصحفيين والأدباء والمثقفين، قبل أن ينقل نشاطه إلى قهوة محمد عبد الله، وكلتاهما المكتبة والمقهى كانتا تطلان على ميدان الساعة بالجيزة، وقال زكريا الحجاوى إن المكتبة كانت تبيع الكتب والأدوات المدرسية فحسب، ومع ذلك بادر صاحبها عبد العزيز مصطفى فى شهامة لا تخلو من المغامرة إلى طبع رواية بيجماليون على نفقته الخاصة عندما أعياه البحث لها عن ناشر، إذ كان الرجل قارئا نهما واسع الإطلاع جم الأدب، وعاشقا متيما بزكريا الحجاوى وإبداعاته!

ولا شك أن اندلاع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كانت حلم زكريا الأثير الذى تحقق فى حياته، فكانت الفرصة متاحة والظروف مواتية لمواكبتها ثقافيا، سواء عبر بعث الروح فى الفنون الشعبية، أو فى إبداع الأدب الثورى، وفى كتابه «ملك ضد الشعب» كشف زكريا الحجاوى النقاب عن ثورات الشعب المصرى المجهولة فى بطون الريف ضد الإقطاع والملكية والاستعمار.

فى سلسلة الكتاب الذهبى الصادرة عن مؤسسة روز اليوسف، نشر زكريا الحجاوى مجموعته القصصية الأولى بعنوان «نهر البنفسج»، وهى واحدة من القصص العديدة فى المجموعة، والتى سبق ونشرها فى العديد من الصحف والمجلات.. ونكتشف أن الدكتور يوسف أدريس الذى تسيد دون منافس على قمة وإبداع القصص القصيرة فى الوطن العربى يقول فى شهادته على مجموعة «نهر البنفسج» إنها تمثل تتويجا لريادة زكريا الحجاوى فى أدب القصة القصيرة الواقعية.

لا يؤمن بمبدأ الصدفة

وفى دراسة مستفيضة وممتعة للأديب الكبير خيرى شلبى بعنوان «قصص كتبت زكريا الحجاوى . . وقصص كتبها زكريا الحجاوى» يقول إنه ينتمى ـ عمليا ـ إلى جيل يحيى حقى ومحمود البدوى، ويجمع فى خصائصه الفنية بين واقعية يحيى وشاعرية محمود بدوى، ولقد نشأ فن القصة نشأة رومانسية، حيث الكاتب مغترب فى مجتمع غير قارىء، فكان الكاتب يجرى حواراً مع نفسه، الأمر الذى يفرض عليه الدوران فى نطاق الذات وهمومها التى تهفو لمعانقة مجتمع مفتقد، أعنى مجتمع القراء الذى لابد من وجوده لتكتمل العملية الفنية وتحقق تطورها المنشود.

كان كاتب القصة آنذاك ممتلئًا بالهواجس والأفكار التى تنطلق كلها من همومه الذاتية، ومن علاقة هذه الذات بمجتمع لم يألف بعد هذه القضايا، لا ولا هو قادر على استيعابها إن تمكن من قراءتها، فكان الكاتب يملك بعض الحرية من ناحية، والكثير من القيود من ناحية أخرى، الحرية التى يشعر بها من يمارس فنا إلى الظل يضمن أن أحداً لن يعترض على شىء مما يفعله، لأن أحدا قد لا يفهم هذا الذى يفعله، والقيود التى تفرضها عليه دائرة محدودة من القراء عليه أن يخاطبهم، وأن يختار من الموضوعات ما يناسب عقولهم واهتماماتهم، فجاء فن القصة القصيرة فى معظمه غير متسق بين الرومانسية والواقعية، فثمة موضوعات تبدو كأنها محض خيال لم يولد إلا فى مخيلة كاتبها، وموضوعات أخرى تتصل بالحياة وبالواقع اليومى فى بعض الجوانب الملموسة.

ثم يتابع خيرى شلبى ملاحظته النقدية اللافتة للنظر. . يقول: «على أن كتاب أبناء الأربعينات بحكم اتصالهم الحميم بالنموذج الثقافى الغربى، استطاعوا تنويع الموضوعات، وافتتاح مناطق فى النفس البشرية جديدة إلى حد ما، فأصبحت القصص تناقش الكثير من المشكلات التى يطرحها الواقع اليومى المعاش، لكنهم كانوا مجنحين فى أساليب العلاج الفنى، تكاد أشكالهم تكون صورة طبق الأصل من الأشكال القصصية الشائعة عن «جى. دى. موبسان» الفرنسى وتشيكوف الروسى. . إذ لما كانت قصصهم مضمخة بعطر الروح الثورية الوطنية، تجلى ذلك فى قصص عبد الرحمن الخميسى وسعد مكاوى والشرقاوى و زكريا الحجاوى.

ثم يستطرد خيرى شلبى مشيرا إلى أن قصص زكريا الحجاوى تميزت بميزة خاصة، تلك أنها استوعبت أفضل ما فى السابقين عليه من أساليب ورؤى، وإذا كنا نلمس فيها واقعية المدرسة الجديدة ممثلة فى يحيى حقى بلغته الواقعية الصرف القريبة من نهر الشارع المصرى، وشاعريه محمود بدوى التى تحتفى بالصورة وظلالها وقدرتها على إثارة المشاعر واستدعاء الذكريات الشخصية لتتقابل التجارب والأزمنة، فما ذلك إلا لأن زكريا الحجاوى نفسه شخصية جمعت الكثير من الشخصيات فى إهاب واحد بمزيج واحد، ففيه شخصية المثقف الرومانسى الحالم بالمدينة الأفلاطونية الفاضلة، وفيه شخصية المثقف الثورى اليسارى المؤمن بالفكر المادى الصرف، وفيه شخصية المغنى الشعبى وحكواتى الربابة، وشخصية الباحث العلمى المدقق والمعلم صاحب الرسالة التعليمية.

ثم يختتم خيرى شهادته قائلا: «وزكريا الحجاوى قاص لا يؤمن بمبدأ الصدفة التى يرى بعض الكتاب أنها تهز القارىء، تزلزله، فيبحث فيما حولها وفى أسبابها ومسبباتها وصولا إلى الفائدة من ورائها.. لا يؤمن الحجاوى بهذا الأسلوب لسببين.. «أولهما» أنه يسعى لأن يكون كاتبا شعبيا، صورة معاصرة من «الحكواتى القديم.. «الثانى» مرتبط بهذا السبب، أعنى يوجهه ككاتب يكتب لمجتمع يعرف بالكاد «فك الخط» ولا وقت لديه.. ولا طاقة للإبحار فى زواق الكتاب ذوى الطرق الملفوفة المجنحة والأفكار المغلفة بلفائف سميكة».

www.books4all.net
منتديات سعد الإلكترونية

اللغة الديموقراطية

وإذا كان أسلوب زكريا قصصيًا صرفًا، إلا أنه يختلف اختلافا تاما عن أسلوبه فى كتابة المقالات والأبحاث، وجدير بالذكر أن له بحثا خطيرا نشرته مجلة الغد فى عددها الأول بعنوان «اللغة الديموقراطية»، وهو بحث قيم شديد الأهمية لا يكتبه إلا عالم لغوى على درجة كبيرة من الثراء والمعرفة، إنه يبحث فى نشأة اللغة العامية بوجه خاص، وكيف سادت، وكيف إن التحريف يبدأ فى الأصل من طبقة الحاكمين كونهم أول من يختلط بالأجنبى.. وأول من يجاريه فى تحريف اللغة كما ينطقها الأجنبى ليفهم عنهم ويفهموا عنه بسهولة، ثم يصبح التقليد قاعدة، فيسود انحراف اللغة وينعوج اللسان بحكم تعدد الأجناس والقبائل المختلطة بالمجتمع المستقر.

فى هذا البحث الهام يسعى زكريا الحجاوى إلى استخلاص لغة فنية للكتابة يسميها «اللغة الديموقراطية»، أى اللغة التى لا تتعامل مع الألفاظ والمفردات تعاملا طبقيا، فلا يحق للكاتب الاستعلاء على مفردة بحجة أنها من لغة العامة أو أنها سوقية، طالما أنها قادرة على خدمة غرضه فى إبراز المعنى المراد إبرازه، إن السوقية ليست فى المفرده بحد ذاتها، وإلا فكل المفردات مبتذلة وسوقية، وإنما السوقية هى فى طرائق استخدام هذه المفردات.

ولو أن الذين أثاروا ضجة مفتعلة ردحا من الزمان حول الفصحى والعامية قرأوا مبحث الحجاوى حول «اللغة الديموقراطية» فى مجلة الغد، لوجدوا أنه أجاب على كل التساؤلات وحسم القضية لصالح الفن والأدب، وأن جميع المفردات فصيحة فى أصلها لا ينقصها على لسان العامة سوى الإعراب فحسب، ومن هنا كانت دعوته إلى استخدام لغة الشعب إذا أردنا أن نكون بالفعل معبرين عن الشعب تعبيرا صادقا، خاصة وأن لغة الشعب غير مطعون فى أصلها، إلى جانب قابليتها للتطور والتصحيح، وكونها الأقدر على استشفاف روح الشعب واستخلاص همومه الحقيقية.

ويعلق خيرى شلبى على هذه الرؤية قائلا: أجزم أن توفيق الحكيم قد قرأ بحث الحجاوى عن اللغة الديموقراطية وتأثر به فى تجربته الفريدة التى طلع علينا بها أواسط الستينات بعد حوالى عشر سنوات من نشر هذا البحث ـ عبر مسرحية «الصفقة» التى أحاطها بدعاية كبيرة للتنبيه إلى ما فيها من لغة أسماها «اللغة الثالثة»، أى المستفيدة من الفصحى والعامية معا، ويراها لغة التخاطب بين المثقفين وصالحة للإبداع الأدبى.

كذلك كان لزكريا الحجاوى أكثر من مقال ودراسة عن الفروق الجوهرية بين اللهجات المتداولة فى ربوع مصر، وبينها النوبية والسويسية والدمياطية والبحراوية والسيناوية.. الخ، وهو كان لذلك حريصا على تدريب الممثلين على هذه اللهجة أو تلك فى إبداعاته من المسلسلات الإذاعية والتمثيليات، فضلا عن دوره فى كتابة الحوار والأغنيات وتلحينها وتدريب الموسيقيين وقيادة الكورس.. وحتى مرحلة «المونتاج» حتى يطمئن إلى بلوغ درجة الكمال النسبى.

ومما يذكر لزكريا الحجاوى فى هذا الصدد، غزارة علمه وتجاربه واقتداره على القطع بيقين حول أنساب القبائل والعشائر والبيوتات المصرية العريقة، ودرايته المعرفية بخصوصية كل منها وعاداتها وتقاليدها وشعرائها وحكائيها.. وإلى حد معرفته بما تضمره

من عداوات متبادلة مستأصلة منذ زمن بعيد . . ولا شك أن هذه الخبرات والمعارف الموسوعية كانت زاده فى تقصى الفنون الشعبية فى المنابع وحتى الجذور بداية من المواويل، الغناء، الرقص، البكائيات، الحواديت . . وحتى الملاحم والأساطير المتداولة والمندثرة- وإذا كان فن الرقص على حد تقديره يلعب دورا بالغ الأثر فى غسل الروح من الهموم والأحزان والإحباط، وفى إثارة البهجة وتنشيط الأبدان فضلا عن التعبير عن المشاعر، فالصلاة كذلك فى تقديره تدريب جسدى وروحى يعبر بها الإنسان عن مدى خضوعه وركوعه للمشيئة الإلهية وكذلك طقوس وحركات الذكر .

الحمقاوية

وإذا كان زكريا الحجاوى صاحب وصف «الحمقاوية» كناية على الشجاعة والفداء فى قوله كلمة الحق مهما كانت النتائج وبيلة، فقد كان بذاته وقوله الحق وما عاناه من اضطهاد وتنكيل واحدا من زعماء الحمقاوية، إذا كان فى مثالية الفرسان العرب، حادبا على العدالة وإنصاف الضعفاء كما صعاليك العصر الجاهلى، ودون أن يحسب للعواقب حسابًا .

كذلك من الألقاب والأوصاف التى كانت تترى خلال حديثه عن الأدب الشعبى إدراكه المعرفى بأسرار الغجر والنّور، فالغجر لهم قانونهم الخاص ويحترفون ألوانا شتى من الفنون، أما النور ومفردها نورى فإما لص أو راقصة، وهم نسل نور الدين الزنكى أحد قادة صلاح الدين الأيوبى، وينتمى النور إلى المماليك «الكوردين» الذين اضطروا إلى الرحيل إلى صعيد مصر بعد أن غضب صلاح الدين على أميرهم إثر هزيمة قواته فى الحرب الصليبية، ولذلك عاشوا منبوذين واحترف رجالهم السرقة ونساؤهم الرقص .

ومن أعاجيب وتفانين زكريا، حين نجح فى كسب ثقة العديد من الغجر والنُور خلال جولاته الميدانية بحثا عن الفنون الشعبية، ومن هذه الثقة حاول أن يجمع أغانيهم وأهازيجهم وتسجيل رقصاتهم، بل وكان يطمح من أن يتوب النُور على يديه، وأن يؤسس جمعية ثقافية واجتماعية لجمع شتات الغجر فى مصر، لكن العمر لم يمهله وضيق ذات اليد حالت دون بلوغه مأربه، فضلا عن الغباء البيروقراطى والجهل بهذا الشأن باعتباره ضمن سقط المتاع الثقافى .

ثم لا ننسى أنه كان لزكريا باع أدبى مشهود فى السينما وإن كان مجهولا للبعض من النقاد والدارسين، إذ فضلا عن كتابته لعدد من سيناريوهات الأفلام، فقد كتب النص والحوار معا لغيرها، وبينها فيلم أدهم الشرقاوى وفيلم سيد درويش، لكن على ما يبدو أنه لم ينسجم مع تعاملات المنتجين السينمائيين ولذلك توقف ولم يواصل الشوط.

إلى ذلك كان لزكريا الحجاوى ويوسف حلمى المحامى دور ثقافى فى نفض غبار التجاهل والنسيان عن سيرة حياة فنان الشعب الخالد سيد درويش، والتنوير بإبداعاته، إذ فضلا عن الكم الهائل من المقالات التى بدأ فى كتابتها بجريدة المصرى عنه، وكذا الأبحاث والندوات والمخطوط الذى خلفه وراءه عن سيرة حياته ولم ير النور كتابا بعد، فقد كان سيد درويش محور المسلسل الإذاعى الشهير الذى كتبه زكريا وكان سبقا ثقافيا من حيث الموضوع وسبقا فنيا من حيث احتوائه أغانى وأوبريتات سيد درويش المعروفة والمجهولة.

وربما كان علينا أن نتوقف من باب الإلمام بعطائه وسلوكه وعلاقاته فترة اشتغاله بالصحافة والكتابة لها، فقد بدأ مشواره على هذا الدرب عبر الصفحة الأدبية الأسبوعية التى كان يحررها فى مجلة السوادى، ثم صحيفة المصرى حيث شغل منصب سكرتير التحرير، وكذا صحيفة القاهرة ومجلة روز اليوسف، والرسالة الجديدة التى اختصها تباعا بمسحه الجغرافى للفنون الشعبية فى ربوع مصر.

فى كل هذه الصحف والمجلات وغيرها لا يزال الذين عملوا معه يتذكرون له عادته عندما كان يدعو زملاءه أول كل شهر على وجبة كباب أو أسماك وربما على أطباقه المفضلة من الكوارع ولحمة الرأس والممبار والفتة بالتوم والخل على نفقته، فكانت تستهلك جانبا كبيرا من مرتبه، هذا إلى حرصه الشديد على جلسة الصباح السعيدة، حيث كان يجتمع بالمحررين لفترة ساعة، يتحاور معهم حول قضايا الساعة، ثم يساهم فى حل مشكلاتهم حتى العاطفية، وهو يشيع فيهم النشاط والبهجة والسرور، إذ كان يرى أن هذا الأسلوب ضرورة للتواصل الحميم، ورفع الروح المعنوية ومضاعفة الجهد، والارتقاء بمستوى الأداء الصحفى.

أين أغانى الفتوات؟

على أن حديثا نشرته مجلة آخر ساعة أوائل السبعينات، ربما أبان وأحاط برؤاه ومواقفه من القضايا الثقافية والفنون الشعبية بوجه خاص.

سأله الكاتب الصحفى مأمون الغريب: ما هى حقيقة رؤيتك للإنسان المصرى المعاصر؟

وقال: الإنسان المصرى مر بمحن وأزمات وظروف اجتماعية مختلفة.. رأى الخير والشر.. رأى ما يسره وما يحزنه.. عرف كبرياء الانتصار وذل الهزيمة.. من كل هذه الأحداث تبلورت شخصية المصرى وصاغ ذلك كله حكمة ونغمًا.. حواديت وأساطير.. ومن هنا كانت الفنون الشعبية التلقائية بمثابة التاريخ المحيط بكل هذه التغيرات!

ويسأله عن سبب اختياره لاسم أولاد الشارع والحارة لفرقته؟

قال: الفنون الشعبية ترتكز عموما على عنصرين، الغناء والرقص، ولكن لوحظ بعد تكوين الفرق الرسمية للفنون الشعبية أن جميع الفرق فى مختلف أقاليم مصر تقلد الفرق الشعبية الرسمية حتى أصبحت صورة (مشلفطة) لها، دون أن يعرفوا أن لكل إقليم فنونا شعبية وتراثا خاصا، ثم إن هذه الفرق.. وأعنى بها فرق الأقاليم ابتعدت بذلك عن مصدر هام جدًا من مصادر الفن التلقائى.. إن الفرق الرسمية فى القاهرة تعبر عن الفنون من وجهة نظر المدينة فى محاولة لتطويرها كما يقولون، ولكن فى الأقاليم العطاء الفنى أكثر خصوبة، هناك من الممكن أن نعثر على كنوز هذا الفن فى الحارة.. فى الشارع.. فى القرية.. عند الأراجوز والأدباتى.. وكثيرا ما أسأل نفسى وتراثنا الشعبى خصب للغاية: أين السفيرة عزيزة؟ أين أغانى الصيادين؟ أين أغانى (الفتوات).. أين أغانى الشارع.. أين.. وأين..؟

لقد سجلت كل الأغانى التى تتردد على ألسنة الشعب حتى أغنيات الباعة المتجولين.. باعة الثلج.. و«الدندورمة».. بياع الفلفل.. الخ.

سأله: هل عندما تقدم الفنون الشعبية للناس هل من المتعين أن تقدمها كما هى؟ أو

بمعنى آخر . . هل تريد أن تعطى صورة فوتوغرافية لهذه الفنون الشعبية أم أنه من الواجب أن تضيف إليها ما يتطلبه مقتضيات العصر . . وروح العصر . . أو بعبارة أوضح هل من الجائز أن «تتثقف» إن صح التعبير .

أجاب بحماس : أنا ضد كافة التطوير . . لأنه باسم تطوير العمل الفنى أو تثقيفه نمسخ هذا العمل . . وإن كنت من أتباع التهذيب فحسب . . أعنى تهذيب الفنون الشعبية .

ـ بمعنى؟

ـ أقصد أن هذه الفنون الشعبية لابد أن تخضع لمقتضيات المسرح . . والآلات الموسيقية التى يخدمها أوركسترا كامل باعتبار أنى أقدم تشكيلات للرقص الشعبى تخضع للنوتة الموسيقية . على أن تظهر الآلة الشعبية فى مكانها . . وبالتالى أصبح الأوركسترا يخدم العمل الشعبى .

وسأله إذا كان يعتبر رقصات «هز البطن» من فنونها الشعبية؟

علت وجهه سحابه من الأسى وقال : للأسف الناس فاهمين غلط . (هز البطن) وافد علينا، وأنا شخصيا جمعت ٣٨ رقصة من فنونها الأصلية سنة ١٩٦٣ ، ومنذ ذلك الحين وأنا أحاول أن نقدمها فى شكل أحسن . . حتى يكون لها مضمون . . ثم يتابع الحجاوى حديثه : الناس فاكره إيه . . فاكره أن الفن الشعبى زماره . الفن الشعبى يا أستاذ مادته هو الإنسان وهو المدخل الطبيعى إلى (الانثربولوجى) لأن العادات والتقاليد مكونة من مزيج اجتماعى يصبه المجتمع فى الإنسان، فنحن نغنى من وجهة نظر الإنسان فيخرج فنا معبرا عن العادات والتقاليد وما يدور فى أعماق الإنسان سواء على شكل أغنية، أو بالحركة والرقصة وبلورة أشواق الإنسان وهمومه من خلال هذا الفن أو ذاك!

سأله : كيف تعيد شكل مجتمعك الذى تحالفت عليه المدينة وفنون الغرائز المريضة، كيف تعيد هذا المجتمع إلى أصالته؟

يجيب : لا يمكن إن تحقق ذلك دون أن تدق على النفس المصرية بالأسلوب الفنى . إننى أعتقد أن الفنون الشعبية هى (مسودة الحضارة) مسودة النظريات الثقافية لشعب من الشعوب ومهمتنا أن نبيض هذه المسودة .

وعاد مأمون يسأله : من الصعب أن يعود الإنسان المعاصر إلى ماض تجاوزه . . ألا يمكن أن تعطى هذه الفنون لمسة معاصرة؟

يفرك كفيه بعد أن يضحك ضحكة طويلة ثم يقول: «لعلك تعرف أن (شفايترز) هرب من حضارة أوربا المعاصرة إلى أدغال أفريقيا» حيث الفطرة والبساطة.. بعيدا عن عقد الحضارة الصناعية؟! وكان معجبا أشد الإعجاب بالفن الأفريقى الأصيل.

قال مأمون: ومع ذلك لم يتجاوز عصره.. لقد عمل طبيبا يعالج مرضى الجذام بعقلية طبيب القرن العشرين.. ولم ينسلخ تماما عن الحضارة المعاصرة.. إنما وظف هذه الحضارة فى خدمة القبائل البدائية فى أفريقيا.

ابتسم الحجاوى قائلا: نحن لم نختلف.. أنه حاول.. وهذا ما أعنيه.. من حضارة أصابت الناس بأمراض العصر، لأن الإنسان لا يمكنه أن يتخلى عن ثقافته كما أنت الآن شاب لا يمكن أن تنكر طفولتك. وصمت قليلا ثم عاد يقول: هل تعرف ما الذى استفدته من دراستى للفنون الشعبية وحبى الخالص لها؟

عرفت من خلال هذه الدراسة معدن شعب مصر. وأنه لم ينخدع يوما بمظاهر الأشياء، وقد استطاع من خلال الفنون الشعبية سواء فى مصر الفرعونية أو مصر فى العصور الوسطى أو مصر الحديثة أن يجيد التعبير عن جوهر الأشياء. وقد عرف شعبنا بفطرته السليمة من الذى يخدمه، ومن الذى يلعب عليه، ومن الذى يعمل لمصلحته ومن الذى يحرك الأحداث لمصالحه الشخصية!

وسأله مأمون أن يضرب أمثلة على ذلك فيقول؟

ـ مثلا.. كشف الفن الشعبى دور اليهود أيام رمسيس الثانى وأثناء الحملات الصليبية، فاليهود كانو وراء دخول الهكسوس مصر. وقد استطاع رمسيس الثانى أن يدك دولتهم، والفلاح المصرى القديم ظل يردد أغنية سجل فيها صرخة رمسيس عندما قال:

يارب مصر... يارب النصر.. والتوراة فيها إشارة إلى هذا، وهى تلعن رمسيس لأنه دك «أورشليم» وهذا يؤيد رأيى فى أن معركة رمسيس كانت ضد اليهود وذلك ما ظهر لى من خلال دراستى للفنون الشعبية عند قدماء المصريين.. ثم يضيف الحجاوى قائلا:

فى الفن الشعبى ملاحم عن اليهود كملحمة «سارة والخليل» ويتضح منها كيف فهم المصرى حقيقة شخصية اليهودى، وهناك ملحمة «سيدنا يوسف» ففى تلك الملحمة تقرأ أن الأكل مع اليهود «نجاسة» وفيها ترى يوسف يرفض الأكل مع أخوته، وملحمة (خضرة الشريفة) فخضرة الشريفة على ما اعتقد ترمز إلى مصر ذات العطاء، وهذه الأسطورة

عندما تصور حاول أحد اليهود خطفها للزواج منها . . ترمز ولا شك إلى الدور الذى لعبه اليهود أثناء الحملات الصليبية ، ثم إن التاريخ يخبرنا أن بعض أطباء صلاح الدين كانوا من الجواسيس ، إنهم كانوا يعملون فى بلاط الخلفاء ليكونوا بمثابة جواسيس للأعداء ومهما حاول اليهود التقرب من قصور الملوك والخلفاء فإن الشعب لم يكن يثق فيهم!

ثم إن هناك حقيقة أخرى خرجت بها من دراستى للفنون الشعبية وتاريخها وهو أن المسلمين كانوا يدا واحدة عبر التاريخ!

ويتذكر مأمون الغريب أنه كانت لزكريا الحجاوى آمال عريضة لتقديم الفن المصرى الأصيل فى مختلف دول العالم ، لأنه ليس من المعقول على حد قوله أن توجد فرقة يهودية مكونة من (٣٠ بنتا) تعرض الفنون الشعبية لليهود من مختلف أنحاء العالم رغم ضحالة هذه الفنون ، بينما نهمل فنوننا العريقة فى المقابل .

على أنه وقبل أن ينتهى الحوار وكعادته دائما أن يشيع البهجة والمرح فى الجو الذى يوجد فيه و . . لعله من هنا تساءل قائلا : هل تعرف أن الأدب الشعبى العربى فيه من الثراء والعمق والجاذبية فى التعبير ولمحات الذكاء الكثير ، إن الذى يقرأ حكايات ألف ليلة وليلة على سبيل المثال يجد أن الخيال الشرقى أكثر جمالا من خيال الأساطير الأفريقية .

وسأله : هل فى الحكايات الشعبية مثلا خيال مثل أسطورة «أوديب»؟ قال زكريا : نعم إنه الذى فر إلى طيبة واعترض طريقة وحش هائل له جسم أسد وجناح طائر ووجه امرأة . . هذا الوحش الذى كان يقتل كل من لا يستطيع أن يجيب على سؤال :

ما هو الكائن الذى يمشى على أربع فى الصباح واثنين فى الظهيرة وثلاث فى المساء؟

وحل (أوديب) اللغز بأنه الإنسان فى الصباح يحبو فى طفولته ويستقيم على اثنين فى شبابه ويستند على عصا فى شيخوخته!

ثم يتابع زكريا الحجاوى حديثه قائلا : عندما تقرأ حكاية (تورد) فى ألف ليلة وليلة تجد هناك الخيال الأكثر خصبا ، فهذه الجارية التى أرادت إنقاذ سيدها بأن تبيح نفسها للخليفة مقابل عشرة آلاف دينار ليسدد بها ديونه ، ولأنها كانت أذكى أهل عمرها فقد تحدث علماء العهد وفلاسفته عنها ونجحت فى الامتحان عندما سألها أحد الفلاسفة هذه الأسئلة :

أخبرينى عن خمس فى الجنة لا من الإنس ولا من الجن ولا من الملائكة؟

ردت عليه قائلة : ذئب يعقوب . . وكلب أصحاب الكهف . . وحمار العزيز . . وناقة صالح . . وبغلة النبى عليه الصلاة والسلام .

ـ أخبرينى عن قبر مشى بصاحبه؟

ـ حوت يونس حين ابتلعه .

ـ أخبرينى عن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة؟

ـ الأرض التى ظهرت فى البحر عندما ضربه موسى بعصاه .

ـ أخبرينى عن شىء يتنفس بلا روح؟

ـ الصبح لقوله تعالى : (والصبح إذا تنفس) ويرحم الله زكريا الحجاوى فقد كان علامة بارزة من علامات الفن الشعبى .

www.books4all.net

قهوة محمد عبد الله

منتديات سور الأزبكية

للحياة كما للمسرح «كواليس» ، لكن حياة زكريا كانت بلا كواليس ، حيث الوقائع تضطرم والشخصيات تتفاعل وتعبر عن نفسها مباشرة دون مواربة وعلى المكشوف ، ولعله يذكرنى بالفنان أحمد المسيرى ومسرحه الارتجالى ، فلا نص لمسرحياته مكتوبًا ، ولا أدوار محددة للممثلين ، والذى يؤدى دور الملك ، قد يؤدى بعد ذلك دور الخادم أو الأغا ، والممثلة التى يأتى عليها الدور لتقمص شخصية شجرة الدر ، قد يقع عليها عدا القيام بدور الخادمة مرجانة أو المعشوقة كهرمانة ، ومن هنا كان الجمهور يقبل على مشاهدة أى من مسرحيات المسيرى أكثر من مرة ، وفى كل مرة تدركه الدهشة ومتعة التغيير الذى طرأ على الممثلين والممثلات وعلى النص والحوار .

ولا شك أنه لولا التجارب الحياتية والعملية التى خاضها زكريا فى شرخ شبابه ، ونجح خلالها باقتدار فى صقل ملكاته الحوارية وحديثه الآسر لما جمع حوله القلوب والعقول ، فضلا عن عنايته الفائقة بموسوعية التثقيف العصامى الذاتى ، ومن هنا كان مؤهلا للريادة المنفردة فى التعامل مع صنوف البشر خلال رحلة البحث والتنقيب عن مفردات الفنون الشعبية واكتشاف نجومها فى عوالم الغناء والموسيقى والرقص ، وكذا المرجعيات الثقات من الحفظة والرواة للملاحم والأساطير والسير الشعبية .

أذكر أن زكريا الحجاوى كان عليه أن يفسر ما لم نجرؤ فى سؤاله مباشرة عن سر ولوجه إلى مرحلة الزواج بالمطربة الشعبية خضرة محمد خضر، لكنه عندما أدرك ما يجول بخاطرنا راح بشكل ضمنى يعدد مميزاتها وتميزها عن غيرهن من بنات ونسوة «الكار» فهى كانت تحفظ فى ذاكرتها وتردد على شفتيها عشرات المئات من ألوان الملاحم والمديح والغناء الشعبى الذى وعتْه منذ طفولتها فى أجواء الغوازى الشهيرات بمسقط رأسها «سنباط»، وقال لنا زكريا أن والد خضرة وهو الضرير كان يجتذبه للجلوس بحضرته والاستماع له أياما متصلة وهو يغنى ألوانا من الطرب الشعبى المندثر سواء الفردى أو الجماعى وكذا المواويل الحمراء والحكايات والحواديث التى تطاول الأساطير اليونانية فى حكمتها وشطحاتها الخيالية وصياغتها الإبداعية

ويبدو أن زكريا اكتسب الثقة فى قدراته الذاتية ومحصلة تجاربه الثرية، فكان مؤهلا إذن للتربع على مقعد عمودية الفن الشعبى جماهيريا وثقافيا ووجدانيًا، خاصة بعد نجاحه فى انتشال خضرة وقريناتها من أرباب الغناء الشعبى من وهدة الإهمال ومتاهات التهميش، والأخذ بأيديهن من الظل إلى مناطق الضوء والاحترام، ومن هنا يلاحظ تزامن عموديته للفن الشعبى مع عموديته لقهوة محمد عبد الله، فهى كانت بمثابة المنتدى الثقافى الشعبى المفتوح، حيث كانت جلساتها الحوارية تنعقد صباحًا أو مساء فى حضوره للتداول فى شئون الأدب والشعر والفن وشتى هموم الوطن بدون موعد سابق ولا جدول أعمال.

لم تكن قهوة محمد عبد الله كما عهدى بها تختلف قليلا أو كثيرا عن غيرها من مقاهى الطبقة الوسطى فى الأربعينات والخمسينات، الذى كان يميزها فقط رحابتها وأبوابها المفتوحة دوما على ميدان الجيزة، وتوالى زبائنها غير الدائمين ليل نهار من القادمين من الريف لقضاء مصالحهم فى دواوين الحكومة والعلاج فى العيادات الكثيفة بالميدان وربما زيارة أولياء الله الصالحين والاطمئنان على الأولاد الذين يدرسون فى المدارس والجامعات، وكذا تجار القطن والموظفين وأرباب المهن والمعاشات.

ولا أحد يستطيع أن يحدد كيف ومتى اندلعت الشرارة الثقافية فى قهوة محمد عبد الله، كل ما يذكره روادها من المثقفين أنهم وجدوا أنفسهم فى البداية منجذبين إليها للقاء زكريا الحجاوى والناقد الكبير أنور المعداوى، فلما انسحب المعداوى من المقهى إلى كازينو «صان صوصيه» بالجيزة ثم استقر به المقام فى مقهى «إنديانا» بميدان الدقى، ولأسباب مادية ونفسية وسياسية كانت قد ألمت به، ظل زكريا العمدة الوحيد للمقهى دون منافس ولا نواب.

مسافر على الرصيف

يصف محمود السعدنى جغرافية قهوة محمد عبد الله . . يقول : كانت تتوسط ميدان الجيزة فى عصره الذهبى الذى كان، كان الميدان وقتئذ فسيحا تتناثر على جانبيه مساحات من الأرض الفضاء، قامت عليها بعدئذ ناطحات السحاب وأطبقت على الميدان وخنقت أنفاسه، وكانت القهوة تحتل ناصية هامة للغاية، ويتفرع على جانبيها شارعان من أهم شوارع الجيزة وأقدمها، شارع سعد وشارع عباس، وكان للقهوة ثلاثة أبواب فسيحة مفتوحة على الميدان وتطل عليه، وتصبح الجلسة على رصيف المقهى جزءا من جغرافية المكان .

كان المعلم محمد عبد الله يتخذ لنفسه مكانا مختارا داخل المقهى إلى جوار «النصبة» حيث يتم إعداد الشاى والقهوة وغيرهما من الطلبات، وكان اختياره للمكان نتيجة دراسة جدوى، لأنه كان من مجلسه يراقب عمال المقهى، كما أن المارة فى الميدان كان باستطاعتهم أن يشاهدوا المعلم محمد عبد الله ومن أى زاوية من زوايا الميدان .

كان المعلم محمد عبد الله سمينا ممتلئًا، ليس بالقصير ولا بالطويل، ولكن اكتافه كانت عريضة، وصدره بارز وشاربه يغطى مساحة كبيرة من وجهه . كان متجهما على الدوام، لم أضبطه مرة واحدة فى حالة ابتسام، إذ كان فى حالة استنفار على الدوام .

ثم يشرح السعدنى السر وراء حالة الاستنفار، حتى يظل على أهبة الاستعداد لطرد الهوام والباعة السريحة وحتى الذين يطلبون شربه ماء مثلجة شر طردة، وعلى ما يبدو أن هذا الانضباط وحالة الهدوء التى توافرت للمقهى، كانت تمثل نقطة جذب مضافة للمثقفين الذين ينشدون المؤانسة وتواصل الحوار بينهم دون تطفل وإزعاج .

ويقول السعدنى فى كتابه «مسافر على الرصيف» إذا كان أنور المعداوى هو أعظم أبناء قهوة محمد عبد الله، فزكريا الحجاوى هو أخلص أبنائها وأعظمهم فنا وأشدهم تأثيرا فى الجيل الذى جاء بعده، وعندما جذبت الصحافة زكريا ظل مواظبا على زيارة القهوة ولو لرشف فنجان القهوة على عجل، وأحيانا يتلكأ لينهى نقاشا جادا بينه وبين أصدقائه، ولكن لحسن الحظ لم يعمر زكريا فى بلاط صاحبه الجلالة، وسرعان ما عاد إلى القهوة من

جديد، وقد امتلأت نفسه مرارة من غدر الزمان وخيانة الأصدقاء، لكن زكريا الذى كان يتفجر حيويةً ويفيض نشاطا لم يستسلم، وبدأ رحلة حياة جديدة، وألقى بنفسه فى نهر الفن الشعبى وسبح فيه بمهارة، وربما فاضت نفسه بشرا عندما اكتشف أنه وجد نفسه، وأنه عثر على الطريق الصحيح، وراح زكريا يجوب ريف مصر، يقضى ليالى فى أفقر الكفور وأصغر النجوع، وفى النهاية كان أصدق كاتب ريفى أنجبته مصر، فهو كان يعشق الأرض المصرية، وكان بينه وبين الطرق الزراعية علاقة غرام، وكان يهيم بأشجار النخيل ويقف مبهوراً أمام الخضرة فى الحقول، وكان يحمل عشقا خاصا لأشجار الجميز، وينشرح صدره كلما نفذت إلى خياشيمه رائحة روث البهائم، وكثيرا ما كان يصرخ من شدة الوجد كلما رأى فلاحة سمهرية العود تتلوى كالأفعى وهى تخطر فى الملابس السود.

لقد حقق زكريا إنجازات ما كان يمكن تحقيقها لو أنه استمر فى عمله الصحفى، التقط ألحانا ريفية كانت مجهولة، وضع نجوما فى المجتمع كانوا مجرد صعاليك يتسولون بالغناء، واستطاع أن يفرض على مصر عددا من هؤلاء.. أدهشوا مصر بفنونهم الأصيلة، وبعضهم أدهش العالم كله بعد ذلك كالريس متقال»!

وكشاهد عيان على الرمق الأخير من أيام قهوة محمد عبد الله الزاهرة قبل أن تطولها معاول الهرم، إنها ظلت على وفائها لزكريا الحجاوى، فلم يكن صاحبها يطالبه بدفع ثمن ما يطلبه لنفسه ولضيوفه من أكواب الشاى وفناجين القهوة، إلى حين ميسرة، وكان زكريا وحده الذى يحدد من جانبه متى تهبط عليه الميسرة، كذلك فقد ظل زكريا وفيا للمقهى عبر عشرات الزبائن من المثقفين والحوارين الذين كانوا يتقاطرون على مجلسه ويدفعون ثمن طلباتهم، وذلك كان مصدر السعادة لصاحب المقهى وعمار جيبه، فيما كانت مجالس زكريا بمثابة سوق عكاظ للشعراء القدامى والشباب، وملتقى أشبه بحديقة «هايدبارك» «اللندية» عبر التعبير عما تجيش به الصدور من عوامل الفرح والانتصار أو الإحباط والانكسار.

من سوق الحد لساقية مكى

فى كتابه الجميل «على مقهى الحياة»، أرخ الدكتور سمير سرحان للعلاقة الحميمة بين زكريا الحجاوى وشيخ النقاد أنور المعداوى وبين الأدباء الشبان، كما لو أنها العلاقة

الروحية بين شيخ الطريقة ومريديه وأتباعه، يقول: كان محمود السعدنى وزكريا الحجاوى هما رمز قهوة محمد عبد الله، بولعهما الشديد بل وعشقهما لحوارى الجيزة القابعة خلف قهوة محمد عبد الله، خلال الأزقة والحوارى المتعرجة وصولا إلى ميدان «سوق الحد» وحتى منطقة «ساقية مكى» التى تفصل حضر الجيزة عن ريفها فى عالم زاخر بالشخصيات والأنماط الشعبية والتراث، وهو فى اعتقادى الذى أعطى زكريا الحجاوى الشرارة المقدسة التى أطلقها باحثا فى أرجاء مصر كلها عن حكمة هذا الشعب ممثلة فى الكلمة والموال والحكاية والأغنية.

ويقول الدكتور سمير سرحان: إلى جانب الحركة الثقافية والفكرية والنقدية الزاخرة التى ارتبطت بقهوة محمد عبد الله، فقد ارتبطت بها أيضا حركة اكتشاف الينابيع الأصيلة للأدب الشعبى والفنون الشعبية، وإثارة الاهتمام بالفولكلور بوصفه الكنز الهائل للموروث الشعبى الذى شكل وجدان الشعب وشخصيته الثقافية المميزة على مر العصور، وإذا كان زكريا الحجاوى فارس هذه الحركة على المستوى الشعبى، فإن أحمد رشدى صالح هو فارسها أيضا على المستوى الأكاديمى، وقد كان رشدى صالح من رواد قهوة محمد عبد الله وارتبط بجلستها الليلية شأن بقية أدباء المقهى، لكنه كثيرا ما كان يخلد إلى جلسة أخرى فى كازينو يقع على الجانب الآخر من ميدان الجيزة العتيد هو كازينو «صان صوصى» وهى كلمة فرنسية تعنى «بلا أحزان» وكان من جلسائه الدكتور على الراعى الجاد دوما والمتجهم دوما.

على أنه فى أجواء قهوة محمد عبد الله الشعبية البسيطة الودودة، كان تألق موهبتين شعريتين، ربما لم يكن ليتاح لهما الظهور والنبوغ والشهرة فى مكان آخر ولا أجواء سواها آنذاك، الأول كان الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى الذى عبر عن ضياعه الريفى فى زحمة القاهرة وصخبها عبر قصيدته الشهيرة «مدينة بلا قلب» وهى كانت عنوان أول دواوينه:

يا عم

من أين الطريق

أين طريق السيدة

أيمن قليلا ثم أيسر يا بنى

قال ولم ينظر إلى

وسرت يا ليل المدينة

أرقرق الآه الحزينة

أجر ساقى المجهدة

للسيدة

بلا نقود جائع حتى العياء

بلا رفيق

كأننى طفل رمته خاطئة

فلم يعره العابرون فى الطريق

حتى الرثاء

وعلى الجانب الأخر كان الشاعر صلاح عبد الصبور فى ديوانه «أحلام الفارس القديم» يعبر عن مشاعر مشابهة فى قصيدته الرائعة «أغنية للقاهرة» :

لقاك يا مدينتى أسايا

وحين رأيت من خلال ظلمة المطار

نورك يا مدينتى

عرفت أننى غللت للشوارع المسفلته

الى الميادين التى

تموت فى وقدتها خضرة أيامى

ويرصد الدكتور سمير سرحان قهوة محمد عبد الله بأجوائها الشعبية الزاخرة وأنماطها الإنسانية والأدبية التى حملت مشاعل الأدب والثقافة والتنوير، وكيف انتقلوا وراء أنور المعداوى إلى مقهى «أنديانا» فى الدقى ثم يقول: إنها حقا عدة كيلو مترات قليلة تفصل بين قهوة محمد عبد الله فى الجيزة وقهوة «أنديانا» فى الدقى، لكنها وإن كانت خطوات قصيرة فى المكان، إلا أنها كانت تمثل قفزة هائلة فى الروح والمزاج والحساسية التى ميزت الأدب المصرى والعربى فى أوائل الستينات.

ثم يتساءل فى ذكاء بما يشى بالمتغيرات التى طرأت على مصر فى زمن الانفتاح يقول :

هل قدر لهذا المقهى المستطيل القبيح الشكل . . المطل على ميدان الدقى أن يرمز إلى كل ما فى حياة المدينة من دلالات، أن يكون هو الرمز لهذا الانتقال الغريب من مرحلة إلى أخرى . . لست أدرى، كل ما أدريه أن هذا ما ينطبع فى نفسى كلما مررت بميدان الدقى . . أتوقف قليلا . . وأتذكر .

والشاهد أن رحيل أنور المعداوى المفاجىء عن الحياة كان فى أعقاب الانتقال إلى مقهى «أنديانا» وبعدها انفرط عقد هذا الجمع من الرواد والأدباء الشبان بعد هدم قهوة محمد عبد الله، فكنا نلتقى بغير انتظام مع زكريا الحجاوى ومحمود السعدنى على بضعة مقاعد يقدمها مع المشاريب صاحب محل الفطاطرى الدمياطى بميدان الجيزة بعد أن تلاشت معالمه القديمة .

www.books4all.net

الساخر العظيم

منتديات سور الأزبكية

على أن الإحاطة البانورامية الأمينة لسيرة حياة زكريا الحجاوى، تستدعى إلى الذاكرة بالضرورة علاقته الحميمة بالشيخ عبد الحميد قطامش المحامى الشرعى «المعمم» سابقا، والمحامى الأفندى المطربش أمام شتى المحاكم فيما بعد، إذ رغم ما كانت توصف العلاقة بينهما كما «فوله وانقسمت نصفين» إلا أن ما صنعه الحداد فى هذه العلاقة يظل مجهولا، وظل السائد بين الجميع من أسباب الخلاف إلى حد القطيعة لأن زكريا حقق شهرته وبات علما من أعلام الثقافة والفن والصحافة آنذاك، ولذلك لم يسلم من سخريات قطامش الصاروخية الموجعة التى لم يعرف لها إبداع ولا دور سياسى أو نشاط فى العمل العام، وربما لأن التنافس بينهما كان على أشده فى قهوة محمد عبد الله على حول امتلاك زكريا لناصية الحديث أحيانا، وجذبه لأسماع شباب المثقفين بوجه خاص، مما لم يكن ضمن اهتمامات قطامش ولا قبل له به . . وعليه بالتالى أن يظل مستمعا وهو ما لم يكن يقبل به وهو المحدث الأعظم!

وعلى الرغم من أن قطامش كان تكوينا إنسانيا لا نظير له، وكان بينى وبينه ما أهلنى للكتابة عنه مرارا، إلا أننى لم أجد ما يستحق أن أختصه بكتاب وحده، وذلك أنه لم يخلف وراءه سوى الذكريات الجميلة ومساجلاته الشفاهية الممتعة التى لم تنل ما تستحقه من التسجيل فى حينها .

هنا نتوقف عن الاسترسال فى رؤيتنا الخاصة للشيخ عبد الحميد قطامش، لنترك لمحمود السعدنى حبل الحديث عنه على غاربه، كونه الأقدم معرفة به والأكثر قدرة بالتالى على القيام بمهمة الوصف والتشخيص للظاهر والباطن فى «الحالة القطامشية» إذا جاز هذا التعبير، عبر ما كتبه عنه بصدق وإسهاب تحت عنوان «الساخر العظيم». . يقول:

عبد الحميد قطامش واحد من أعلام قهوة محمد عبد الله. . وهو بالقطع وحيد زمانه وفريد أوانه، ولم أصادف فى حياتى شخصية أخرى من نفس الطراز. . وهو واحد من فحول الأدباء وإن لم يكتب أدبا!! ولكن موهبته الحقيقية كانت فى الكلام.

كان محدثا ربما لم يخلق مثله، وهو يمزج الفصحى بالعامية فى مهارة الصائغ العظيم، فيأتى حديثه كأنه مسبوكة عظيمة تضم أغلى الجواهر وأندر الأحجار! وكان حساسا وذواقة وصاحب نكتة ومعقدا إلى حد كبير! كان يبدأ الناس دائما بالعدوان، وبعد سهرة واحدة يصبحون من أعز الأصدقاء!

وكان يكره النساء ويحبهن فى آن واحد، وهو لأنه كان شيخا معمما فى صباه، وأيضا لأنه كان من طبقة الفقراء، فقد كان مرفوضا لدى النساء، ولعل ذلك هو سر حقده عليهن، وسر شغفه بهن أيضا! وقد عاش الشيخ قطامش حياته منفصلا عن زوجته، وتفرغ لتربية أبنائه، والسهر طول الليل مع أحد الأصدقاء، والطواف فترة الصباح على المحاكم، فقد كان واحدا من أقدر المحامين على الإطلاق، وكان يكسب كثيرا وينفق قليلا، ولم يشاهد قط خارج مكتبه أو بعيدا عن نطاق قهوة محمد عبد الله، إلا نادرا، وكانت له صلات عريضة، وأصدقاؤه يعدون بالألوف، ومن كل الطبقات، وكان هذا يتيح له سهرة فى كل ليلة من الزمالك إلى سوق الملاح، ولكنه أبدا لم يتنكر لانتمائه الطبقى، ولم يقطع صلته بأصوله الأولى، وظل شبح رهيب يطارده طول العمر، وهو خوفه من العودة إلى أيام الفقر الأولى وزمن التعاسة المتناهية.

كان يدخر تسعة أعشار دخله، ليس بخلا من عبد الحميد، ولكن الفلوس تحولت فى نظره إلى درع الأمان، والسد العالى ضد الفقر والجوع وأيام الضياع، وبالرغم من عصريته، وكمحام، كان لا يؤمن بالبنوك، وكانت نقوده كلها تحت البلاطة، وحافظته كانت دائما متخمة بالنقود، وغالبا ما كنت أراه يتحسس حافظة نقوده وهو جالس معنا فى المقهى، وكان يبدو سعيدا للغاية كلما مر بيده على الحافظة المنتفخة، فقد كانت هذه الحافظة هى علاقة السيادة والقوة فى دنيا الناس، وكان يتمتع بقدرة فائقة على إضحاك

الحجر، ونكتته كانت لاذعة، وتعليقاته كانت جارحة، ولسانه كان أشبه بسيف مسلول، وبالرغم من ذلك كان يبدو ضعيفا إلى حد الانسحاق أمام رجال السلطة من الوزير إلى الخفير، ولذلك أثر طول العمر أن يبتعد عن أى عمل جاد ضد السلطة، وكان يطلق لسانه أحيانا ببعض النكات ضد الحكومة، فإذا تأزمت الأمور، لزم داره، وقبع فى سكون، ولذلك نجا عبد الحميد من المقصلة التى قطعت رءوس كل أبناء جيله، فلم يسجن يوما ولم يقطع رزقه يوما، ولم يعان على أى نحو، وفى كل العهود.

وما أشد عقد عبد الحميد قطامش، وما أعقد تناقضاته، فبالرغم من نشأته الفقيرة إلا أنه كان يكره الفقر والفقراء أيضا، وبالرغم من نشأته الريفية إلا أنه كان يكره الفلاحين، ولم يقم بزيارة واحدة لقريته خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة من حياته، وكان يحب السهر فى بيوت الأثرياء، ويعشق الحياة المترفة والأنيقة، ويسعى للتعرف على طبقة الضباط والقضاة ورجال الإدارة، ولكنه كان يكره المشاهير من الأدباء والفنانين ويحتقرهم، وكان يردد دائما «المشاهير هم مجرد فقاقيع على وجه المجتمع»، وبالرغم من بخله الشديد على الأصدقاء إلا أنه كان على استعداد لإنفاق آخر قرش من ثروته إذا وجد لمسة حنان عند امرأة جميلة، ولكن هذه كلها تبقى صفات شخصية لعبد الحميد، أما الجانب العام فيه وهو الذى يشغلنا فى الأصل، فلا شك أن عبد الحميد قطامش كان واحدا من أعظم الظرفاء الذين أنجبتهم مصر فى هذا القرن، وكانت له جولات وصولات مع عشرات من رجال الأدب والفن والظرف فى مصر، وسهراته مع زكريا الحجاوى وعبد الحميد الديب وعباس الأسوانى تصلح مادة لتدريس الفكاهة فى جامعات الظرف، ونكاته لم تكن قفشات لفظية فقط ولكنها كانت أشبه بمسرحية صغيرة، الحوار فيها مركز والحركة مرسومة وأحيانا يستخدم الديكور ويحرص على وجود المشاهدين!

ذات مساء فى أواخر الأربعينات خرج معنا زكريا الحجاوى وأنا من منزله فى السيدة زينب ليرافقنا بعض الطريق ونحن فى طريق عودتنا إلى الجيزة، ولكن لأن الحديث ذو شجون فقد نسى عبد الحميد نفسه، ليكتشف فجأة انه ذهب معنا إلى الجيزة، ولم يكن يرتدى إلا جلبابا وفى قدميه نوع رخيص من الشباشب، وفكرنا فى أن نعود معه إلى السيدة، ولكن الرأى استقر على ان نوفر له ربع جنيه مصرى يكفى لتوصيله بالتاكسى إلى منزله فى السيدة، وبعد أن استقل التاكسى وودعنا باشارة من يده، أمر السائق بالتوقف فجأة، ونزل مسرعا ليهمس فى أذن زكريا «خد رقم التاكسى يا زكريا» ولما سألناه عن السبب أجاب بجدية متناهية «احسن السائق يقتلنى ويسرق الفلوس».

هذه كانت عينة من نكاته، قصة قصيرة موحية ولها أبعاد، وتقطر سخرية من الموقف كله، ولا ترحم أحدا، وكان أحيانا يقسو بشدة على نفسه، ربما ليتسنى له الحصول على إذن بالقسوة على الجميع.

وعاش الشيخ قطامش ومات، لا يصدق شيئا، ولا يؤمن بشيء، فالحياة أكذوبة والناس مجرد أكاذيب، والنجاح صدفة، والفشل قدر، والأعمار بيد الله صحيح، ولكن فى أمر الحياة والإنسان سر ما لا يفهمه قطامش.

وكان شديد الإيمان بالله، ولكنه كان مؤمنا متعاظما فى الوقت نفسه ويعتقد أنه قريب جدا من الله، إلى الحد الذى ليس محتاجا بعده لتقديم الدليل على صدق إيمانه.

وكان أحيانا عندما يخلو لنفسه، أو إلى صديق حبيب، كان يبكى بكاء شديداً وكنت أعرف فى تلك اللحظات، بعمق جراح الشيخ عبد الحميد، وغزارة نزفه.

وكان يؤمن إيمانا عميقا بأن ضربة حظ أصابت أصدقاءه، فأصبح زكريا الحجاوى فنانا شعبيا، وأصبح نعمان عاشور كاتبا مسرحيا، ومحمود الشريف ملحنا مشهورا، وأن هذا الذى حدث، كان من باب سخرية الأقدار، ولذلك لم يقرأ قطامش حرفا واحدا من إنتاج أصدقائه، لم يشاهد مسرحية لنعمان، ولم يقرأ حرفا لزكريا وبالرغم من احترامه الشديد لأنور المعداوى، إلا أنه لم يكلف نفسه عناء قراءة مقال واحد له.

ويبدو أن طريقة التعليم فى الأزهر ـ على زمانه ـ طغت على أى رغبة عنده للقراءة فقد كان عليه أن يحفظ عن ظهر قلب كتبا تزن عدة أطنان، وكان عبد الحميد يعلق على ما حدث قائلا: «لقد قضيت زهرة العمر فى حفظها ثم اكتشفت فى النهاية أننى لم استفد شيئا». وساعده على عدم القراءة، إصراره على الهروب من الوحدة وتجنبها، وإلقاء نفسه فى بحر الناس، فلم أشاهده وحيدا قط، ولم يكن يلزم داره إلا إذا كان عاجزا عن الحركة، وعندئذ كان يقوم باستدعاء الأصدقاء، ليقضوا الليل حول فراشه.

ولكن أخطر نقطة فى حياة عبد الحميد هى علاقته بالجنس الآخر، فقد عاش أعزب بالرغم من أنه كان متزوجا، وكان زواجه تحطم فى أولى مراحله، وبقيت الزوجة فى الريف على ذمته، وعاش هو وحيدا مع أولاده فى القاهرة، وكان يكره المرأة كراهية شديدة، والأكيد أن هذا الموقف كان راجعا إلى فترة شبابه، حيث كان شيخا معمما ولم يكن طلاب الأزهر فى قائمة فتيان الأحلام لبنات ذلك العصر، ولذلك لم يجرؤ مرة واحدة فى حياته على مغازلة امرأة، ولم يكن لديه الشجاعة للافصاح عن شعوره للطرف

الآخر، وكان يحلم دائما بامرأة تغازله، وتطارده وتقع فى هواه، وكان إحساسه بالحب إحساسا سينمائيا، فهو يبحث دائما عن حب من هذا النوع الذى يظهر فى أفلام السينما، وينتهى غالبًا بمأساة.

وكان يكتب خطابات غرامية أحيانا ويرسلها لنفسه، وكان حريصا على قراءة هذه الخطابات لى، وعندما كان يبدو على أحيانا أننى غير مصدق، وعندما يغلب على الضحك، يقوم الشيخ قطامش وينهال على شتما، وكنت أحاول تهدئته، وأقول له مداعبا: إن الخطاب يا عبد الحميد مكتوب بأسلوب لا يمكن أن يكون لامرأة، فهو مستوف لكل الشروط التى وصفها الفراهيدى وابن منظور، وصاحبة الخطاب لابد وأن تكون خريجة كلية اللغة العربية بالأزهر (لم يكن فى الأزهر طالبات فى ذلك الحين).

وكان يضحك بعمق عندما أسأله: هل وقع سيبويه فى غرامك؟ ولكنه بالرغم من هذا الموقف الحاد من الجنس الآخر، كان يبدو سعيدا للغاية إذا ضمه مجلس به سيدات، وكان على استعداد للزحف على ركبتيه ليلبى إشارة من امرأة تعامله بشىء من الحنان أو تبدى نحوه شيئا من الود، وبالرغم من حرصه الشديد، كان على استعداد لأن ينفق آخر قرش فى جيبه لتلبية أى طلب يأتى من جانب امرأة.

وهذه النفس المعقدة الحساسة إلى درجة شديدة، كانت هى حجر الزاوية فى ظاهرة قطامش، فقد كان لا يفتح فمه بكلمة إذا ضم مجلسه فردا واحدا لا يعرفه معرفة وثيقة، وكان لا يسب إلا من يحبهم من أصدقائه، وكان يخشى الحكومة، ولكنه لا يستطيع الكف عن نقدها، وكان مثاليا، ولكن تصرفاته أكثر من واقعية، وكان يتجنب رؤية الدماء والاشلاء، فى الوقت الذى كان فيه شديد القسوة لا يرحم.

حقير بنى أمية

ثم يحسم محمود السعدنى رأيه وموقفه من الشيخ عبد الحميد قطامش.. يقول: صندوق المتناقضات الذى فى داخله، هو الذى أنتج فى النهاية هذا الرجل الساحر الساخر، الذى لم يكن له مثيل فى زمانه على الاطلاق.

وكان دائم المزاح مع أصدقائه، ويلجأ أحيانا إلى مزاح من نوع ثقيل، يؤلم ويجرح،

وإذا عاتبه صديق أجاب بأنه لا يقصد شيئا إلا المزاح، وأن النكتة «حبكت» وان الفرق بين الصديق والعدو، هو أن الصديق يبلغ لصديقه أخطاءه المقصودة فما بالك بالخطأ غير المقصود، ولكن الويل لمن تسول له نفسه المزاح مع عبد الحميد بنفس الطريقة، لقد قاطع صديق عمره زكريا الحجاوى ثلاث سنوات متصلة بسبب مزاح بدأه عبد الحميد فرد عليه زكريا بنفس الأسلوب، فكانت القطيعة.

وأصل الحكاية أن زكريا الحجاوى كان جالسا فى مقهى عبد الله مع مجموعة من أصدقائه وتلاميذه، ولم يكن من بينهم أحد من أصدقاء عبد الحميد، وفجأة دخل عبد الحميد المقهى، وألقى نظرة على الجالسين، فهب زكريا فى احترام مبالغ فيه، وهى عادته عندما يكون فى جلسة مع بعض معارفه الجدد، ورحب زكريا بعبد الحميد بكلمات تحمل كل الاحترام والتقديس، ووقف قطامش بعيدا عن زكريا وهو فى غاية الجد وقال: (لسه قاعد بتنصب يا زكريا، يا حقير بنى أمية، يا ابن الـ. . .) ثم بصق على زكريا وانصرف.

موقف لا شك عانى منه زكريا بعض الوقت، وبالتأكيد لم يجد تبريرا لهذا الموقف، وخصوصا وأن الذين كانوا يجلسون معه كانوا يعرفون زكريا قليلا، ولا يعرفون قطامش على الإطلاق.

ومرت شهور طويلة بعد ذلك، ثم سنحت فرصة لزكريا الحجاوى لينتقم، فقد صعد زكريا إلى «الباص» عند محطة الباشا فى منيل الروضة، وكان «الباص» مزدحما والجو خانقا وشديد الحرارة، ولمح زكريا وسط الركاب الشيخ قطامش يقف مع مجموعة من المحامين الشرعيين، واقترب زكريا من أحدهم وسأله «هوه الأستاذ اللى واقف هناك ده يبقى عبد الحميد قطامش المحامى الشرعى؟» فأجاب الشيخ بالإيجاب، وصرخ زكريا صرخة شديدة «يا لص، يا كذاب، يا منافق يا قطامش، تذهب إليك زوجتى بتوكيل خاص، لترفع لها قضية طلاق منى فتغازلها غزلا معيبا يا منافق يا شيطان». وبهت المشايخ جميعا، فقد كانت هذه التهمة هى أم الكبائر فى مهنة تقوم أساسا على احترام أعراض وأسرار الناس، ولم يكن للقصة أصل من الحقيقة طبعا ولكن زكريا اندفع فى تمثيل الدور، وعبثا يحاول المشايخ تهدئته دون جدوى، وثار الركاب الآخرون على. . الشيخ قطامش وكادت تحدث كارثة، وانتهز زكريا فرصة الهرج الشديد الذى حدث فقفز من «الباص» واختفى.

وعبثا حاولت الصلح بينهما دون نتيجة، كان قطامش شديد الغيظ مما حدث، وكان يقسم كلما فاتحته فى الموضوع أنه لن يخاطب زكريا حتى الموت، ولكنى انتهزت فرصة

مواتية، وتعمدت استفزاز قطامش عندما قلت له: يخيل إلى أن هناك سببا لا ندريه فى موقفك المتشدد والغريب من زكريا، وقال قطامش عندك حق، فأنا وجدتها فرصة لأقاطع زكريا الحجاوى إلى الأبد، ولما سألته عن السبب الحقيقى، تنهد فى أسى وقال: إن زكريا يحقد على حقدا شديدا، وارتسمت شبح ابتسامة على شفتى، ولكنه واصل حديثه فى جد شديد: لا تظن أنى أمزح أو أعبث يا محمود، الحقيقة أن زكريا يحقد على حقدا شديدا، والسبب أنه عديم الأصل وفقير، وهو لم يتعلم شيئا ولم يستفد شيئا، كما أنه ضائع وصائع.. ثم هدأ انفعاله قليلا، وصمت لحظة، ثم قال فى هدوء: وأنا كمان كده يا أخويا، وهو عاوز يبقى كده لوحده! عشان كده بيحقد على وضحك قطامش ضحكة عميقة وصافية نابعة من القلب، ونهض معى إلى بيت زكريا الحجاوى، وكانت سهرة لا تنسى.

لقد انطوت بوفاة الرجل، صفحة كاملة خطيرة ومثيرة وحافلة، فما كان أعرض حياته وأعمق صلاته، وكم شهدت ليالى القاهرة سهراته التى كانت تجلجل فيها ضحكاته، وتطيش خلالها تعليقاته ولذعاته، وقفشاته، ونكاته التى تجرح وتسيل الدم، ولا أعتقد أن ركنا فى مدينة القاهرة لم يشهد سهرة لقطامش، ولا أعتقد أن احدا من الذين عاشوا فى القاهرة خلال نصف القرن العشرين الأخير لم يتعرف على قطامش أو لم يسمع به.

والدك كان فقى والا من العلماء؟!

والشاهد أننى بهرت للوهلة الأولى بالشيخ قطامش وأحببته حبا جما، إذ كان شخصية نادرة لافتة للانتباه على الأقل بالنسبة لى، ورغم ما نالنى من ألوان امتعاضه وسخريته وعدم اكتراثه تلميحا لا قولا، إلا أننى كنت مسلحا بخبرة طويلة فى التعامل مع أمثاله من الظرفاء والصعاليك والنبلاء الذين عايشتهم وأحببتهم، إذ كانوا دوما يبادرون بالجديد الوافد على حياتهم بألوان شتى من الهجوم والاستفزاز، إما من قبيل التطفيش أو اختبار قدراتهم على تحمل شطحاتهم وجنونهم، وذلك ما حدث من قبل عندما كدت أشتبك بالأيدى مع الشاعر الفنان عبد الرحمن الخميسى فى أول لقائى معه.

من هنا تحليت بصبر أيوب على أمل ترويضه وكسب ثقته وصداقته، إذ أن مثل هذه الشخصية الفريدة التكوين وعشقها للتنكيت والتبكيت ظلت محور اهتمامى ومنتهى

غـرامى، لكنه أبى أن يلين ويستـجيب، وحـتى أدرك زكـريا الحـجـاوى مـحنتى وعـندئذ فوجئت به ذات أمسية فى مقهى محمد عبد الله وهو يقدمنى إلى الشيخ قطامش ويذكره بوجودى فى حضرته السنية : أخونا يوسف الشريف صحفى بمجلة روز اليوسف والده كان زيك شيخ من المجاورين فى الأزهر .

انتفض الشيخ قطامش على ما يبدو لوصفه بالمجاورين . . ثم انقلبت نظراته التى كان يرمقنى بها شزرا إلى الانتباه والدهشة لوجودى أمامه . . وسألنى فيما يشبه الشك فى حديث زكريا عنى :

والدك كان أزهرى بصحيح؟

إيوه بس ما كانش مجاور زى فضيلتك . . كان طالب أزهرى من منازلهم!

ويبدو أن إجابتى أعجبته . . لذلك ابتسم وعاد يسألنى فى ود :

ـ والدك كان فقى ولا من العلماء؟

كان أول شهادة العالمية دفعة ١٩١٨ .

ـ يرحمه الله كان اسمه ايه؟

ـ الشيخ محمد إمام الشريف

عندئذ تهللت ملامح قطامش وانفرجت أساريره ومد يده مصافحا وهو يقول :

أهلا وسهلا بابن الشريف الحبيب . . ده أبوك يا راجل كان العريف بتاعى فى الأزهر .

ولا أدرى لماذا كان هذا الاستجواب بطاقة الولوج إلى الصداقة الحميمة التى ربطتنى بالشيخ قطامش، ومفتاح السر الذى كشف لى عن معالم هذه الشخصية المتفردة فى مختلف جوانبها الظاهرة والباطنة .

أذكر أنه كان يحلو له الحديث معى عن الطلبة المجاورين بالأزهر وألوان فكاهاتهم وسخرياتهم وبؤسهم، إلى حد اختيار أحدهم للقيام بمهمة الناضورجى أمام مسجد الحسين رضى الله عنه، فما إن يأتى رجل أو امرأة لتوزيع الصدقات أو النذور على الفقراء والمجاذيب حتى ينتقل الخبر إلى الطلبة المجاورين، وعندئذ يهرعون حتى ينالوا نصيبهم منها . . إذ غالبا ما كانت أرغفة من الخبز الملغوم باللحوم .

وكان حمد الرجيب سفير الكويت بالقاهرة إبان الستينات قد ارتبط بصداقة وحوار دائم مع قطامش وكثيرا ما رأيتهما معا فى كافتيريا «داى أند نايت» بفندق سميراميس القديم، وهما يتبادلان طرح ما وعته الذاكرة من عيون الشعر القديم والحديث، وأذكر أننى جلست معهما ذات مساء، وإذ بى أسمع من حمد الرجيب وصفا غير مسبوق فى قطامش حين قال أنه «عباسى الهوى» إذ كان يذكره بشعراء وندماء القصر العباسى الذين جالوا وصالوا فى بلاط الخلفاء والأمراء.

أذكر أنه لم يكن يمر أسبوع إلا وكانت لنا سهرة مع عبد الحميد قطامش فى شقته التى اتخذ منها سكنا ومكتبا فى الطرف الشمالى من ميدان السيدة زينب رضى الله عنها، وكنت من المداومين على السهر معه ومحمود السعدنى و زكريا الحجاوى وعباس الأسوانى المحامى وطوغان وحمدى لطفى الصحفى بمجلة المصور والمهندس عبد الحميد «حريقه» وهو الوصف الذى أطلقه عليه السعدنى إذ كان مهندسا فى الأمن الصناعى وإخصائيًا فى إطفاء الحريق.

ولأن السهرة كانت تمتد دوما إلى ما بعد منتصف الليل، كان قطامش يتحفنا أحيانا على غير عادته فى التقتير ويطلب لنا وجبة عشاء من الفول والطعمية، وأحيانا من الكوارع ولحمة الراس والفتة بالثوم والخل إذا أدرك أن دفع الحساب من نصيب غيره.

لكن كرم قطامش كان بلا حدود فى الليلة الكبيرة لمولد السيدة زينب، إذ بعد طوافه بنا فى أرجاء الحى والاستمتاع بمشاهدة جموع الفلاحين من محاسيب الست، وكذا سرادقات الذكر والمديح والغناء الشعبى وفنون السيرك، كان بانتظارنا فى النهاية وليمة قطامش من اللحوم على مائدة طويلة وعريضة فى مقهى زهرة الميدان.

كان حضوره غامرا فى تلك الليلة على نحو خاص، لكأنها ليلة زفافه أو مناسبة تنصيبه على عرش المتكلمين الظرفاء، وكانت سرعة بديهيته مستفزة دوما دفاعا أو هجوما، وكان مدججا بسلاطة لسانه كما طلقات مدفع رشاش، إيذانا بتوجيه الضربة القاضية إلى أعدائه من الكلامنجية أمثال زكريا الحجاوى ومحمود السعدنى.

خللى البهوات ياكلوا براحتهم

على أننى أضيف إلى حديث السعدنى المستفيض عن قطامش، أن زكريا تعقبه برد الصاع صاعين بعد واقعة الأتوبيس التى ندد فيها علانية بقطامش ومرغ بسمعته الأرض على مسمع من الركاب، «الأولى» عندما فاجأه وهو جالس فى مقهى باب الخلق وسط جمع من زملائه المحامين الشرعيين وكان لا يزال يرتدى زى المشايخ، حيث دخل زكريا المقهى وقد نكش شعره الكثيف وصاح بأعلى صوته.. يا حضرات المشايخ.. يا ناس يا هوه.. الراجل ده.. مشيرا إلى قطامش.. الشيخ اللى بيدعى أنه حافظ كتاب الله.. الله برىء منه إلى يوم الدين.. الراجل ده خطف مراتى ورافع عليه قضية طلاق علشان عاوز يتجوزها.. دى أم أولادى يا عالم.. اتخرب بيتى واللى كان كان.. ثم انخرط زكريا فى بكاء هستيرى من باب حبك المقلب.

وعبثا حاول قطامش الضحك على هذا الافتراء.. وعبثا حاول التأكيد على أن زكريا صديقه.. لكن النتيجة كانت عكس ما ذهب إليه.. حيث تلقى لعنات رواد المقهى من المحامين والمشايخ ومن الزبائن الذين لا يعرفونه.. إذ كيف سولت له نفسه هكذا خيانة صديقه.. وبعدها تكرر نفس المشهد فى ترام رقم «٣٠» وهو فى طريقه إلى مصر القديمة.

الأكثر من ذلك طرافة أن زكريا أتى بسلم خشبى فى ساعة متأخرة من الليل وصعد درجاته حتى طال اللافتة المعلقة تحت نافذة مكتب قطامش ثم أمسك فرشاة مغموسة بالطلاء وأضاف إليها كلمتين بلون مختلف.. فلما استيقظ قطامش وخرج من المنزل فى طريقه إلى المحاكم وجد جمعا من المارة والجيران وهم يضحكون وأنظارهم شاخصة إلى اللافتة.. حتى أدرك المقلب.. إذ كانت الكلمة التى أضافها زكريا «أولاده» ومن ثم أصبحت عبارة اللافتة تقول «عبد الحميد قطامش المحامى وأولاده، ثم استبدل كلمة «أمام» المحاكم الشرعية بكلمة «وراء» المحاكم الشرعية!

أذكر أننى استضفت شلة الأصدقاء للعشاء فى بيتى شتاء عام ١٩٦٢، وإذا قطامش يشتبك فى معركة كلامية تهكمية مع زكريا، إلى حد السخرية من الأغنية الشعبية التى

كانت تغنيها المطربة خضرة فى إحدى مسلسلاته الإذاعية، وقال قطامش إن زكريا سرق لحن الأغنية من «القرداتى»، إذ كانت تبدأ بعبارة طويلة ممدودة بطيئة حتى تشى بكل ما حباه الله المطربة خضرة محمد خضر وهى الله من سلامة الصوت وقوة الحنجرة عندما تقول لا لا لا لا . . أه . . لا لا لله لا . .

عندئذ رد زكريا الصاع لقطامش صاعين وقال : تذكرنى يا شيخ قطامش بتطفلك على منتديات المثقفين برجل تافه يبحث له عن دور وأهمية ما دون طائل، وكأننى أرى جمعا من الناس وهم يتناولون طعامهم فى الخلاء . . وإذا بك تتقدم إليهم بسؤالك الفضولى : تحب أجيب لكم ميه تشربوا يا بهوات . . ثم إذا بك تهش على أطفال يلعبون من حولهم صائحا : إبعد يا واد إنت وهو . . خللى البهوات يعرفوا ياكلوا براحتهم .

عندئذ تدخل الممثل محمد رضا الذى تخصص فى أداء دور المعلمين والفتوات وقال وهو يختتم السجال التهكمى المتبادل قائلا : يبقى كده النتيجة «درون» ومتعادلين والحمد لله، ولولا حكمة محمد رضا، فربما تجددت القطيعة بين زكريا وقطامش التى استمرت ثلاث سنوات .

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

المهندس حسن فتحى

دعونا نسبح ونهيم فى رؤى زكريا للفن الشعبى عبر تجواله فى ربوع مصر ومحصلة تجاربه ودراساته المكتوبة التى تجل عن الحصر عددا وعن الوصف حبا، ولعلى لا أتجاوز الحقيقة حين أشهد بأننى لم أصادف فى حياتى ما يضارعه فى حب مصر فنا، سوى المهندس العملاق حسن فتحى عمرانا ومعمارًا . . وكلاهما للأسف لم يلق سوى الجحود وتلقى ضربات التآمر تباعا فى الظهر وتحت الحزام .

لكن زكريا كان غالبا ما يجد فى حبه الكبير لمصر وشعبها وفنونها راحته وبلسم جراحه وشقائه، دون أن يتسرب إلى نفسه اليأس أو الاحباط حتى فى أحلك الظروف، ولم لا وقد أسكره الفن بخمر الرضا، فلم يكن يعنيه الصغائر والتفاهات، ومن هنا سر ابتسامته العذبة وإقباله على الحياة وعشقه النهم للصحبة الحلوة .

فإذا عبرنا حالة الرضاء الذاتى التى لم تفارق زكريا الحجاوى أو المزاج الرائق إن شئنا

استخدام أوصافه الشعبية، إلى سبرأغوار فكره وعطائه الثقافى الغزير، وخاصة ما يتعلق بالفن الشعبى، فلا أقل من ذكر عناوين البعض من كم مقالاته حول شئون وشجون الثقافة بشكل عام والفنون الشعبية بشكل خاص وبينها: «أبو زيد الهلالى - عربى - أسيوى - أفريقى»، شخصية البطل كما رسمته الملاحم الشعبية، الفنون الشعبية بين المدينة والقرية، الفولكلور والحرية، الفولكلور منهاجا، ابن البلد يؤرخ المجتمع المصرى، كيف ندون تراثنا الشعبى، يا بو عبد الناصر يا جمال، المداحون، المزاج المصرى، فى أسلوب الفن الشعبى - مسرحنا الغنائى فى الريف، فى مصر مغنون بالفطرة. . هم البائعون الجوالون والشحاذون، مكتبة سيد درويش فى المجلس الحسبى، الفرق بين الطرب والتلحين، أغان تسمع بالأكف. . والأفواه والقلوب، الفولكلور. . فن رجل الشارع، الأدب الشعبى، «يا ليل يا عين» عودة الفولكلور المصرى بأسلوب عالمى، للمصريين أناشيد للرقص، المصريون يحبون عبد الوهاب ويكرهونه، ألحان المراهقة، فالمراهقة عنصر من عناصر الوجود، مصر خالقة الدراما فى الفن، فن المربع، الأثار والتراث، الفن الشعبى والاستعمار، الفن المصرى المعاصر، الجاذبية القومية. . إضافة إلى نحو عشر مقالات أخرى عن الفنان العظيم سيد درويش، و. . غير ذلك من المقالات الأدبية والنقدية، ولا شك أن هذا العطاء الثقافى والتراثى المصرى الذى خلفه زكريا الحجاوى فى مسيس الحاجة لأن يحتويها أكثر من كتاب.

فى حارة كوم الدكة

فى مقالاته العديدة عن سيد درويش يكشف لنا زكريا الحجاوى عن جوانب غامضة ومدهشة فى سيرة حياة هذا الفنان الخالد الذكر، ولعلنا إذن نعود إلى معادلة ما لا يدرك كله لا يترك كله، عبر الإشادة والتنويه بالجديد من الحكايات والقيم والمعانى التى استخلصها زكريا عبر أبحاثه ودراساته حول هذا الشأن الثقافى والوجدانى الهام.

فى مقاله نشرها بمجلة السوادى فى الثامن من أبريل عام ١٩٤٩ تحت عنوان «سيد درويش - جريدة مصر الغنائية فى ١٩١٩» يروى عن بواكير طفولة سيد درويش وإلى أى مدى تحددت وقتئذ معالم نهجه وأسلوبه الغنائى والموسيقى. . يقول: من أين يا ترى جاء هذا العملاق؟ جاء من الحارة!. . والحارات السكندرية فى ذلك الزمان وحتى اليوم. .

حارات والعياذ بالله . . يحول الصبية فيها الشتائم والسباب إلى فضائح تغنى، ويصفق لها، عندما تغيظ حارة . . حارة أخرى .

ويا ويل حارة يتشابك صبيتها مع حارة «كوم الدكة» لأن بها ولدا جهير الصوت، أشعث الرأس، مفتول البدن . . اسمه «السيد» ذو مقدرة فائقة على إنتاج هذه الفضائح الغنائية، وتجديدها كل يوم حسبما يقتضى المقام .

وأولاد «كوم الدكة» لا يزيدون عن «زعيمهم» حبا فى تخريج اللعنات لأولاد الحارات الأخرى، فانطلقوا وراءه يهتفون بما يهتف ويرددون ما يقول، وهو بين المقطع والمقطع يأتى بشىء جديد فى اللحن، وكأن التراشق بالزهو لم يكن بين أفراد وإنما بين جوقة وجوقة غنائية .

ويتساءل الناس ما معجزة سيد درويش يوم أن صار نبع الموسيقى والغناء فى عصره . . كانت معجزته . . «الكورس» عبر ترديد الأغانى الجماعية على المسرح، تلك التى كانت سابحة فى نفس صبى الحارة ولم تفارقه فى شبابه .

فى ١٧ سبتمبر عام ١٩٤٩ نشرت صحيفة «المصرى» مقالا لزكريا الحجاوى تحت عنوان «مدرسة سيد درويش» .

لا يمكن لمدع أو منكر، أن يدعى أو ينكر، أن هناك من المدارس الفنية أو غير الفنية لها من الأثر فى التطور المصرى، كما أثرت فيه مدرستان لا غيرهما، هما مدرسة «جمال الدين الأفغانى» السياسية، ومدرسة «سيد درويش» الموسيقية، على أننا نلاحظ فى المدرسة السياسية التأثير فى الجوهر، أى فى الموضوع، بخلاف الشكل الذى ينتهجه كل متأثر، كل حسب ظروف وقته بخلاف المدرسة الفنية التى لا خلاف فيها فى الجوهر أو فى الشكل على الإطلاق .

فكما كانت السياسة قبل الأفغانى سياسة سلبية، تحارب الاستعمار بالخطب، وإعلان الرأى، وتقرير المطالب الوطنية فى عبارات كلامية، كذلك كان الحال فى الموسيقى والغناء قبل سيد درويش، موسيقى سلبية أو أغان صوفية لا علاقة لهما بطبيعة النفس المصرية، وتماما كما تحول «سعد» بالسياسة المصرية إلى الإيجابية، واصطدم بالمستعمر الذى هو عبارة عن ظروف وملابسات، وتدخلت بالواقع المصرى . . كذلك تحول سيد درويش بالغناء والموسيقى إلى «واقعية» الحياة المصرية . .

ولذلك فنحن نحب أن نفسر «واقعية» سيد درويش، ليدرك من فاته الإدراك، أن مادة

موسيقى هذا الرجل هى المادة الذائبة فى ألحان وأغانى الجيل الحاضر، ذائبة بحيث لا ترى، تماما كالزبد فى اللبن..

كان الغناء قبل سيد درويش غناء عاما لا ربط فيه بين الكلام وتفسيره نغميا، أى لا ربط فيه بين التأليف والتلحين، بحيث كان الغناء منقطع الصلة بالبيئة العاطفية التى يتحتم تصورها بالنغم وما يحمل فى أحشائه من فضح للعاطفة المسيطرة على مدار الكلام ومدار الغناء..

نعم، لقد كان الغناء فى مصر، وكانت الموسيقى، تخطيطا عاما، وإطلاقا للسليقة، تمسك بالصوت، ترفعه وتخفضه تبعا لجمال الصوت وسلامة النغمة وبعدها عن النشاز ولا غير ذلك، بحيث لا يمكن أن تجد الفرق بين «الموسيقى العظيم» و«الموسيقى العادى» فى ذلك الزمن إلا عبر معيار واحد هو جمال الصوت الذى وصفوه بأنه يأخذ بمجامع القلوب، مع احتفاظ هؤلاء المغنين جميعا بالمقدرة على احتكار دموع الناس، لقدرتهم على تحويل التنغيم إلى نواح..

وعلى النقيض المستقيم مشى سيد درويش بفهمه للموسيقا والغناء، فلقد تحول فى التلحين بالتقاط الوسط العاطفى للقطعة المطلوب تلحينها، ولقد كان بحق معجزا فى التقاط هذا الوسط العاطفى الواقعى من نفوس الناس، فلاحين كانوا أو ساسة، أو عشاقا، أو محاربين، أو حمالين، أو سائقين، ويستتبع فهم الوسط العاطفى لهؤلاء الناس، أن يقف الرجل على الحالات النفسية، أو العواطف المسيطرة، غضبا، كانت أو يأسا، أو فرحا، أو ذهولا، أو تفاؤلا، أو خداعا، أو شعورا بالثقة، وبعد ذلك يبحث فى المجالات الموسيقية المبثوثة بين الأوتار عن النغم الموائم للعاطفة تمام المواءمة.. ومن هنا يبدأ التلحين.. لا من الذاكرة أو من المهارة أو من المصادفة.. ولذلك، فإننا رأينا مصر قد راحت فى زمن وجيز تردد الألحان المستنزفة من دمائها وروحها، بل راحت مصر تغنى نفسها بعد أن اكتشفت فى هذه الألحان الجديدة وطنها العاطفى الذى بحثت عنه فى القديم دون جدوى، ومن عجب أنه كان خلوا من الراديو، هذا العملاق الاجتماعى الذى يحمل فى دقة المنتظم، والحاحه المتواصل قدرته الفائقة على توصيل ما يريد إلى أعماق النفس، رضيت هذه الأعماق أم غضبت..

وإذن، فقد كان سيد درويش مبدعا خلاقا لشىء جديد فى عالم التلحين، كان من الممكن إثبات هذا الشىء لو استطعنا عرض جميع مسرحيات هذا الموسيقى العظيم الغنائية

على الناس، ليعرفوا أن «القلل القناوى» و«الشيالين» وغيرهما كانت أجزاء من كل هارمونى منسجم. . لا قطعا غنائية منفصلة عن ذلك الكل، قائمة بذاتها.

ولقد ينفعنا أمر واحد للتدليل على إبداع الرجل لهذا الشيء الجديد، ما دمنا عاجزين عن عرض جميع مسرحياته الغنائية على الناس، فلو أننا تصورنا استمرار المدرسة الغنائية القديمة دون وجود هذا العبقرى المنكور، وجاء عصر السينما الذى نعيش فيه، وتساءلنا عما كان يمكن حدوثه فى الغناء السينمائى. . أما أنا فلا أكاد أتصور إلا المطرب أو المطربة وقد وقف للتمثيل وتحنطت الشاشة على منظر البطل أو البطلة وقد راح أيهما يغنى دورا، ووراءه «المذهبجية» يرددون مقاطع الدور.

ولكن مدرسة سيد درويش استطاعت انتشال السينما من المهزلة، وما كان ليمكن ماديا أن توجد هذه المدرسة دون ما فعله الشيخ سيد لموسيقى التخت وطريقته فى التعبير الخيالى عن العواطف، وركضه نحو «الواقعية» المصرية، التى لم يذكر لنا لحن واحد منها إن الشيخ سيد قال فيه مرة واحدة «يا ليلى. . يا عينى» كما يفعل كل موهوبى الحناجر. . !

لقد قامت السينما المصرية التى هى وسيلة التعبير الواقعى المحض على نهج «زكريا أحمد» و«عبد الوهاب» وهما أول من لحن للسينما على سبيل القطع والاثنان إمامان من أئمة مدرسة سيد درويش والمتأثرين بها لأنها الحق. .

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

هل كان سيد درويش أميا؟

فى مقال آخر غاية فى الإثارة بعنوان «ثقافة سيد درويش» ينفى فيه زكريا الحجاوى بالدليل القاطع كونه أميا. . وكيف كان نهجه فى التثقيف الذاتى العصامى. . يقول:

سيد درويش رجل أمى؟ هذا صحيح كان رجلا، لا بمعنى أنه لا يقرأ ولا يكتب، وإنما بمعنى أنه «فك الخط» وهو صبى بالكتاب، ثم ساقته ظروف الحياة بعدئذ إلى احتراف صناعة أبيه، النجارة، ولما لم يفلح فيها، احترف النقش وأعمال البياض ولم يدخل بعد ذلك مدرسة قط إلا مدرسة التجارب الهائلة، مدرسة الحياة.

ولكن هل يعقل عاقل أن الثورة الموسيقية التى أحدثها سيد درويش والتى لا ينكرها مُنصف، ولا الواقع التاريخى من انتاج وجدان موسيقى أمى؟

رأيت فى دراساتى لسيد درويش أن أبحث هذا الأمر لأشفى نفسى بالجواب فإذا بى أرى العجب.

كان سيد درويش رجلا مثقفا..

لقد قادته موهبته إلى سلوك الطريق إلى الثقافة، وقادته تجاربه إلى تطبيقها والتفاعل معها حتى صنع نفسه وعوض عما فاته صغيرا دون أن يدرى عن نفسه أكثر من أنه «خادم» للموسيقى.. لا موسيقارا ولا عبقريا، ولا شيئا من ذلك.

اسمع اللحن للرجل بعد وقوفى على شخصية الذى يؤديه والظروف أو اللحظة السيكولوجية التى تحيط به ساعة النطق باللحن، فإذا بى أرى أن الملحن لا يبحث فى تركيبة اللحن عن الطرب ولا عن الزخرفة ولا عن سلامة التركيب النغمى وإنما عن شىء واحد هو الكشف عن نفسية المتكلم ـ غناء ـ ساعة النطق.

وفنان له منهاج أى فنان مثقف يدرى تماما ما يستهدفه من وراء إنتاجه الفنى لا يمكن بحال أن يكون فنانا ـ أميا ـ أو صاحب موهبة فطرية خارقة وحسب، بل لابد من عمليات إدراكية كبيرة تلعب دور القيادة مع الموهبة.

كان سيد درويش رجلا مثقفا..

ولقد أحدث مجرد وجوده فى الميدان المسرحى ثورة فى فن المسرح بعامة، لا فى فن المسرح الغنائى وحده، عندما تحول المسرح وجمهوره من التسالى والسمر بالروايات الكلامية عن جورج أبيض والكلاسيكيات الغنائية عند سلامة حجازى.. لقد بهر الشعب المصرى أن يرى «الواقعية» لأول مرة على المسرح من مدرسة الغناء: سيد درويش ونجيب الريحانى وداود حسنى ثم بعد ذلك زكريا أحمد.

ولقد عثرت فى دراساتى عن سيد درويش وعبر ابنه الأصغر ـ حسن ـ على محضر المجلس الحسبى الذى عمل بعد وفاة والده العبقرى فإذا بالبيان الذى يحتوى على مكتبة سيد درويش الخاصة، وإذا ببعض تعليقات الفنان على هوامش هذه الكتب تدل على أن سيد درويش لم يعش على قراءة الصحف ولم يعش على التثقف من السماعيات والمرئيات، وإنما كان إيجابيا شاعرا باحتياجه إلى التزود من المعرفة، وبعض هذه الكتب التى رآها سيد درويش عيون الفكر والأدب العربى والغربى على السواء منها الأغانى لأبى الفرج والبيان والتبيين والبخلاء للجاحظ وعيسى بن هشام للمويلحى والكامل

للمبرد وكل كتب المنفلوطى التى نقلها من الأدب الغربى والتى وضعها، وزينب هيكل وكل ما ترجمته دار مسامرات الشعب من روايات ومسرحيات أجنبية وغيرها.

كان استعداده للمعرفة والتزود والثقافة طبيعيا بلا شك ولكنه لم يكن ليستطيع أن يؤلف شعرا وشعرا غنائيا إلا إذا كان قد عالج ـ العبارة ـ وصياغتها قراءة وكتابة رجل ـ فك ـ الفكر لا الخط وحده.

تراه.. ؟ هل يستطيع كثيرون من موسيقيى زماننا هذا أن يكتبوا خطابا أو أن يقرأوه قراءة سلبية.

ما رأيهم فى الذى نقوله هذا والذى نقوله بعد ذلك وهو أن سيد درويش ألف«كتاب موسيقا» ونشرته الصحف فى أجزاء متتابعة بلغة أديب عاش فى فترة الصياغة والإنشاء الواقعة قبل وبعد ثورة ١٩١٩.

قالت صحيفة ـ النيل ـ فى عددها الخامس والثلاثين فى سنتها الأولى وتاريخه ـ السبت ٩ سبتمبر ١٩٢١ ـ ٨ محرم سنة ١٣٤٠ وصاحبها فرج سليمان فؤاد ـ راجع محفوظات دار الكتب ـ قالت فى ديباجتها عن تقديم كتاب الشيخ سيد ما يلى بالحرف الواحد:

أراد الله لهذا البلد الأمين أن يرفع شأن الفن فأنجبت مصر حضرة الأستاذ النابغة الشيخ سيد درويش فأخرج للناس من كنوز الموسيقى آثارا يجب الاحتفاظ بها ودررا تسابق الناس إلى التقاطها حتى أصبحت ألحان الأستاذ الشجية تملأ الدور والطرقات، يتغنى بها الفتى وتعزف بها الفتاة فى خدرها وينشدها الحادى ويستعين بها الفلاح فى حقله على قتل الوقت، وماذاك إلا أنها روح جديدة وأنغام الأذواق، وللأستاذ عبقرية لا يجهلها المصريون ويقر بها من لهم المام بهذا الفن الجميل، وقد أراد الله لهذا الفن الرفعة الحقيقية والرقى الذى تنشده الأمة من عصور مضت فوفق الأستاذ الشيخ سيد درويش إلى تأليف ـ كتاب موسيقى ـ أهداه إلى جريدتنا «النيل» لنشره تباعا وقد بدأنا فى هذا العدد بنشر القطعة الأولى فى تعريف الموسيقى وسنتبعها بنشر قطعة كل عدد ونشر أغنية من تلحين الأستاذ مع نشر نوتتها ليسهل على من لهم ولع بضرب الآلات الموسيقية تناولها وأخذ الفن من منبعه وفقه الله إلى ما فيه رفعة الفن الجميل»!

ثم وضعت الصحيفة كلمة ـ الموسيقى ـ عنوان الفصل الأول من الكتاب فلنقرأ كلام الشيخ سيد درويش، لنرى كيف دخل على الموضوع بلا مقدمات وكأنه يجيب على تساؤل بأسلوب هو أسلوب العصر الماضى كما قلنا.. قال سيد درويش عن الموسيقى:

أصوات فكرية تحدث أنغامها بواسطة اهتزازات تنجذب لها الأفئدة كما تنجذب الإبرة للمغناطيس.

وهى محك القلوب يعرف بها الحساس فيؤخذ عند سماعها ويبغضها الجبان فلا يلوى عليها.

يأتى المولود من عالم الغيب إلى دنيانا فتستقبله القابلة والأقارب بأغانى الفرح والحبور، يحييهم عندما يرى النور بالبكاء والعويل فيجيبونه بالهتاف والتهليل كأنهم يسابقون الموسيقى الرنانة على أفهامه الإلهية، هى نغمات رقيقة تستحضر على صفحات المخيلة ذكرى ساعات الأسى والحزن إذا كانت محزنة أو ذكرى أوقات الصفا والأفراح إن كانت مفرحة.

ثم يتابع سيد درويش قائلا:

إنك لن تجد جيشا إلا ومن أوائل مطالب رؤسائه إتمام معدات الأصول الموسيقية.

ولم؟ لأنهم يعتقدون الاعتقاد الكلى بأن الجندى يدفعه إلى خوض غمرات القتال عاملان:

أولهما المدافعة الوطنية المبنية على الشعور الكامن فى الفؤاد الذى يحتمه حب تربة البلاد التى رضع من ثدييها وشب وترعرع من خيراتها.

وثانيهما القوة التأثيرية التى تدفعه لعامل التأثير الذى لا يترك للفكر مجالا للتجوال حول الماديات الاجتماعية التى لا يخلو منها أيّا كان وهى ـ القوة الموسيقية.

فإنك ترى الجنود عند توقيعها ينتشون بخمرة الشهامة والهمة لا يفكرون إلا فى التقدم إلى الأمام مهما كانت قوة الأعداء أمامهم والفضل فى ذلك راجع إلى ما قلنا من أن توقيع النغمات:

تدفع الجيش للقتال ببأس — أقوى عزما من الأسود الضوارى

تسكت الطفل إن بكى وتداوى — كل مضنى مشتت الأفكار

فهى والله سلوة وسرور — بل وسر من أجمل الأسرار

طبق الأصل والإمضاء: خادم الموسيقى سيد درويش

البيـــانو العــربى

ويعلق زكريا الحجاوى على إدراك سيد درويش لخاصيه تأثير الموسيقى . . يقول : وأظن أن موسيقيا يكتب بهذا الأسلوب ويسبك هذه العبارات أصواتا فكرية والقوة التأثيرية وصياغة المعنى شعرا موزونا والوصول إلى أن الموسيقى قوة تضاف إلى حب المواطن لوطنه ، لا يمكن أن يكون أميا بحال من الأحوال .

ثم يعود بنا زكريا الحجاوى إلى مجلة ـ المضمار ـ العدد ١٧ السنة الثانية يوم الجمعة ١ ديسمبر ١٩٢٢ ، وعبر تحقيق صحفى مصور تقول :

نشرنا فى عدد سابق صور البيانو العربى الذى ابتكره حضرة النابغة أميل أفندى عريان المهندس . . ويسرنا الآن أن نزيد القراء علما به فنقول إنه فى مساء يوم الأربعاء الموافق ٢٢ نوفمبر الماضى اجتمع فى منزل باسيلى باشا تادرس فى الظاهر بالقاهرة عدد ليس بقليل من كبار الضالعين فى فن الموسيقى العربية والبارعين فى العزف بآلاتها بدعوة من حضرة الأستاذ الشيخ سيد درويش الملحن الشهير وأميل أفندى عريان . . وقضوا نحو ساعتين يتناوبون على اختبار البيانو المذكور والوقوف على عدته وأساليبه ، فمن تلك الاختبارات أن الأستاذ داود أفندى حسنى طلب إلى أميل أفندى عريان أن يسمعه نغمة البياتى الأصلية وتصويرها على كل من مقام السيكاه والنوى ، وبعد أن أوقعهما حسب الطلب ووافق الحاضرون على صحتها اقترح الممتحن على المبتكر تصوير نغمات الصبا والنهاوند وغيرهما على أرباع مختلفة كالتك زير كولا والكرد وغيرها فأجاب الطلب على ما يرام وحذا حذو داود أفندى حسنى كل من الشيخ درويش الحريرى والشيخ سيد درويش وعبد الحميد أفندى القضابى ومحمد أفندى عمر وغيرهم من مشاهير الموسيقيين فاقترحوا تصوير نغمات أخرى مختلفة ولم يلبث أميل أفندى أن صورها ببراعة ومهارة لا مزيد عليهما .

ثم انتدبوا حضرة الموسيقية البارعة الآنسة صدفى عبد السميع فجعلت توقع عليه قطعا مختلفة من التقاسيم والبشارف متنقلة فيها من مقام إلى آخر حسب اقتراح الحضور وقد خيل إليهم أنهم لا يسمعونه على بيانو بل على قانون محكم الدوزان ثم كتبوا شهادة

فحواها أنهم اجتمعوا وامتحنوا البيانو المشار إليه فوجدوه صالحا لأن توقع عليه النغمات العربية وكافلا بتصويرها على كل من الأربعة وعشرين ربعا التى يتألف منها الديوان العربى، وأمضى الشهادة حضرات: ما تيلده عبد المسيح، خادم الموسيقى الشيخ سيد درويش، داود حسنى، الشيخ درويش الحريرى، عبد الحميد القضابى، محمد عمر القانونجى، عبد الرحمن رشيد، حبيب فبسال، جميل عويس، عزيز جيزاوى، أنطوان فرعون، إبراهيم العريان، اسبيرو لولى، نجيب توفيق، يوسف عزمى، شكرى لولى، قسطندى منسى، كامل الخلعى، صفر على، عزيز صادق، فيما حلت المجلة جيدها بصورتين للبيانو الذى تنشر صورته هنا وللشيخ سيد درويش صاحب فكرة تطوير البيانو الأوربى وتحت إشرافه حتى بات صالحا لعزف مختلف الأنغام الشرقية. . والانفعالات الشريفة والتشوف السامى ومحاولة جذب المجتمع إلى فضائل البشر الطبيعية من خلال الفن لا يستطيع الإتيان بها فنان مستغن بموهبته وحدها عن الثقافة عن مواهب ومعارف البشر جميعا.

فإذا ما لقينا شيئا من ذلك، بعض الأوقات عند فنان معاصر فإنما ذلك من باب الصدفة.

وإذا ما لقينا نزعة قومية فى لحن من الألحان عند فنان معاصر فلا يكون ذلك إلا من باب الاجتهاد، ولقد كان من المستطاع أن يكون اتجاهنا فى موسيقانا المعاصرة اتجاها قوميا لو اجرى الفنانون المعاصرون نغماتهم على المنهاج قبل الوتر حتى يختتم زكريا الحجاوى مقاله أو بحثه المثير قائلا:

كان سيد درويش فنانا مثقفا لأنه كان صاحب منهاج فى الفن، ولأنه استطاع أن يعبر عن مشاعر أمة لا عن مشاعر طبقة أو طائفة. . وسيظل منهاجه وحدة القياس على مصريتنا فى الموسيقى، وسيظل منهاجه السلم الوحيد الذى تصعد فيه موسيقانا إلى كل المستويات التى نريدها لها.

فـــن المربـــع

قد يعرف القلة من المثقفين «فن المربع»، وقد يجهله الغالب الأعم منهم، رغم أن هذا القالب الغنائى قديم وأصيل، وهو وإن كانت له أصول موسيقية، إلا أن المضمون ومعنى

النظم فى إطاره بقدر ما، يعتمد على الإحاطة بالثقافة الشعبية، بقدر ما يعتمد كذلك على سرعة البديهة وخفة الظل والوعى بالأوزان الزجلية.

فى مقاله الثقافى الشائق عن فن المربع يطوف بنا زكريا الحجاوى بفن الموال الأبيض والأحمر، وبالتواشيح، وعروبة الوجدان المصرى.. يقول:

فن المربع، قالب من قوالب الفن الشعبى، غير الموال، وغير الزجل وغير الكلام الغنائى البسيط الذى نسج به الجدود ملاحم المداحين وقصصهم الشعبية وأساطيرهم.

ولكل قالب من هذه القوالب، عناصر بناء وخصائص، كما هو الحال فى الفنون المتسامية الأخرى، فالموال، وهو أول قالب صب فيه المصريون بأسلوب درامى، خواطرهم وأفكارهم، وكانوا يسمونه فى القدم «الكلام الجميل».. هذا الموال، يشترط فيه أن تكون اللفظة المنتهية به نهاية كل بيت منه، لفظة تشبه الأخرى التالية، التى ينتهى به البيت الثانى، وكذلك الحال فى البيت الثالث.

الفنانون الشعبيون، يحبون «الجناس» والتورية، وكلما تلا المنشد البيت من الموال، أضحى المستمعون، مترقبين للبيت الثانى، ثم الثالث، فإذا تكررت اللفظة، وتعددت معانيها تبعا للسياق، أى حملت كل منها معنى جديدا، كان لذلك وقع السحر عند المستمعين، واعتبروا هذه القطعة المغناة موالا حقا، لأنه يحمل «الزهر» والزهر هو اللفظة العامية التقليدية عند الفلاحين التى تحل فى مكان كلمة «الجناس» الإصطلاحية وذلك لأنهم يقفون عند اللفظة، «ويزهرونها» أى ينبتونها بالتساؤل والتفسير، كما ينبتون «الزهرة» فإذا فرعت المعنى، عرفوا نوعها.. والموال الذى لا يحمل هذا الزهر، يسمونه الموال «الأبيض» أى العادى الفارغ من سحر الفن ولنضرب مثالا بالموال الأبيض:

يا خسارة الحلو من بعد الدلال يهينوه

من بعد ما كان صاحب مقدرة يهينوه

حسوا العوازل وجوله فى الوطن يهينوه

هنا، وعلى الرغم من انطباق المعنى على المدار الذى يستهوى الفلاحين يمر الموال بعواطفهم مر الكرام، لخلوه من عنصر «الفن» من.. الزهر والجناس. فلفظة «يهينوه» لا تحمل فى تعددها ثلاث مرات إلا معنى واحدا من.. الإهانة.

ولكنهم إذا سمعوا مثلا :

طبيـب معـى جـرح طالت مـدته ووصله

قرب داوينى يا طبيـب وشرط الفتى وصله

قال الطبيـب للعليـل أخـد عليـك وصله

أمـا هنا فلفظة وصـلة الأولى تخـتلف عن الثـانية، والثـانيـة عن الثـالثة، الأولى بمعنى «وصول» المرض للقائل من مدة، والثانية من «الصلة» والثالثة من . . الإيصال .

ولا تنتهى نقطة الإثارة الفنية عند هذا الحد، وإنما بيت القصيد فى الموال هو آخر بيت دائمـا، ذلك لأنه من ناحيـة المضـمـون ينطق بالحكمـة ويرهص بما ينتظره السامعـون، ولأنه قبل ذلك، من ناحية الشكل يعطينا «الزهرة» للمـرة الرابعـة . . مهمـا طال الموال وتشعبت أغصـانه الوسطى، وهو يعطينا هذه اللفظة، بعـد الإرتكاز فى البيت الأخير على حـركـة غنائيـة تشبه «الطبـاق» فى الـشعـر، فإذا مـا انتـهى البيت الذى يسـبق بيت القـصيد بكلمـة «التخت» مثلا، كان بيت القصيد فى الموال الأبيض .

اسـمع يا عاقل مـثل زى العسل والتـخت

الدنيا والبـخت.. إذا عاكسم مـلك يهينوه

والحركـة الغنائية التى تشبه الطباق، هى النابعة من الهـارمونى الصوتى الحادث بتعاقب «الدنيا والبخت» بعد لفظة التـخت . . وهذا الهارمـونى الصوتى، أو الطبـاق، أو ما يسميه أولاد الكار من الفنانين الشعبيين «العتبة» هى بالفعل، العتب الذى ينفتح بعده باب الإثارة والانطلاق فى لـذة التـأمل والخيـالات التى يوحى بهـا فى العـادة، الفن، أى فن ولكى تتم الفائدة، نسجل هنا الموالين، ونبدأ بالأبيض :

يا خـــســـارة الحـلو من بـعـــد الدلال يهـــيـنوه

من بعـــد مـــا كـــان صـــاحب مـــقـــدرة يهـــينوه

حـــســـوا العـــوازل وجـــوله فى الـوطن يهـــينوه

وقـف رآهم كـــــتـم غـــــيظـه وغـطى بـلاه

خـــايف من الـدهر أحـــواله تـيـــجـى بخـــلاف

الأهل كـــرهوه وقـــالو نتـــركـــه وبلاه
سقـوه كـاسـات الجـفـا بعـد الصـفـا بخلاف
من بعده مـا كان ركوبه ع الهـجين وبلاه.. أي الإبل
نسـيم وداده ومــعـــروفـــه صـبح بخـــلاف
زمـــانه خـــانه وطردوه م الـوطن والـتـــخت
والبـين عليـه جـار بمثل معـصـار الزيوت والتـخت
اسـمع يـا عـاقل مـثـل زى العـسل والـتـخت
الدنيـــا والبـخت إذا عــاكـسم مـلك يهـــينوه

أما الموال الأصيل، المزهر، أو ما يسميه الفلاحون «الأحمر» وهو من باب شكوى الزمان فى العهود البائدة :

مال دنـية الشـوم على المظلوم بتملى.. أى تملى إرادتـها
لكن حـكم بطال علـى الأبطال.. بتـمـلى.. أى دائمـا
مـلا جـدع زين عليـه العـين بتـمـلى.. أى ملء العيـن
بـيــــركـب الخـــيل وبـكر الـليل يـجـــرى بـه
لو جــاله ضيـف يـجيب له من ضــانى اللحـــوم والمز
صــبح فــقـــيــر حــال مـعندوش شىء يـجـرى به
ولبـــســـه كــــان من خـــاص الحـــريـر والمز
كــان يجـرى وراء الخـصم بعـون الله ويـجـرى به
لما جت تولـى حـــضــرت له الخـــمـــور والمز
قـــام مـن منامـــه ســـمع فـن وحكـم مـــره
نزلـت دمـــوعـــه على كـرسى الخـديد مـــره

قلت له قوم فز دوق كأس الحلا مره

الدنيا حرة.. تبيع الباش بتملى

حقيقة الدينا، أنها حرة، وأن الأصل فيها، الحرية، وأن تلك الأوضاع ليست أبديه، فلا يظل الباشا الإقطاعى باشا . . وأن «التملى» الذى هو أجير الحقل، هو «المظلوم» وهو «البطل» فى صدر الموال، إن هذا التملى . . إذا أفاق من غوايته . . ونظر إلى الدنيا نظرة تفاؤل، وذاق كأس الحلا، باعت الدنيا الإقطاعى . . رغم التقاليد . . وأعطته هو . . البطل المظلوم . . صاحب هذه الأرض . . أعطته الدنيا نفسها .

هذا هو الموال، وهو القالب الذى استقر فى بلاد الوجه البحرى، لكثافة الروح المصرية فى هذه الأقاليم المنبسطة، وغلبة عاداتها وتقاليدها ونظرتها إلى الحياة على كل الأجناس الوافدة، والمذابة فيها .

أما فى الصعيد، وبخاصة شرق النيل، فقد استقلت العرب ببلاد وقرى، حتى اليوم، الهيئة، والعادة، واللهجة، كلها عربية، ولكنها عربية قومية، أى مذابة فى الروح المصرية، بحيث يرى الإنسان هناك مزاجا «قوميا» فريدا .

هم فى الحقل فلاحون عريقون فى الفلاحة، وهم فى السمر، عرب قوميون من هذا النوع الفريد .

ترى الشاب منهم، بالجلباب واللبدة، ولكنه إذا رقص، لا يرقص على المزمار، ولكنه يرقص على وحدة الكف، بالفن . . قال المربع، وغناه وأخذ ما يقول وما يغنى بأفئدة قومه . . العرب المصريين . . وإذا ما كان عرس، قامت العروس، ومعها بعض صويحباتها، نهضن فلاحات، ولكنهن اذا دخلن حلبة الرقص . . استدرن فى الهيئة والحركة إلى أعماق الدماء والتقاليد . . تحجبن . . وتماسكن بالأيدى . . وحجلن مصطفات مغمغمات بما يذكر برائعة أبى العلاء وهو يصف جمال القافلة :

لعل كراها، قد أراها، جذابها ذوائب طلح، بالعقيق، وضال

ومسرحها، فى ظل أحوى، كأنها إذا خطرت فيه ذوات جمال

تلون زبورا فى الحنين منزلا عليهن فيه الصبر غير حلال

وأنشدن من شعر المطايا قصيدة وأودعنها فى الشوق.. كل مقال

الشعر غريزة العرب

ويصف زكريا الحجاوى والشعر، كما يقول ابو العلاء فى رسالة الغفران كونه «غريزة العرب» فكيف بالغريزة تنمحى إذا ما استوطنوا الزمردة الخضراء، مصر، وعاشوا بها، وتناسلوا وتوالدوا وتصاهروا وتكون منهم هذا المزاج القومى الفريد. . لا شك فى أن الغريزة الفنية، ستبقى بموحياتها وإملائها وروحانيتها غالبة عليهم، ولكنهم فى نفس الوقت أصبحوا عربا مصريين، أو مصريين عربا، أو مصريين تسبح فى وجداناتهم أهازيج الوطن الأكبر. . العروبة، أنهم قد امتزجت فيهم اللهجة كما تعانق الدم، وتعانق أسلوب التعبير الفنى تبعا لتوحيد العادات والتقاليد والنظرة إلى الحياة والإحساس بكل شىء.

وعندما طاف الشعر العربى، ببلاد الدنيا، وظل عنصره الخطابى باقيا فى صدور الشعراء، أنتج نوعا غنائيا آخر، بفعل الحضارة، وحب الحياة، هو الموشحات، تلك التى نبتت وأينعت بالأندلس، ثم عادت كأناشيد غنائية يغذيها الرواة والمغنون فى كل البلاد العربية على نحو ما ذكر وأطنب فى ذلك ابن خلدون.

وإنه لشىء عجب، أن ترى اهتمام الناس، بالكلام والمعنى، ومحاولاتهم استشفافه من وراء النغم، حتى ليكاد يكون التنغيم شيئا ثانويا بجانب المعنى نفسه، تماما كما يسعد المثقفون بتلاوة الشعر، ومحاولة الغوص فى معانيه، والإحساس بالإثارات الفنية الكامنة فيه، إلى جانب الغنائية وهى أشياء منتقاه من الكلام العادى الذى تجرى به ألسنة الناس فى حياتهم اليومية.

إنى أعرف قرى، بأسمائها فى الوجه البحرى، وأخرى فى الوجه القبلى، زرتها وسمرت مع السامرين بها، يقف المغنى فى الأولى يقول الفنان الشعبى الموال، بلا غناء يتلوه تلاوة عادية ولا يسمحون للمغنى على الإطلاق بالغناء، لأنهم يخشون أن يخرجهم جمال الصوت والطرب عن الاستمتاع بالمعنى، وبقيمة العمل الفنى، وفى الوجه القبلى كذلك، يزداد استمتاع الناس بفن «المربع» تلاوة دون أن يكون إنشادا.

ونحن لا نعجب إذن، لصلابة الشخصية القومية، فلقد انصب فى وجدانها على مرور

السنين من المعانى والحكم والترابط ما جعلها بلورة مستعصية على الذوبان فى محلول غير محلولها «الأمينوسى» الواهب لها الحياة وهو القومية .

وكما رأينا فى الموال أن منه «الأبيض» الذى تنتفى منه نقطة الإثارة الفنية ، كذلك الحال فى «المربع» مع الاحتفاظ بالقيمة الشعرية .

إن صـــــــادفك حظ الأيام — خليك على الشط ديمـــــه
واحـــدف عـــصـــاتك لقـــدام — عـوجـه بتيجى مـسـتـقـيـمـة
إن جـــالك الـســـعـــد نام — واجـــــعل نومك تجــارة
وان مـــا جـــالكش السعـــد نام — مـشـيـك فى الدنيـــا خـســارة
الدنيـــا عـــاقـصـة وراقـــصـة — وييـجى ضـربهـا فى المفــاصل
ترقـص لكـل حى رقـــصـــه — مـــا دامـــتش لحـــد واصل

وفن المربع ، هو الذى يطلق عليه بعض الفلاحين «الواو» وينعتون شاعره المحترف «المواوى» ، وكان من عادة هؤلاء المحترفين الهجرة كما سلف القول ، وكان يركب المواوى حصانه ، ويدخل القرى أيام الحصاد ، ويحتفل به الفلاحون احتفالا كريما ، يعطيه اللحظة الفنية المنعشة ، الفن ، ويعطونه المؤونة ، يعيش بها طول العام فهم يعرفون أنه لا صناعة له إلا هذه الوظيفة الاجتماعية السامية . . فنان شعبى . .

وكثيرا ما ينشد المواوى ، فيرد عليه الفلاحون ، بروح أخوية حلوة ، وعلى نفس الموال ، مما تؤكد تمكن السليقة الفنية فى وجدان الشعب .

قال مواوى الفلاح :

امـــــــــدح نـبى زيـن — مـحـمـد ع الخـلايق يشـاشى
اعطينى بطيـــخـــه ولا اثنين — عـدن حـرشـهـا مـا رمـاشى

فرد عليه الفلاح :

أنا راخـــر بامـــدح نبى زين　　　مـحـمـد ع الخـلايق يشـاشى

البطيـخه تجيب قـرش ولا اثنين　　　واللـى زيك مـا يخـدهاشى

وضحك المواوى وقال :

أمـــــدح نـبى زيـن　　　مـحـمـد ع الخـلايق يشـاشى

ربـنا يـرزقك بـفـــأر ولا اثنين　　　ما يخليش حـرش ع الأرض ماشى

ولم يسكت الفلاح :

انا راخـــر بـامـــدح نبى زين　　　مـحـمـد ع الخـلايق يشـاشى

احـنـا عـنـدنا بـدال الـقـط اثـنـين　　　مـا يخليش فـار ع الأرض مـاشى

www.books4all.net

فن المربع هذا . أنشأ به فنانونا الشعبيون «السيرة الهلالية» كاملة ، وأنشدوها بالمزاهر والدفوف ، بألحان هى ذوب الجمال والسحر بما تحتوى عليه من عناصر شتى ، أهمها النزعة الدرامية ، أو اللمسة الروائية فى القول المنغوم ، وعلى الرغم من نفوذ الربابة ، كالموال فى الوجه البحرى ، وانتشار المداحين من أبناء هذا الإقليم ، إلا أن فن الصعيد «المربع» وبخاصة هذه السيرة المنشأة بهذا الفن ، والتى تختلف فى الضرب واللون والأسلوب عن أختها المحكية على الربابة ، له سلطانه وسحره فى كل أقاليم بلادنا .

ولقد وفقنى الله إلى اكتشاف وتدوين هذه السيرة ، بعد أن بذلت من الجهد ما لا طاقة لإنسان به ، وبعد أن وفقنى الله للفنان الشعبى الوحيد الباقى على قيد الحياة من حفاظ السيرة الهلالية . . المنشأة بفن المربع .

الأسطورة الخضراء

على أن إبداع زكريا الحجاوى الأديب ظل يتولى تباعا فى فن القصة ، وله فى ذلك العديد من القصص القصيرة التى صادفت حظها من النشر فى العديد من الصحف والمجلات ، لكنها لم تصادف حظها بعد فى كتاب يجمعها بعد مجموعة «نهر البنفسج»

التى أكدت تألقه وكرست شهرته باعتباره رائدا لفن القصة القصيرة الواقعية على حد شهادة الدكتور يوسف إدريس كما أسلفنا!

وإذا كان زكريا لم يكتب الرواية الطويلة، إلا أنه خاض غمارها عبر كتابته المسلسلات الإذاعية التى كانت تمتد إلى ثلاثين حلقة، وبعضها أكثر من ذلك وكانت مدة إذاعة كل حلقة ما بين ١٥ إلى ٢٥ دقيقة، وبينها ملاعيب شيحة والعقد اللولى وست الملك وأيوب المصرى وسيد درويش وسداح مداح . . الخ .

فى قصة «الأسطورة الخضراء» يستوحى زكريا موضوعها من الملحمة الشعبية المعروفة باسم «ياسين وبهية» التى سبق وعالجها غيره من الباحثين أو الأدباء، لكنه فى هذه القصة القصيرة كان تناوله لهذه الملحمة عبر وعيه بتاريخ الوطنية المصرية ووشائج تواصلها المصيرى بالوطنية السودانية على درب النضال المشترك، إضافة إلى وعيه بالتراث الشعبى فى بيئته وأجوائه الطبيعية وتطويعه إبداعا قصصيا دراميا . . يقول :

على الرغم من السكون الشامل المفروش أمامها على صفحة الماء كالحصير، فإن أنابيب مجوفة كبيرة، تطير فى الفضاء، وتملأ أسماعها بصوت ارتطام كالرعد .

وهى جالسة على الشاطىء، تدمن التطلع من خلال حصير السكون إلى الصورة المنسابة على الماء، تلك التى تنفرد وتنكمش، فلا ترى غير صورة امرأة عجوز، تشد بيديها نواصى العشب، بعظام أصابعها العجفاء، كأنما تود لو اقتلعت الأرض كلها من تحتها، لتقذف بها قصة قديمة فى رأسها، وتحطمها فتستريح . . إلا أن الأنابيب المجوفة الكبيرة، تعود من آن لآخر، فتخرجها عن تفكيرها المتقطع، وتنسيها القصة التى تطن فى خرائب الرأس العجوز . . وتلتفت لترى شيئا فى السماء، فلا ترى، إلا بأذنيها، أصوات الهتاف التى تجسدت كالأنابيب فى الفضاء، وتصغى فلا تستطيع تفسير الكلمات التى تنقض من فوق رأسها كالأنابيب .

وأبصرت مرة أخرى للصورة المفروشة على حصير السكون فرأت شيئا مما يتطاير فى أعماقها قد تراقص على الماء، إنها ترى لهبا أحمر يتطاير على صفحة الماء، وتوجست خيفة، وأحست برعدة عاصفة، ذلك لأنها كانت تشعر بأن كحولا على أهبة الاشتعال يندلع فى كل كيانها، ما الذى نقل هذا الكحول إلى صفحة الماء . .

وغابت الشمس، وتساقط اللون الرمادى على صفحة الماء، وعلى الشاطىء وفى الفضاء واستطال لون الكحول الأحمر فى الفراغ، ثم اختفى وعاود هبوبه وانطفاءه، كأنما هو قشرة عريضة من النار شبت فى غابة من الخيزران . .

وأحاطت بها قوة غريبة، أحست وكأنها أيدى ابنها «ياسين» تنهضها من مكانها إنهاضا، وتدفع بها تتوكأ على ذكرياتها نحو أصوات الأنابيب داخل المدينة، فأطاعت أيدى ابنها الحبيب، الذى قتل وحرمت من التطلع إلى شبابه النضير منذ أكثر من ثلاثين عاما. . آه إن هذه هى القصة التى تلسعها وتوخز بأطرافها جدران جمجمتها من الداخل. . فتغمض رأسها وعينيها، لتنسى زمانها وشبابها وابنها ياسين وحادث مقتله. . وتطيع يديه الدافعتين بها إلى الرعد المتقصف حول أسماعها فى المدينة.

وتلقى بنظرة وهى فى أول مسيرها، على حصير السكون المفروش على صفحة الماء، فنرى امرأة عجوزا تتوكأ على شيخوختها وهى تتأهب للسير فى اتجاه المدينة. .

وتخطو عيناها متثاقلتين من فوق الماء، إلى الشاطىء، ثم إلى الطريق لتتحسس لنفسها طريق الخطو، وتبصر بعد أن لفحتها نسمة باردة، رطبت جسدها وانعشت فيه الحياة هونا ما، وأطلت فإذا بالعشب المنتصب الذى انحنت قاماته كلها تحت سياط النسيم، وكأنه صهوات جياد صغيرة خضراء، تريد اقتلاع نفسها من الأرض فى اهتزازها لتلتقى بهذا الرعد الأخضر المتقصف.

لم تكن مسافة طويلة بين القرية التى تسكنها وبين المدينة، إنها تسكن جزءا من أطراف بورسعيد ساوى بين بيوته الفقر فتشابه بالقرى المنفصلة لتشابه السكن ونوع أعمالهم داخل المدينة، ولكنها مشت فى رأسها زمنا طويلا بتفكيرها المعتل الأشيب، مشت زمنا أعادها إلى أيام صباها، وظلت تمشى فى رأسها من طفولتها التى تذكرها حتى ساعة معينة كبيرة واقفة كالحائط، ساعة سوداء، لا تقوى على تخطيها. .

رأت نفسها «بهية» الفتاة التى تسمع غزل النساء فيها، وهن يقلن عنها أنها فى غنى عن الملاءة، فإنها لو فكت ضفيرتها لغطى شعرها جسدها كله حتى القدم، وأنها صاحبة عينين كفنجانين من شدة اتساعهما وفم كالنبقة. .

والتفتت «بهية» إلى الوراء، ولكن مرآة الماء التى تمنتها، كانت قد بعدت عنها، ونازعتها نفسها العودة، لتبصر فيها من خلال تجاعيدها الراهنة، إلى صباها الباهر ولكن أصوات الأنابيب تجتذبها إلى المدينة اجتذابا لا تستطيع مقاومته.

وآثرت أن تمشى فى رأسها متوكئة على ذكرياتها وهى مغمضة الرأس والعينين والخطوات، ولا يمشى فيها إلا قلبها الذى يستمع إلى حكايتها القديمة، وإلا أذناها التى تستجيب لنداء الأنابيب فى الفضاء. .

ورأت نورا أسود يسطع فى قلبها وأحست بفرحة قديمة كانت قد استبدت بها ذات ليلة، ليلة أن تقدم لخطبتها الجاويش «خير» ضابط نقطة الحدود فى بلدتها فى أعالى الصعيد، أين بلدتها الآن، هل تموت البلاد كما تموت الأولاد.. وتصبح الأمهات ثكالى الأبناء والبلد..

ولكم كان يسعدها أن يطول بها الزمن، حتى تنجب من «خير» أولادا سمرا كأبيهم الذى هاجر من السودان، وعمل بمصر، حتى أصبح جاويشا فى الحدود.. ووهبه الله لها.. كى تلد أولادا سعداء كأختها «فرحة» التى أقامت بالقاهرة، تأكل من بيع كيزان أعقاب السجاير التى يلتقطها أولاد فرحة ليلا ونهارا فى الطرقات.. أو تلد جاويشية صغارا، يركبون الهجن، ويطوقون فى القرى يحمون ضياع الأغنياء من عدوان اللصوص والحرامية، كما يفعل أبوهم..

وتذكر يوم كانت عائدة من الحقل فى المغرب حاملة من حطب القطن فى طريقها إلى القرية، ساعة أن ظهر لها «الهجين» من وراء شجرة «الدوم» وأضاء وجه «خير» من وراء بشرته السمراء، وهو يبتسم ويقول لها كلاما.. إنها تذكره كلمة كلمة.. لقد استبد به الشوق.. وهو يلح فى ساعة الزواج.

مشت فى رأسها، تخطو على أعناق الأيام الماضية، يوما يوما، حتى اصطدمت بالساعة السواء، التى هى كالحائط الكبير الذى يعزل ماضيها البعيد، عن حاضرها الراهن.

وطافت نسمة رمادية حول شعر «بهية» العجوز، هزت الشعرات القصار المخضوبة بالحناء، ولم تشعر إلا وهى تحمل يدها اليمنى المتثاقلة لتردعن عينيها هذه الذكريات المحناة.. وتلف طرحتها السوداء فوقها.

ووقفت فى رأسها عند الحائط الأسود، عند اليوم الذى وقفت أمامها فيه عساكر المقادير، تناصبها العداء والإيذاء والإذلال.

كان ياسين قد كبر وأصبح جاويشا كأبيه فى الحدود، يحنو على والده الشيخ الذى تقاعد وأصبح أمام القرية، ويحنو على أمه التى لا تزال فارعة الصبا، تهب فى البيت كقوة من قوى الرحمة الحانية على «خير» وعلى أولاده الذين يعولهم أخوهم الرحيم القلب، وهى نشيطة تنظف أيامهم ومستقبلهم، وتود لو ظلت ترضعهم من لبانة العطف، حتى تراهم تلاميذ فى مدارس أسيوط كأبناء سراة الأقاليم، خصوصا «ياسين» لا يقتر عليهم

من ماله ولم يعلق بعد بحب ابنه الحلال التى هى من نصيبه فى الغيب، حتى تنشطر ماهيته إلى بيتين إلا أن عساكر المقادير، دهمت أيامها وهى بين يديها تنظفها فمزقتها، مزقت الأيام شر ممزق، إلى الحد الذى لم تعد تذكر منها، لشدة مابها من مزق إلا الدبيب السريع، الذى تحول إلى ركض كركض الخيول فوق أراض من الصخر، عندما هب أبناء قريتها، وأبناء القرى المجاورة، لأسباب لا تعرفها وراحوا يضربون العساكر الإنجليز ضربا لا هوادة فيه ولا رحمة، ويقطعون أسلاك التليفون، ويوقفون القطار، ويفرحون كلما حملوا جثة عسكرى إنجليزى، ويهتفون. . آه، إنها أدركت لماذا لايجذبها صوت الأنابيب فى الفضاء فى هذه الساعة التى تمشى فيها من القرية نحو المدينة إنها تشبه أنابيب الرعد أيام ذلك الزمن القديم، عندما كان أبناء قريتها يحملون جثة العسكرى الإنجليزى، وهم يقولون. . سعد. . سعد. . سعد. . اين راح سعد ومن هو ولماذا كان يكره الإنجليز، وأى فعلة شنعاء تلك التى فعلها الإنجليز بسعد حتى هب من أجله أبناء تلك القرى، للانتقام له. . إنها لا تعرف، ولكنها تذكر، تذكر أصواتا غامضة مبهمة، تندفع فى دمائها اندفاعا، فتحس بأن كحولا ينتفض فى جنباتها ويود لو تطاير فى الفراغ الرمادى. . وجاء دور الحائط الأسود، ذلك اليوم الذى بدأ منه زمانها الحقير الذليل، والذى تسبب لها فى خنق آمالها وأحلامها كلها، وجعل عساكر المقادير ترمى بها فى هذا المكان النائى، تقتات من وراء عمل أولادها فى ميناء بورسعيد. . وكان هذا اليوم البعيد، هو يوم مقتل ولدها «ياسين» ذات ليلة، وهو يتزعم جمعا من جنوده، بعد أن عصيه فى أمره بقية الجنود، وكان العصاة أكثر عددا فاعدموا «ياسين» اغتيالا بالرصاص، وذهبوا ببقية الجنود من زملائه إلى الإنجليز. . ولم تعد تدرى ماذا صنع بهم. .

يا إلهى إن بهية وهى تمشى فى رأسها، لا تحس بلوعة قاسية لمقتل «ياسين» ابنها وحاضن أولادها وزوجها الشيخ، بقدر إحساسها بمرارة النفى، وذلة مرور أبصار الناس من فوق وجهها باحتقار، وكأنهم كانوا جميعا يبصقون بعيونهم على وجهها النضير. . وتذكر كيف أصبحت «بهية» أما لأولاد سودانيين، سودًا، محتقرين فى نظر أبناء قريتها، لأنهم ينتسبون فى اللون لهؤلاء الذين انضموا للإنجليز، واعملوا أسلحتهم رهبة وتقتيلا فى أعناق المصريين من أجل الإنجليز. .

لم تعجب بهية لذلك فى زمانها النضير، وإنما أسعفتها ذكرياتها الآن بالعجب كيف تحكم عليها عساكر المقادير بهذه الذلة، لأنها أم لأبناء سود، فى الوقت الذى انضم فيها ابنها الأسود «ياسين» لأهله وذويه من أبناء القرية من أجل سعد، بل كيف يتهمها الناس بعيونهم اتهامات خسيسة زوجها الأسود «خير» ليس بينه وبين الناس أى فرق أنهم يصلون

جميعا، فى مسجد واحد ويعبدون إلها واحداً، ويسكنون بيوتا متجاورة، ويتكلمون لغة واحدة، وينجبون أولادا، يدخلون مدرسة واحدة، أو يتسولون فى طرقات واحدة، ولم يمتهنها أحد يوم أن تزوجت بخير، ولم ينظر أحد إلى بدعة اللون، أو إلى هذا الفرق الذى تحول إلى جدار عازل كبير بعد أن خان بعض العساكر السودانيين أقاربهم وأصهارهم وأهليهم وانخدعوا لنصرة الإنجليز . .

وفسرت لها هذه الساعات الرمادية أسباب غربتها طول ذلك الزمن الطويل بعد مقتل «ياسين» وأسباب نفيها على الرغم من دبيبها وأبنائها فوق أرض بلاد القتال التى تشبه أرض بورسعيد .

وحاولت بهية أن تنتحى بنفسها بعيدا عن السيارات الداهمة الداخلة والخارجة من المدينة وإليها، وصبت فيها قصتها القديمة نشاطا لم تتعوده منذ أكثر من ثلاثين عاما، فأسرعت الخطى، ورأت نفسها فجأة بين أمواج متلاطمة من جموع الناس، بالقرب من الميناء وأحست بأنها أصبحت أنبوبة من هذه الأنابيب التى تنطلق من أفواه الناس إلى الفضاء المقشعر الخانق، وهم جميعا يهتفون بكلمات لا تعرفها . . الحرية . . مصر . . اخرجوا من بلادنا . . السودان . . السودان . .

آه، إنها نفس الكلمة القديمة التى كانت حائطا كبيرا أسود يفصل ماضيها السعيد عن حاضرها المبتئس الكليل . .

وارتاعت فجأة عندما لمست عيناها عينين بيضاويتين يتلامع فيهما الكحول الأحمر المشتعل فى شرائط من الخيزران وهو يقول لها .

ـ أماه . . ما الذى أتى بك من البيت خارج المدينة . . عودى فإن رصاص الانجليز يحصد الضعفاء . .

ووثب ابنها كقضيب الأبنوس اللين، وانخرط بين الجموع التى تطلق فى الفضاء أنابيب من الرعد . .

وأبصرت بهية وكأنها قد اختلط فى رأسها الحلم بالواقع، إنها ترى صهوات الجياد الخضراء، لأن العشب قد اقتلع نفسه وأصبح بشرا سويا متجها فى صعيد واحد، وقد تحول العشب الأخضر إلى ناس «سود» وناس «سمر» وناس «بيض»، فهم جميعا نسوا الحائط الأسود ونسوا النفى، ونسوا الذلة والهوان . . المصريون من أبناء بحرى وأبناء قراها فى أعالى الصعيد وأقارب زوجها وابنها الصريع من السودانيين، قد توحدوا فى رعد واحد . .

وانتفضت انتفاضة لم تعرف مبعثها، ولكنها أحست بسيول غامرة من الفرح والنشوة، بعد أن انهدم فى رأسها الحائط الأسود الكبير، فاستطاعت بعد ذلك أن تربط ماضيها بحاضرها، وأن تمشى فى رأسها، بروح صبية تلفع ببدنها الهزيل، إلى زمن تبصره أنه الزمن الذى وعد به سعد أمته، ومات من أجل تحقيقه سعد وابنها «ياسين» وزملاؤه السود وأقاربه السمر والبيض وجلست العجوز بين المتدافعين وأصوات الرصاص ترتب لها فى ذهنها شيئا جميلا عذبا. . لم تتبينه وهى تجرى نحو صريع على الطريق. . حمله بعض زملائه من الثائرين. . ويداه متدليتان، وعنقه يسيل دماء وفمه ممتلىء بالرعد يصبه فى الفضاء، إن الميت يؤخر لحظة الموت، ليقتلع من أعماقه هتاف الحرية. . وحياة مصر والسودان.

واقتربت بهية، وقد انتزع الكحول الأحمر نفسه من بين تجاعيد روحها، وتواثب فى الفضاء الرمادى، واختلطت الحقائق فى رأسها، وهجمت بكليتها على أعماقها تختطف نظرة وتنحى الدموع بعيدا عنها، لتسعفها برؤية الصريع الأسمر الذى نسى مصرعه وراح ينادى الحرية. . وما كادت بهية، تمتلىء عيناها برؤيته، وأدركت أنه أحد أولادها السود، وهو ينفث رعدا ودماء من حلقه حتى ترتبت فى ذهنها طلقات الرصاص، مع الرعد مع الشىء الجميل العذب الذى كان يطن فى رأسها. .

وتداخلت الذكريات بالمرئيات بالإعياء فى رأس بهية، ولم تعد ترى إلا «ياسين» وانساق الرعد نحو الرصاص، وانساقت بهية العجوز معهما، وهى ترفع يديها مرتعشتين فى وجه عساكر المقادير، وهى تنشد من أعماقها كلاما، تمنت لو أوقفت الجموع لتفسره لهم.

كانت بهية فى المعركة، عند أسوار الميناء تقول:

يا بهيـــة وخـبـــرينى يا بويا ع اللى جـتـل ياسـين

جـتلوه الـسـودانيـة يا بويـا من فـوق ضـهـر الهــجـين

تمنت بهية إن تقول للجموع إن «السودانية» لم يقتلوا ابنها من فوق ظهر الهجين، وإنما الذى قتله هم هؤلاء الذين يقاتلهم المصريون والسودانية معا. . إنهم الإنجليز وحدهم، بعد أن كان لهم وكلاء من أبناء الوطن فى الزمن القديم.

وارتمت «بهية» إلى جوار السور، وهى مبتهجة بتحديد الثأر. . ليس السودانيين

الخونة، ولا القتلى، وليس المصريون القتلة. . هاهى ترى خير الأسود يؤم البيض والسمر وهم يسبحون لإله واحد، وهاهو ياسين يمتطى صهوة الهجين، يبتسم للبيض والسمر الذين انضووا فى اللهب الكحولى الأحمر مع الرعد الأخضر للانتقام من لون واحد. . هو اللون الأحمر النجس. . ومدت بهية يدها تقتلع عودا من العشب الجاف المتصوح. . وهى تبتسم، وتحسب أنها بذلك إنما تقتلع من أرض الوطن، وإلى الأبد عيدان الخيانة. . إن الخيانة هى وكيلة الوجوه الحمر فى مصر والسودان، . . . آه لقد فهمت أشياء كثيرة. .

وطاف الإعياء والشيخوخة بها دفعة واحدة، وبدأت تتقوض فى ترنحها نحو الأرض، ولكنها أحست بنسمات باردة تهب فى كل كيانها، وماذا لو ماتت، إن ياسين حى ويتزعم هو والشيخ خير معركة الدماء، فى سبيل هذه الرقعة المقدسة. . من بورسعيد حتى أعالى النيل.

هجمة الغيلان فى قطر

إذا تعرضنا لتجربة زكريا الحجاوى وعطائه فترة عمله فى قطر، سوف نكتشف أنه حقق نجاحات مقدرة رغم قصر المدة التى لم تتجاوز عامين، ورغم اختلاف الفنون والتراث الخليجى عنه فى مصر. . سواء بحكم البيئة والعادات واللهجات أو التاريخ المحلى.

وكانت دولة قطر قد تلقفته، عندما بدأت عملية تطوير مجتمعها، وذهب إليها، زكريا الحجاوى حبا فى فنه لا طلبا للمال، وكان هدفه أن يحقق فى قطر ما حققه فى مصر، بعد أن عرف باعه فى الفنون الشعبية بأنه رجلها وفنانها وأديبها.

وعلى الرغم من أن المرض كان يطحنه فإنه قد استطاع أن يؤلف من البراعم الفنية فى قطر «فرقة قطر للفنون الشعبية»، وكانت لوحاتها التى استمدت حركاتها وألوانها من حياة البادية ولياليها بمثابة نجاح فنى سريع طرق كل الأبواب. . واستطاع زكريا الحجاوى بتجواله بين مضارب الخيام، وإقامته مع أهل البادية، أن يعيد صياغة الأغانى البدوية، والأهازيج القبلية قطعا فنية شعبية، وأودعها فى شرائط، وكون بها مكتبة الأغانى الشعبية فى إذاعة قطر، بينما كانت لياليه على شاشة تليفزيون الدوحة مع الفنانين القطريين من الليالى الثقافية الشائقة.

غير أن نجاحه كان وبالا عليه، وكان مؤشر الخطر إلى نهايته، تحرك الرافضون من المنتفعين بتخلف الشعوب، والرفض أصبح فى زمننا منهجا يستعمله أصحابه لمجابهة الناجحين المخلصين ووضعوا فى طريقه كل ما يعرقل حركته الفنية، حتى ييأس ويرحل..

كان الحجاوى مريضا فى القلب وهو ما كان ينكره ويخفيه عن الناس، لكنه بتشجيع خاص من قادة قطر، تحمل ما هو فوق الاحتمال وكان هذا التشجيع يكفيه ويرضيه، وهو استنفد فترة عمله فى البحث والتنقيب وإلقاء المحاضرات حول الفن الشعبى، إلا أنه حقق ما يشبه المعجزة حين كون فرقة الفنون الشعبية القطرية بعد عام واحد من العمل، وأن يقتحم بها المهرجانات الدولية والإقليمية فى ثقة وأن تحقق فوزها بالجائزة والمرتبة الأولى فى مهرجان دول الخليج للفنون الشعبية.

والشاهد أن عناصر معروفة فى أجهزة الإعلام القطرية من غير القطريين تحالفت عليه، لكن أحد شرفاء السودان الشقيق ظل يدافع عنه هجمة الغيلان، وأن يبدد ما قد يكون قد دسه فى حقه بعض المسئولين، وهو أديب السودان الكبير «الطيب الصالح» ومدير الإعلام القطرى آنذاك، فكان بمثابة خط الدفاع الأول عن الحجاوى، إذ كان يعرف مكانته وباعه الثقافى وعمق حسه الفنى وأصالة ذوقه الشعبى.. ولكن الهجمة كانت أشد شراسة، واهتزت مكانة الرجل عند البعض، تارة بالغيرة وتارة بالإيقاع، إذ كان فنه وعطاؤه الثقافى خطرا عليهم فحاصروه، وكان طاقة خلاقه فطوقوه، لكنه لم يستسلم وظل يؤدى رسالته فى قطر حتى الرمق الأخير.

فى ضوء خبرة زكريا الحجاوى بدأت عملية مسح ميدانى شامل للفنون الشعبية القطرية، ومدى امتداد جذورها فى منطقة الخليج، واتضح له أن هذه الفنون ثرية جدا، وعريقة جدا، وأنها مع تأثرها وتأثيرها فى الفنون الشعبية الخليجية، إلا أنها حافظت على طابعها القطرى.

ومن هنا بدأت عملية تسجيل التراث على أحدث التقنيات التى طلبها زكريا ووفرتها الدولة بسخاء، بعد ما وفرت المكان اللائق لعملية التدريب على الرقصات المصاحبة قبل عملية التسجيل بالصوت والصورة التى استغرقت جهدا متصلا ووقتا طويلا، خاصة وأن المرجعيات والحفظة الذين مارسوا وعايشوا الفنون الشعبية القطرية فى أوج ازدهارها كانوا من حيث تقدم المرحلة العمرية والندرة بمثابة الكنز الثقافى الوطنى الذى يفرض الحرص عليه، ثم إن هذا التراث الذى تتناقله الشفاه وتعيه القلوب والذاكرة ليس مكتوبا فى دفات

الكتب، فإذا أضفنا إلى هذه العوامل الموضوعية كون الذاكرة تشيخ ويتهاوى وعيها، من هنا كانت المخاوف من أن تتعرض الفنون الشعبية القطرية تحديدا لعوامل النسيان والتبديل والتحريف، وذلك كان موضع هم زكريا وحرصه على تسريع وتيرة التسجيل، بالتزامن مع تنظيم برامج للمحاضرات والندوات حول الفن الشعبى بصفة عامة. . وحول ما تم جمعه وتحصيله من الفنون الشعبية القطرية تباعا بصفة خاصة، وهى كانت محوراً للعروض المسرحية التى حفلت بالغناء والرقص الشعبى.

فـــن الغـــوص

على أن زكريا الحجاوى أعطى اهتماما خاصا بفن الغوص فى مياه الخليج بحثا عن اللؤلؤ، وهو فن جميل وأصيل توارثته الأجيال منذ زمن بعيد باعتباره فنا من فنون العمل، وهو أول الفنون القطرية فيما يشبه «الحداء»، بل وكان لبعض شعراء العصر الجاهلى باع فى التغنى به، وهو ما فرض على زكريا دراسته بعمق وصولا إلى جذوره وأصوله. . بداية من الكويت، حيث يلتقط مظاهر الشوق والحنين التى تصاحب غياب بحارة الغوص الباحثين عن اللؤلؤ. . يقول:

فى الحياة المدنية، يحدث إذا ما سافرت جماعة من أهلنا، فإنما ننتظر عودتهم ببرقية، وعند نزولهم من القطار أو بالمطار، ركبنا السيارات ونهبنا الطريق نهبا للقائهم. . ودمتم!!

لا، الأمر ليس كذلك فى الحياة الروحانية، حياة الصدور المليئة بالحب والأشواق والتمنى للآخر ما يتمناه الإنسان لنفسه.

والحياة الروحانية ذات التراث فى الكويت، غنية بالخصائص الإنسانية التى تجعل للحياة طعما ومذاقا. .

كانت الفقيرة إذا ما جاءت ليلة زفافها، ذهبت أمها إلى جارتها الغنية، فتعطيها الغنية «طاسة» مليئة بالذهب. . بالحلى الذهبى. . (بالقبقب) الذى هو تاج مرصع باللآلى والجواهر، (بالمريهس) الذى هو عقد كثير سلوك الذهب وسلاسله ودلاياته.

تعطيها أياه. . بلا شاهد أو شاهدة. . بلا إيصال. . بلا عقد مكتوب موثق بمحكمة. .

ما معنى هذه السمة الحضارية. . !

المجتمع الأمين . .

الأمانة . .

انتقاء الصفات المدنية من المجتمع الحضارى . . لا عدوان ولا سرقة ولا ابتزاز ولا تفكير فى ذلك .

كان أهل الكويت، كثيرا ما يسمعون مناديا فى الأسواق ينادى :

«يا من له الضالة» .

«والمارية . . فلوس» .

يعنى يا من ضاع له ما وجد وعرف أنها نقود وأموال فيأتى الذى ضاع له الشىء، ويقول للمنادى، ردا على أسئلته إن عدد المال كذا، وذهب هو أو فضة وموضوع بكيس أو بجزلان صفاته كذا . .

وكأنما الرجل الذى ضاع له المال، لم يفقد شيئا، أو كأنما وقع منه الكيس فى بيته . . وبين أفراد أسرته . . لا عدوان . . ولا اقتناص، ولا سرقة . . وإنما أمان .

أن تعيش بين الناس وأنت آمن . . فأنت تعيش فى مجتمع متحضر . . هؤلاء الناس أجدادنا، الذين كانوا يتعاملون بكلمة شرف ويتعهدون بعد الارتباط بقراءة الفاتحة، إنما هو مجتمع بسيط الشكل، غنى المضمون بالخصائص، وذلك فإن تراثه الفنى، نبع منه مباشرة، شبيها به، بسيطا فى الشكل، غنيا فى المضمون . .

فإذا سافرت جماعة للغوص . . وأصبحت بالنسبة للأهل والولد فى ظنون الغيب . . وعلى ظهر بحر غير مأمون العواقب .

اضطربت القلوب بالأشواق والأرواح باللهفات . . فإذا ما ظهرت أشرعة السفن آتية . . حملت الأشواق واللهفات نساء الجماعة المسافرة . . ووقفت على شاطئ الحب واللؤلؤ . . يتغنين، موجهات العتاب للبحر فى أعذب ما يصاغ الشوق فى كلمات بسيطة صادقة ولنقرأ المعنى قبل أن نعطيك النص المشهور :

«أيها البحر . . أما من توبة»

«ألا تتوب يا بحر عن جذبك للرجال . . وإبعادهم عنا . . »

«أترجعهم أيها البحر . . »

«ألا تخشى الله فينا يا بحر»

«أيتها اللآلئ والجواهر»

«أيتها الأوعية النفيسة التى ذهب بها المحال»

«أما من توبة عن البعد»

«ها هم يقبلون . . »

«فيا يأيها المتزين بالملابس»

«ويا أيها المجل المشتاق فى هيئة الرعاة»

«أربعة شهور مضت على هذا البعد»

«وها هو الخامس قد دخل . . »

«فليعودوا . . »

«أربعة أشهر مضت، والخامس كاد يمضى . . فلتعد الجماعة المسافرة . . فيلم الشمل، ويقعد(صباح) بين قومه . . »

وبعدد النساء يجرى ذكر المسافرين بالاسم، واحدا، فواحدا:

أيتها الشهور الظالمة

هاتى(حسين) من غيوب البحار

هاتى (الرومى)

هاتى . . هاتى . . إلخ . .

وإليك وثيقة التراث:

«توب، توب يا بحر»

«جيبهم . . »

«ما تخاف من الله يا بحر»

«توب . . توب . . »

«يا لجوهرة . . يا للومى»

«توب توب يا بحر . . »

«يا اللبان . . »

«ما تخاف من الله يا بحر . . »

«يا القاز . . يا لراعى . . »

«أربعة والخامس دخل خاطفين . . »

«أبجيهم . . »

«أربعة والخامس دخل . . »

«هات (صباح) العتوب»

«هات حسين من أبحره . . »

«هات الرومى . . »

«أربعة والخامس دخل»

«هات أبونيان . . »

«هات أبو قمباز . . »

«هات . . هات . . إلخ»

هذا هو الفولكلور . . هذا هو التراث هذا هو فن «التراث الحضارى» .

المضمون العميق الرائع ، الملىء بصفات الجماعة وبخصائصها ، عبر عنه أصحابه بالأسلوب البسيط الساذج . .

ومن هنا ، كان سحر الفن الشعبى ، تسمعه الآن ، وعلى بساطته ، يفتح منك مغاليق الروح ، ويستحضر لك كل الأزمنة الغابرة لأهلك ، وحياتهم ، ودعتهم ، وأمانهم وأشواقهم . . فى لحظة .

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

يا نار شبى فيه

وخلال مهمة زكريا الحجاوى فى البحث عن جذور ومفردات الفن الشعبى فى الخليج، أشار إلى دور المرأة فى هذا المجال عبر مقالة له بمجلة «المرشد» تحت عنوان صانعات الفولكلور فى الخليج العربى.. يقول:

أما الفن الشعبى، أى الفولكلور فإن منتجه لا يعرف لا القراءة، ولا الكتابة، ولا البديع، ولا البيان، ولا علوم البلاغة والفصاحة، ومع ذلك فإن الإبداع الذى يتضمنه هذا الفن يفوق الوصف، ولسنا الآن أمام البحث عن السبب فى ذلك، ولكن علينا أن نسوق الدليل على ما نقول.

تصور أمهاتنا، هنا فى الخليج العربى، والمرأة التى لم تتعلم، ولكنها مليئة بالملكات الشعورية الفياضة، تراها وهى تهوم لينام طفلها تراها تستمد من الحنان ومن العطف ومن الأمومه، ومن الفطرة السليمة كلاما إذا ما رحت.. تقارنه بكلام الفصحاء أو المتفاصحين أو على الأقل المتعلمين، لرأيت عجبا، رأيت أن هذا الفن البسيط الذى تغنت به الأمهات «الجاهلات» أمام المجتمع المثقف، هو الفن «الأصيل» الذى تزاحمت بداخله عناصر الجمال، وغطى جمال العطف فيه على جمال الألفاظ، ونسخت بلاغة الحنان فيه بلاغة العبارة، فتصور معى هذه الأغنية الخليجية من أغانى تهويم الطفولة:

هـــالـــولـــو.. هـــا لـــولـــو

يـا بـعـــــــــــد روحـى هـا لـولـو

يـا أمـــــة طلـى عـلـى من ورا الســـــور

وشوفـى خاطرى إيش لون مكسـور ها لولو ها لولو

يـا حـــبـــيـــبى هـــا لولـــو

يـا أمـــــة زرعـت بســـــتـــــان

ورحـــت أخـــايل فـــيــــه

وجم المشــاركـين وشــاركـونى فـيــه

وصكيت باب الـهـوى وقلت يا نار شبى فـيه

هـــا لـــولـــو هـــا لـــولـــو.. وهـــكــذا..!!

ثم يقول زكريا الحجاوى: أنا أقر وأعترف بأن الكناية الرائعة عن جمال المرأة بأنها بستان، وأن هذه الصبية التى تهوم على ولدها لينام وهى تلاغيه، وتناغيه، وتربت عليه مع وحدة وميزان موسيقى اللحن الفطرى الذى صنعته هى من وحى الفطرة، أقرر أنّ هذه الصبية التى تعترف بالكناية أيضا، أنها تزوجت، وإن المشاركين الذين شاركوها فى البستان، هم بالكناية ـ أى الزوج، إن هذه الصبية تعترف، وأنا أيضا أقر وأعترف، بأن أشرف أم تغنى أشرف كلام، وتخلق أشرف جيل بعبارة:

وصكيت باب الهوى وقلت يا نار شبى فيه

أى أن هذه الصبية، كانت تحب، وكان هوى إنسان غير هذا الزوج صاحب النصيب فيها هو الذى يتلاعب بها، ولكنها رغم الحب، ورغم أنف الهوى، ورغم شجون القلب، بعد أن تزوجت، فإنها قد أعطت للزوج حقه، وللزوج شرفه، وللأسرة سمعتها **فقد أغلقت باب الهوى** مهما كان حبا عنيفا غير محتمل، ولتشب فيه النار، ولتحترق **ذكريات ذلك الغرام.. لأن هذا «البستان» ليس لها فيه إلا الذكريات!**

«النصابين» و«الكوتشينة»

ظن زكريا الحجاوى فنان الشعب والناقد الكبير الدكتور لويس عوض أن صديقهما المشترك محمود السعدنى تعمد مع سبق الإصرار والترصد التشهير بهما والحط من قدرهما فى روايته المسرحية الساخرة التى اختار لها عنوان «النصابين».

ثارا وماجا وسط جمهور المتفرجين وأصرا على الانسحاب من مسرح «رويال» بعد نهاية الفصل الأول، لكن السعدنى أغلق أبواب المسرح، وهو يلح عليهما البقاء لمشاهدة الفصل الثانى والثالث من المسرحية، فربما كان لهما موقف مختلف، وهكذا لم يكن ثمة

بد من متابعة العرض حتى نهايته، وعندئذ زال عنهما الغضب والشك رويدا رويدا، وأقبلا على السعدنى يهنئانه على نجاح المسرحية، بعد ما أدركا أن السعدنى كان على عادته فى الدعابة والسخرية لكنه لم يتخل عن الإعجاب بهما ولا بخس دورهما الثقافى المقدر.

كان السعدنى قد أحاط فى المسرحية عبر الحوار والحركة والحبكة الدرامية بالكثير من التفاصيل التى تشى بالسمات الشخصية للحجاوى ود. لويس عوض، دون أن تفوته شاردة ولا واردة من العبارات الجادة والضاحكة وحتى اللزمات التى كانت تميز كل منهما، لا لشىء سوى أن يجسد نقيضيهما من المزيفين والدخلاء والنصابين الذين تسللوا إلى الوسط الثقافى ومؤسساته عهدئذ.

وبينما قام فى المسرحية بدور فنان الشعب النصاب حسن ابن الممثل القديم فؤاد شفيق، كان دور الناقد الأدبى المزيف من نصيب الممثل سعيد أبو بكر، والحق أنهما أبدعا أيما إبداع فى التعبير عن الهدف والمغزى الذى خلصت إليه المسرحية، حتى أن النقاد والصحفيين وجمهور المشاهدين من غير المثقفين راح يتلمس نظيرا أو شبيها لأى من هؤلاء النصابين بين الفنانين والنقاد وقتئذ.

ومن عجب أن زكريا الحجاوى كان يرنو بالمناسبة إلى تأليف كتاب بعنوان «الكوتشينة» يسلط فيه الأضواء الكاشفة على عدد من الشخصيات البارزة فى المجتمع، سبق وصادفها خلال مشوار حياته الثقافية والفنية والسياسية، وحققت لنفسها شهرة واسعة من الاحترام والتألق، بينما كانوا فى حقيقة الأمر من النصابين، والمزيفين والدخلاء، وكان زكريا كثيرا ما يروى لنا عن هذه الشخصيات بشىء من التفاصيل العجيبة لكأننا نعرف بعضهم بالاسم أو هكذا كان يخيل لنا.. وإلى الحد الذى كنا نشتم من سيرتهم غير العطرة ما يشبه الروائح الكريهة.

وأظن أن زكريا أحجم عن وضع كتابه أو تراجع عن نشره وكفاه ما جرى له من ويلات الصدق وضريبة النجاح، فكيف الحال اذن حين يورط نفسه مع هؤلاء النصابين، ومن هنا كان الإبداع القصصى متنفسه فى تعقبهم وكشف عوراتهم.. وكان الله بالسر عليما.

الطيب والمجنون والهايف المزعوم

محمود السعدنى الذى سمع قبلنا عن نية زكريا الحجاوى فى تأليف كتاب «الكوتشينة» ينحو أكثر إلى التفاصيل والإبانة يقول: كتاب «الكوتشينة» الذى كان يحلم به زكريا هو فصول عن شخصيات صادفها فى حياته، فهو قد حصر الشخصيات التى كان ينوى الكتابة عنها وحدد له أسماء الفصول أيضا، فالذئب عن شاعر معاصر شهير وعظيم، وكان بقدر عظمة شعره كان انحطاط الشاعر نفسه، بقدر لمعان أدبه كان سواد قلبه وخبث نواياه.

وقد عانى زكريا الحجاوى من لؤم هذا الشاعر كما عانى أخرون من جيل زكريا لدرجة أن ألمع كاتب ساخر ربما فى قرننا هذا ضاع فى الحياة بسبب مكائد هذا الشاعر وغدره.

أما «العقرب» فهو شاعر وكاتب شهير، شغل الناس والحياة خلال عمره، إذ بالرغم من طيبته كان مصدر ضرر للكثيرين، وكان لسانه كذنب العقرب يلطش الناس لطش عشواء، وكان يذبح أى صديق عزيز له إذا حبكت النكتة، وكثيرا ما كان يندم على ما فعله ولكن بعد فوات الأوان، فهو كالعقرب لا يعض ولكن لسانه يلدغ لانه هكذا وظيفته التى خلق لها فى الحياة.

والشرطى عن أديب كان يعمل فعلا بالشرطة ثم احترف الأدب واشتغل بالوظائف المدنية، ورفعته الظروف إلى منصب كبير كان زكريا يعمل مرءوسًا فى إدارته، ولكن زكريا الفنان الذى كان يخاف الشرطة وأقسام البوليس، ظل يخاف من هذا المدير كأنه طفل عابث يشعر بالخوف تجاه أبيه، أو كأنه مواطن غير صالح يشعر بعدم الطمأنينة إذا صادف شرطيا فى الطريق.

وفى الكتاب فصول أخرى عن الطيب، والمجنون، الضائع، الموهوم، الهايف، المزعوم، ولعلنا خسرنا عملا إبداعيا عظيما لأن زكريا لم ينته من تأليف هذا الكتاب، كان كلما حثه أحد على الشروع فى تأليف الكتاب ـ ورغم أنه بدأ فى التأليف بالفعل ـ وكان يتعلل بأعذار كثيرة، ولكن أهمها هو وقوف القلم فى يده عند شروعه فى كتابة الفصل

الأخير عن «الجوكر» والجوكر هو كارت «الكوتشينة» الذى تضعه فى أى موضع فينسجم، تستخدمه على أى نحو فتحصل من ورائه على المطلوب.

وكان زكريا يقصد أديبًا وشاعرًا، نصف فنان، نصف نصاب، نصف عبقرى، نصف مجنون، وقد مارس كل شىء.. القصة، الرواية، الشعر، وكتابة المقالات، والتمثيل والإخراج، وتستطيع أن تذكره إذا كان الحديث فى أى فرع من هذه الفروع، ولكنك أيضا تستطيع أن تسقطه فلا يحدث خلل على الإطلاق.

أما كتاب زكريا الحجاوى الثانى المفضل، والذى لم يكتب حرفا واحدًا فيه بعنوان «البكور» وهو عن حياته الأولى فى المطرية، وتأثير بحيرة المنزلة على نفسه، وحياته مع الصيادين، أيامه البعيدة المجيدة التى عاشها هناك، وكان يحكى عن شخصيات عظيمة صادفها فى صباه، كان يذكر منهم واحدا اسمه «عبد العزيز السودة» وشيخ من المعلمين وهو الشيخ «السنطورى» وهو رجل نال قسطا من التعليم فى الأزهر، ولكنه اشتغل بفن التواشيح، وبالرغم من أنه لم يشتهر إلا أنه كان عالما بالمقامات والألحان، ولعل الوفاء كان أهم صفات زكريا الحجاوى بعد الفن، فهو لم يتخل عن أصدقائه القدامى، ولم ينس مرابع صباه، ولم يعشق مكانا فى العالم قدر عشقه للمطرية مسقط رأسه، للجيزة حيث عاش بقية حياته، ثم يقول السعدنى ولو صادف زكريا الحجاوى ظروفا حسنة ولو وجد من يستخرج من داخله أصدق خصاله وأنبل مشاعره فلربما كسبنا زعيما شعبيا مثل «عبد الله النديم» ولكن الظروف كانت معاكسة ونبض الحياة فى مصر كان مختلا.

كامل الشناوى و معشوقاته «المنيون»

كان زكريا الحجاوى يعتقد أن الطبيعة حتى لو كانت القبح والفظاظة أجمل أوراق من اصطناع الجمال، الفطرة دون تزويق أو رتوش كانت مبتغاه فى الحياة ومنشودة أشواقه وولعه بالمرأة، وله فى هذا الباع العاطفى العريض عشرات القصص الجميلة وعشرات المغامرات المثيرة والمطبات الوعرة.

وكنت قد نشرت مقالا فى مجلة صباح الخير فى الثمانينات بعنوان «عاشقان للحياة» بمناسبة تزامن ذكرى رحيل زكريا الحجاوى مع ذكرى رحيل الشاعر والكاتب الكبير كامل الشناوى الذى عايشته عن قرب خلال العشر سنوات الأخيرة من حياته، وحاولت المقارنة

بينهما فى المتشابهات سواء فى علاقات العمل والمجتمع والإبداع واكتشاف النوابغ وعشق الليل والمؤانسة، وكذا التناقض العاطفى بينهما حول المرأة المعشوقة ومواصفاتها، وقلت إن زكريا الحجاوى لم يكن يعبأ كثيرا بضرورة توافر مواصفات معينة أو شروط مسبقة فى محبوبته، يكفى أنها أنثى مختلفة التكوين والأحاسيس عن الرجل، وأنها قادرة على جذبه إلى دائرة مغناطيسيتها العاطفية، وأن يتواصل الحب بينهما عبر «الملاغية» والسمر والمؤانسة، وهكذا ظل دوما يبحث عن المرأة التى ترى فيه الرجل الوحيد بين كل الرجال. . بل وسيد الرجال القادر على أن يأتى بما لم يأت به الأوائل.

ولأنه ذاق طعم الزواج، ومشى مشواره فى الحياة وفوق كاهله عائلتان، إثر زواجه بأرملة شقيقه على عادة شهامة الإحلال وسط مجتمع الصيادين فى بحيرة المنزلة، من هنا على ما يبدو أفتى زكريا الحجاوى لنفسه بما يبيح له كفنان حرية الانطلاق العاطفى المشبوب والتجاذب مع الأنثى العفوية المشاعر دون تصنع أو ابتزال!

www.books4all.net

أما أستاذنا كامل الشناوى فكان يقول: «أننى أعانى تناقضا رهيبا فى حياتى، جسد أرهقته الشيخوخة، ومشاعر لم تتجاوز مرحلة الطفولة، وتفكير فى عنفوان الشباب، ليتنى أستطيع أن أتخلص من شيخوخة الجسد وطفولة المشاعر، وأحتفظ بالشباب فى جسدى ومشاعرى وتفكيرى، فالحياة ليست هى الطفولة وليست هى الشيخوخة قطعا. . إن الطفولة مثل الشيخوخة تعثر وطيبة، أما الشباب وحده الحياة. . إنه الطيش و«الانطلاق».

ورغم مقولة كامل الشناوى الشعرية الشهيرة «اشترى الحب فمن يبيع»، إلا أنه ظل يلهث ويعانى فى بحثه عن النموذج الأنثوى الشبيه بمحبوبة الثلاثينات، وهى «فتاة المعادى» الرشيقة النحيلة على النمط الفرنسى «المنيون»، ربما من باب الكراهية لبدانته المفرطة، وهى التى خلع من أجلها رداء «المشايخ». . العمامة والقفطان والكاكولا، توطئة لتحقيق حلم والده الشيخ سيد الشناوى الذى لم يتحقق فى أن يدرس ابنه الأدب بالسربون مثل طه حسين، ولعلها أول أنثى فى شعره العاطفى الرومانسى عبر قصيدة رقيقة وهو لا يزال فتى غض الإيهاب يقول فى مطلعها:

المعـــادى أو نـفـحــــة مـن هــواها

تودع الـنفس فى شــذاهـا الشــجــونا

المعـــادى فــقـــد تـركت فــؤادى

فى ربـاهـا مـــشـــردا مـــجـنـونا

أما زكريا الحجاوى فلم يفصح قولا صريحا فى المرأة، لكن تجاربه وسيرة حياته العاطفية تشى بالكثير.

أذكر أن محمود السعدنى كان له رأى فى مواصفات المرأة التى كانت تستهوى عمنا زكريا.. إذ يقول بأسلوبه الساخر: «راح زكريا الحجاوى يجوب ريف مصر، يقضى لياليه فى أفقر الكفور وأصغر النجوع، خادعا نفسه بالوقوع فى قصص غرامية مع مطربات شعبيات لم يكن لهن صلة بجنس النساء إلا عن طريق الملابس والأسماء، وكان هذا هو رأى الأصدقاء ولكن رأى زكريا يختلف، وعندما كانت الفرصة تسنح له بالحديث عن هؤلاء النسوة، كان يتحدث عنهن باحترام وبنعومة كأنه يتحدث عن «غادة الكاميليا» أو «ماجدولين» أو «جولييت» أو «بثينة» التى خلبت لب الشاعر جميل.

وما دامت المسائل كلها نسبية فإن زكريا كان صادقا فى إحساسه تجاه هؤلاء الماجدولينيات فهو فى النهاية أصدق كاتب ريفى أنجبته مصر.

ثم يضيف قائلا: كان زكريا يصرخ من شدة الوجد كلما رأى فلاحة سمهرية العود تتلوى كالأفعى وهى تخطر فى الملابس السود.

الزواج مع سبق الإصرار والترصد

يوما جاءه صديقه الفنان الكوميدى سعيد أبو بكر ومعه أحد أقربائه يطلب استشارته فى تجربة عاطفية عنيفة ألمت به، وكان قد جاوز الخمسين من عمره، ويشغل وظيفة مرموقة، ويبدو عليه الثراء وأناقة زائدة عن الحد، وسأله زكريا الحجاوى عن محبوبته.

وقال إنها آنسة فاتنة الجمال، وسأله عن سنها وقال: فى العشرين ربيعا!

وعاد يسأله: وهل تحبك؟ قال: أنا أحاول ذلك ولا أمل ولن أتراجع عن المحاولة.. وسأله هل عرضت عليها الزواج؟ قال: نعم.. ولكن بشروطى وليس بشروطها؟ وسأله وما هى شروطك؟ قال: زواجا عرفيا على سنة الله ورسوله!

وسأله ما هى شروطها؟ قال: شقة وفرش وعربية وفلوس فى البنك وموش مهم بعد كده إن كان الزواج رسميًا أو عرفيًا! وسأله وما المطلوب منى إذن؟ قال: جئت أسألك..

هل استمر فى علاقتى معها أم ماذا؟ وفكر زكريا الحجاوى قليلا ثم قال دون تردد : تزوجها بشروطها على بركة الله!

قال : لكنها تحب فلوسى ولا تحبنى؟ وقال زكريا : هذا شرط كاف للزواج بهذه الشابة الفاتنة! قال : من جانبها وليس من جانبى! وسأله : هل تخشى خيانتها لك بعد أن تنال مأربها منك؟ قال : نعم . . قال زكريا : طلقها إذن بمجرد أن تنال منها مأربك و . . انصرف سعيدا بمشورته قانعا بحكمه!

لكن سعيد أبو بكر عاد إلى زكريا الحجاوى محتجا على اقناع قريبه بالوقوع طائعا فى شر أعماله، فقال : لقد اختمر قرار قريبك فى الزواج بهذه الفتاة رغم كل المخاطر التى كان يدركها جيدا قبل أن يستشيرنى فى أمره، وعندما طرحت عليه كم المحاذير وألوان الشكوك فى نوايا محبوبته ظل متمسكا بعلاقته بها، وكل ما فعلته معه أننى أرضيت غروره حتى يخوض التجربة المحكومة عليها بالفشل سلفا، وبمزاجه وليس غصبا عنه . . لقد أوشكت أن أسدى له النصيحة لكنى أدركت عدم جدواها مسبقا ولذلك تراجعت، بمعنى أنه يدرك جيدا عواقب هذه العلاقة من الآن مع سبق الإصرار والترصد بنفسه، ثم متى كانت الفتوى جائرة فى الحب؟ . . وعلى كل حال فإن لديه قلبا شابا بوسعه أن يعوض شيخوخة البدن عبر الملاطفة والحنان والملاغية . . ثم ضحك قائلا : دعه يا سعيد يسعد ولو أيام حتى يحقق ذاته العاطفية بفلوسه . . يا أخى تغور الفلوس اللى ما تسعدش صاحبها . . ده حتى المثل الشعبى بيقول : «الفتوة اللى ما يقدرش على امرأة فى الحرام بيتجوزها فى الحلال» . . الحب يا عزيزى غير المتكافىء ومن طرف واحد كالقضاء المستعجل . . فاللهم لا نسألك رد القضاء وإنما اللطف فيه .

أم كلثوم على كوبرى عباس

إذا كان زكريا الحجاوى قد تزوج لأول مرة زواجا تقليديا، ثم كان زواجه الثانى ـ كما أسلفنا ـ بأرملة شقيقه حتى يرعى شئون أسرته، لكنه ظل عاشقا دوما كالعصفور الطليق خارج قفص الزوجية، وعلى عهدى به أنه كان يهوى الجمال الذى لا ينتمى إلى الشواشى العليا فى المجتمع، وإنما للطبقة الشعبية البسيطة .

ذات أمسية بهيجة كان فى قمة تألقه حين روى لنا وهو الحكاء الذى يأخذ بمجامع السمع والعقل والفؤاد، أنه كان يفكر فى شاغلة من شواغل الحياة وهو يمشى كعادته فوق كوبرى عباس على مهل وقد خفت الجلبة، وكان الوقت شتاء فى الهزيع الأخير من الليل، والأضواء الشاعرية الخافتة تنساب من المصابيح المضاءة بالغاز عهدئذ.. وفجأة اقتربت منه سيارة «بنتللى» فاخرة.. وصوت أنثوى ساحر يناديه من داخلها.. زكريا.. زكريا.

اقتربت أستطلع الأمر فكانت المفاجأة الكبرى.. أم كلثوم.. سلمت عليها مندهشا بحرارة.. سألتنى فى ود: «انت فين أراضيك يا ابو الزيك.. والله لك وحشة بصحيح ومشتاقة خالص أشوفك واتكلم معاك، ولما السواق سأل عليك فى قهوة محمد عبد الله وعرفت إنك بتتمشى زى عوايدك على كوبرى عباس.. قلت اعمل لك مفاجأة.. إيه رأيك نكمل الليلة دى مع بعض؟!

وقال زكريا إنه عجز عن الإجابة حتى عاجلته بالسؤال: اركب يا زكريا مستنى إيه.. قلت لها وأنا أغالب خجلى: مستنى القمر.. فاضل له شوية ويطلع.. قالت: أمال احنا نطلع إيه.. قلت لها: انت قمر ١٤.. بس أنتى عارفه اركب إمتى.. لما تغيرى «الألافرانكا» اللى لبساها.. إذ كانت ترتدى فستانا سواريه وقد تدثرت بجاكيت من الفرو «المنك» الثمين.

عندئذ أدركت بذكائها مبتغاى.. وقالت لسائقها: على الزمالك يا أسطى!

لم أتوقف عن المشى جيئة وذهابا فوق كوبرى عباس، ولا أعلم كم مضى من الوقت حتى عادت السيارة «البنتلى» وأم كلثوم تنادينى وتطلب منى الركوب، وكانت قد غيرت ملابسها «الألافرانكا» وارتدت ثوبا نسائيا ريفيا من «الملس» الفضفاض، وقد تدلى من اذنيها حلق «مخرطة» وطوق جيدها «بنطتطيف» من الذهب البندقى.. بينما يفوح منها عطر شرقى..

كانت أم كلثوم قد تهيأت من حيث المظهر والمخبر الذى يستهوينى وعندئذ ركبت!!!

دهشنا بالطبع لروايته العجيبة وتفاصيلها المثيرة، وباعه العاطفى العريض الذى اقتحم قلب أم كلثوم الحصين، ورحنا نتخيل كيف كانت سهرته الباهرة معها، لكنه قطع علينا الاسترسال فى الخيال وقال ضاحكا: والله العظيم ما حصل، وأدركنا أنه كان يمارس علينا كعادته تدريب عضلاته الإبداعية وإطلاق الحرية لملكات الخيال وإختبار مدى تأثيره كحكاء بارع على مستمعيه، لكنه من حيث لا يقصد، كشف لنا عن النموذج الذى يشتهيه

فى محبوبته المثالية، إذ غالبا فيما بعد أربعينات العمر، ممتلئة الجسم، ترتدى ملابس الطبقة الوسطى أو الشعبية، وفى حاجة إليه حتى يرعاها ويصون عرضها ويروى عطشها الأنثوى.

أنيسة ومحشى الباذنجان

كنت قريبا منه فى كثير من صولاته وجولاته، وكان قد اطمأن إلى جانبى فلم أعد أشى بمغامراته العاطفية لمحمود السعدنى، فهو كان أوفى تلاميذه وأصدقائه، ومنقذه دوما وفى الوقت المناسب من مشكلات عديدة كاد يقع فى شراكها، وكان قد وقع على زكريا الحجاوى اختيار منطقة الجيزة التعليمية لتأليف وإخراج وتلحين أوبريت شعبى احتفالا بالعيد السنوى للمحافظة، ودعانى لحضور البروفات.

كان الجو صيفا وقد خلع الجاكت وراح يدرب الطالبات على رقصات الأوبريت، وكيف تميل النخيل مع هبات النسيم، بجذعها كاملا من أسفل، وليس كفروع الأشجار من أعلى، وبين حين وآخر يفرغ للراحة من العمل، حيث كانت تنتظره مدرسة شابة بكوب من عصير الليمون وفوطة تجفف بها عرقه المتصبب، ويوما بعد يوم أدركت أن هذه المدرسة تنسج شباك الغرام حول زكريا الحجاوى، فلما سألته عن موقفه من التجنيد وهى كانت العبارة المتداولة بيننا للسؤال عن الأحوال العاطفية.. قال: دى يا بو حجاج لابسة بنطلون «هيلنكا» وبلوزة «شابونيز» وقصة شعرها ديل الحصان وأنا زى ما أنت عارف لا يستهوينى سوى المرأة الخام اللى على الفطرة.

وقد كان صادقا بالفعل، حين وقع بعدها فى غرام «أنيسة» وكانت الخياطة التى تحيك ملابس فرقة الفنون الشعبية التابعة للثقافة الجماهيرية إبان رئاسة الكاتب الصحفى سعد كامل لها، وكانت أنيسة بحق كاملة الأوصاف الأنثوية والشعبية التى تجتذب زكريا الحجاوى.

وكان قد صحبنى يوما والمحامى الظريف عباس الأسوانى إلى منزلها فى شبرا، وهناك عرفنا أنها استنجدت به إثر انقطاع التيار الكهربى عن شقتها، واتضح أنها وربما صاحب البيت الذى تسكنه ارتكب مخالفة توصيل التيار الكهربى بطريقة غير مشروعة،

ولم تكن هذه المشكلة بيت القصيد، إذ كان شاغلنا أن نرى ونسمع زكريا وهو متلبس بغرام أنيسة.

خرجت علينا أنيسة تتثنى فى بدانتها وهى ترتدى روبًا من الكستور المشجر، وقد زججت حاجبيها وكحلت عينيها المفنجلتين.. ويا تلتميت مرحبة بالأساتذة الأكابر، ثم راحت تروى مشكلتها بالتفصيل الممل، ووعدناها خيراً.

بعدها دعتنا إلى مائدة عامرة بالطعام كان أبرزها أصابع محشى الباذنجان، ولا أنسى ما حييت كيف غالبت الضحكات، حين شمرت أنيسة عن ساعدها الأيمن البض الذى طوقته عشرات الغوايش الذهبية، ثم أمسكت بأصابعها حبات المحشى الواحدة تلو الأخرى وتضعها تباعا فى فم زكريا.. وكلما قال لها كفاية يا أنيسة.. كانت تلح عليه فى دلال «تعدمنى يا سى زكريا».

بعدها بنحو شهر تقريبا أدركنا أن زكريا سئم أنيسة.. وهو ليس اسمها الحقيقى.. فلم يجد فيها إشراقة الإلهام والإبداع حتى يتوهج الحب ويستمر.. ليقع صريع العشق الملتهب بالمطربة خضرة محمد خضر أعظم اكتشافاته من الأصوات الشعبية المخبوءة.

خضرة وزوجها جزار الجمال

كانت خضرة تنتمى إلى عائلة عريقة من غوازى ريف «سنباط».. مديدة القامة، متينة البنيان، صوتها جهورى بلا ميكروفون، ونفسها طويل طويل، وقدراتها عجيبة على الانتقال بمهارة وسهولة من القرار إلى الجواب والعكس، والأهم من كل ذلك أنها كانت تحفظ من تراث المواويل والمديح والأغانى والملاحم الشعبية ما جعل زكريا يطير بها ولعا وإعجابا، وهو قد أخذ يتعهدها برعايته وتوجيهه وتليين طبعها العشوائى الخشن، وحتى أصبحت بطلة فرقته وزينتها وجوهرتها الثمينة، ومن الإعجاب كان طريقها سالكا إلى قلبه، وتربعت فيه ولم تبرحه، فكانت تناديه بكلمة أستاذ بفتح الألف، إذ ظل يهفو إلى سماع اسمه على شفتيها بدون ألقاب دليلا على الحب والتكافؤ والندية.

لكن المشكلة أن خضرة على ذمة رجل آخر، وزكريا لم يكن يسمح لنفسه بالتعدى على حقوق غيره، ثم إن زوجها جزار شديد البأس يذبح ويسلخ الجمال ويبيع لحومها فى سوق إمبابة، ولا يفارقها كظلها فى حفلاتها وترحالها! ماذا يفعل؟

اقترب زكريا منه، من عقله ومشاعره، ولم يكن صعبا على حنكته وخبراته فى التعامل مع صنوف البشر حتى نال ثقته، فلما جاء التوقيت المناسب قال له : يا معلم أنت مقامك كبير، وطبعا كرامتك تأبى عليك سماع الجمهور وهو يمطر زوجتك بكلمات الغزل والإعجاب بغنائها، وهى فى كل الأحوال تحظى برعايتى كما تعلم مثل بقية سيدات وفتيات الفرقة، ثم إن ملازمتك لها، يمنعها من إطلاق ملكاتها الصوتية التعبير عن شجونها بحرية وصدق. . استجاب الرجل لملاحظته وسمع نصيحته فلم يعد يلازمها.

هكذا خلا الجو لزكريا حتى ينفرد بخضرة، يحاورها وتحاوره، حتى تأكد أنها تحبه ويحبها، ولا مفر من تتويج عواطفها الجياشة بالزواج. . لكن كيف؟

عاد إلى إقناع زوجها على مهل باستحالة أن يجمعه وخضره سقف وأربعة جدران فى غياب الحب، وإذا كان لا يزال على حبه لها، فأولى به أن يضحى بسعادته حتى تواصل مشوارها الفنى وتتألق وتحقق شهرتها، ولابد أنها سوف تعود إليه من جديد لمكافأته على هذه التضحية. . وطلقها جزار الجمال فى حضورها طلاقا بائنا لا رجعة فيه، فلما انقضت فترة العدة تزوجها زكريا الحجاوى فى الحلال والتبات والنبات.

والشاهد أن زكريا كان قد اختفى فجأة عن أنظارنا، وعندما انسل بغتة فى هدوء من منتديات أصدقائه وتلاميذه وحواريه كما لو أنه فص ملح وداب، حتى عائلته الكبيرة ظلت تسأل عنه طوب الأرض وتتقصى أثره فى سلقط وملقط دون جدوى، وقال لى رسام الكاريكاتير طوغان فيما بعد، إن زوجة زكريا لجأت إلى أنور السادات تشكو له غيابه ووعدها بتكثيف جهود الشرطة فى البحث عنه.

والحقيقة أنه لم يخطر على بالنا قط أن يملك زكريا الشجاعة حتى يتشفى من غليل حبه لخضرة بالزواج منها، إذ كان فى نظرنا صرحا إنسانيا وثقافيا شامخًا، وأعترف أنها كانت نظرة برجوازية قاصرة عن فهم فلسفته للجمال الجوانى حتى لو توارى خلف مظاهر الفقر فى أدنى السلم الاجتماعى ما دام على الفطرة.

الزفاف فى شوارع إمبابة

على أى حال طال غياب زكريا الحجاوى نحو شهر أو أكثر حتى ساد بيننا احتمال قيامه كعادته بإحدى جولاته الميدانية للبحث والتنقيب عن الجديد والقديم من الفنون الشعبية، ولابد أنه استطاب له المقام إلى جوار نبع من نبوعه، وأسكرته نشوة الارتشاف من رحيقه قبل أن يعود إلينا كعادته باكتشافاته المدهشة فى متحف الحضارة المصرية، لكن حدث ما لم يكن فى حسبانه ولا حسبانى عندما كنت فى زيارة عابرة لصديقى مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة الهلال «بعدئذ» فى منزله بحى «بين الرايات» وكانت له غرفة خاصة تفضى إلى الحديقة فالشارع، وفى ذلك الزمان كانت هذه الغرفة ملتقى شلة من الأصدقاء المتجانسين لا تمل الحوار وتبادل المعرفة وسماع الموسيقى الكلاسيك، وبينهم الدكتور محمود عبد الفضيل أستاذ الاقتصاد فيما بعد، والأديب الكبير سمير سرحان، والكاتب الصحفى صلاح المراكبى والأديبان وحيد النقاش ونجيب الكيلانى يرحمهما الله، وفجأة تسمرت عيناى عندما شاهدت زكريا الحجاوى من الشباك متأبطا ذراع خضرة فى طريقهما إلى الفيلا، وتواريت فى الداخل لمراقبة ما يجرى عن كثب، حيث خرج الدكتور ياسين عبد الغفار أستاذ امراض الكبد وزوجته شقيقة مصطفى نبيل ووالدته لاستقبالهما على الدرج، ثم صحبهما فى ترحاب وود بالغ إلى الصالون، وعرفت أن الدكتور ياسين كان قد وجه لهما الدعوة للعشاء احتفالا بزواجها الميمون.

وهكذا وصلنى الخبر دون أن أسعى إليه، وذلك إذن هو السبب فى اختفاء زكريا وكما اكتشفت سر غياب زكريا صدفة، كذلك كان اكتشاف تجسيده الحى لعلاقته الحميمة بأجواء الفنون الشعبية وأربابها عبر زواجه بخضرة وزفافه عليها وفقا للتقاليد والطقوس الشعبية حين التقيت مصادفة عام ١٩٨٩ بالفنان التشكيلى صلاح عنانى حيث بادرنى قائلا : أعرف علاقتك بالعم زكريا، وقرأت كل ما كتبته عنه، ولعلى أضيف إلى معلوماتك أننى كنت من المعجبين والمتابعين لنشاطه الثقافى والفنى، وكنت أتردد على سرادقه الرمضانى فى حى الحسين للاستمتاع بعروضه وشروحه للفنون الشعبية، ولأننى كنت من سكان إمبابة، فقد سمعت هيصة وزمبليطة وطبل بلدى وغناء، وعندما خرجت استطلع الأمر، رأيت العم زكريا الحجاوى يرتدى جلبابا من الصوف المقلم، يتدلى حول عنقه شال أبيض من الحرير،

وعلى رأسه طاقية ريفية سوداء وقد لفت بشال آخر من الحرير، بينما تتأبط ذراعه مطربته الشهيرة خضرة محمد خضر وهى فى فستان من الحرير خرج النجف والطرحه الريفية، وحولهما أعضاء فرقته الشعبية يمسكون الشموع والورود ويعزفون على آلاتهم الموسيقية ويطلقون حناجرهم بأغنيات الزفاف، ولم أكن فى حاجة بعد ذلك للسؤال عن الحكاية، فقد أدركت أنهما يمارسان طقوس ليلة الدخلة فى نفس الحى الذى تسكنه العروس!

ويبدو ـ والله أعلم ـ أننى عندما غادرت منزل مصطفى نبيل ونقلت الخبر إلى فنان الكاريكاتير طوغان إذ به ينقله بدوره إلى أسرة زكريا الحجاوى، أو أنها عرفت بزواجه من مصدر آخر، حيث توجهت إلى إمبابة وانتزعته من أحضان خضرة وعادت به إلى بيته، ليظهر فى منتداه الجديد على رصيف الفطاطرى الدمياطى المطل على ميدان الجيزة.

بيدى لا بيد عمرو نقلت الصحافة على لسان زكريا ما يؤكد شائعة زواجه بخضرة بالتزامن مع خبر انفصاله عنها عبر تقاليد الغجر فى سنباط، حين جرح ساعده وساعدها وتفصد منهما الدم، وراحا يمتزجان معا ويسرى فى عروقهما، فلم تعد تجوز زوجة له ولا جاز زوجا لها، وأصبحا كما الأشقاء المتحابين، فلما انقضت عدتها، عادت إلى زوجها السابق جزار الجمال، ولم يكن صعبا على حنكة زكريا ولباقته فى إقناعه مجددا بأنها ظلت معه جسدا بلا روح بينما روحها هائمة به دوما، فكان عليه أن يتنحى حتى يعود الحب إلى مجاريه الطبيعية، لكن على ما يبدو أن كرامة الجزار أبت عليه أن يعيدها إلى عصمته، فعندما راجعت محمود السعدنى حول حقيقة ما حدث، قال إن خضرة بعد زواجها وطلاقها من زكريا على طريقة الغجر تزوجت بعازف شاب فى فرقته الشعبية.

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

اهتزت شجرة الكافور وفاح عطره

على أنه مهما كانت الصدفة عجيبة والخيال مثيرا، إلا أننى لم أتوقع ما حدث أوائل الثمانينات، عندما التقيت بالفنان عبد السلام الشريف وهو يقلب فى الكتب التى يعرضها «الحاج مدبولى» على الرصيف الملاصق لمكتبته بميدان سليمان باشا، واحتضنته وقبلته فى شوق وحب غامر، إذ كان قد غاب عن مصر سنوات للتدريس فى جامعة المدينة بالسعودية بعد إغلاق معهد التذوق الفنى الذى أنشأه وكان عميدا له، وقلت له بلهف : دعنى أشبع منك بقدر غيابك الطويل، ووضعت نفسى وسيارتى فى خدمته، وقمنا بزيارة عدد من

أصدقائه بينهم المخرج والناقد السينمائى أحمد كامل مرسى والمصور السينمائى حسن التلمسانى والفنان الصحفى عبد الغنى أبو العينين، فلما لاحظت ارتعاشا فى يده اليمنى، صحبته على الفور إلى صديقى الدكتور فاروق قوره أستاذ الأمراض العصبية وكتب له العلاج اللازم، ثم جلسنا أخيرا للتفاكر والمؤانسة وتناول الطعام فى مقهى ريش و. . فجأة قال : أظن أن زوجتى الآن فى غاية الانزعاج لغيابى!

ولم يكن ثمة بد من النزول على رغبة عبد السلام الشريف، وتوجهنا إلى فيلته فى نزلة السمان بالهرم، وكانت الساعة السابعة مساء عندما رأيت زوجته واقفة بانتظاره على ناصية الشارع فى حالة يرثى لها، بادرها قائلا : أنا معايا عذرى أهوه. . أصلى التقيت بيوسف اليوم مصادفة. . وذهب معى مشكورا لزيارة العديد من أصدقائى، لكنها أشاحت بوجهها وسحبته إلى الداخل ودخلت وراءه، وجلسنا فى الصالون وقدمت لنا عصير البرتقال، ثم قالت : شوفت المصيبة اللى جرت يا عبد السلام. . ناس عاملين لنا عمل والنهاردة الظهر وقع من شجرة الكافور. . ثم استدعت الخادمة التى فتحت أمامنا لفافة تحتوى على ورقة مطوية تتضمن عبارات مبهمة وخطوطًا متقاطعة وبقايا من رأس طائر لم تتبين كنهه.

تعجبنا للحكاية بعض الوقت وحاولنا أن نهدىء من روعها ونحن نؤكد لها أن الأمر لا يعدو وهماً، كما وأن السحر خرافة لا يقبلها العقل ولا العلم ولا الدين، لكننا فشلنا ومن ثم راحت تفتش فى ذاكرتها عن أعداء للأسرة ربما كان أحدهم قد وضع هذا السحر أعلى شجرة الكافور، عندئذ نظر عبد السلام الشريف إلى ساعته وهو يسأل : النهاردة كام فى الشهر؟ ثم ضحك ضحكة عالية وقال : وجدتها. . الله يرحمك يا زكريا يا حجاوى، وقبل أن نسأله عما وجده طلب أن نقرأ الفاتحة أولا على روح زكريا.

قال : تصوروا النهاردة خمسة ديسمبر ذكرى رحيل زكريا الحجاوى وسادت لحظات من الصمت وهو يشاور نفسه من أين يبدأ؟ حتى عاد يقول لزوجته : فاكرة يا مدام من كام سنة لما جه زكريا يزورنا ومعاه زوجته أم أولاده، وفاكره لما طلب سلم من الجناينى وطلع على شجرة الكافور؟ ويبدو أنها تذكرت ما حدث فقالت : أيوه فاكره بس موش فاكره كان ليه. . قال : ساعتها بقى ربط لفة كانت معاه فى أعلى فرع من شجرة الكافور ثم عاد يضحك وقال : أهى دى يا ستى اللفة إللى وقعت النهاردة بعد ما تحللت الدوبارة اللى كانت ربطاها، فعادت زوجته تسأل : غريبة. . يعنى كنت عارف إنه عامل لنا عمل فى بيتنا وموافق على كده؟

عندئذ فقط راح يفشى سرا مدهشا كان زكريا الحجاوى قد ائتمنه عليه فى ذلك اليوم البعيد.

قال إن زكريا الحجاوى كان قد ادعى الذهول عن نفسه بعد أن أعادته أسرته من بيت خضرة فى إمبابة إلى بيته فى الجيزة، وأنه يكاد لا يصدق زواجه بها، ولابد وأن يكون قد وقع تحت تأثير سحر قوى المفعول، ويبدو أن أسرته صدقت ظنونه، ولأن السحر لا يفله سوى ما هو أقوى منه، من هنا كان استدعاء «كودية» ذات باع وخبرة فى مثل حالته، وبدأت تدق ايقاعات متباينة على الدف، حتى استجاب لاحداها، وعندئذ قالت باطمئنان إن زكريا عليه سيد من أسياد الجن اسمه زعفران ومعمول له عمل سفلى ويحتاج إلى زار مخصوص، حيث راح زكريا يدور ويفقر حول كرسى الزار الذى نصب فى بيته على دقات الدفوف وغناء الكوديا والكورس وإطلاق البخور حتى أغمى عليه ووقع مغشيا على الأرض، وهو فى كل الأحوال يمثل فى اتقان دور الضحية المسلوب الإرادة، لعله يرضى أسرته ويسترد مكانته وهيبته بين أولاده وبناته الذين ينظرون إلى والدهم فى شموخ، وهكذا انتهت اللعبة وقبضت الكوديا الأتعاب بعد أن قدمت له لفافه السحر الواقية ضد الوقوع مجددا فى شباك الجنس اللطيف والعياذ بالله، ثم شددت على ضرورة وضع العمل فى مكان أمين بعيداً عن صنف البنى آدمين.

ليلتها بت سهرانا أستعيد علاقتى الحميمة بزكريا الحجاوى وأيامى السعيدة معه.. وعن سره الدفين، وكيف اختار القدر ذكرى رحيله وكشف عن واحدة من خباياه الدقيقة المثيرة، ثم كتبت عن كل ذلك مقالا فى روز اليوسف بعنوان «واهتزت شجرة الكافور وفاح عطره».. يرحمه الله وأسفا على زمانه الجميل.

سيارة السعدنى فى الترعة

لا أكاد أعرف بين الذين خالطوا زكريا الحجاوى فى حياته أو اقتربوا منه، إلا وكانت لهم معه ذكريات عزيزة لا تنسى كما لو أنها الوشم الذى يصعب محوه، وإنما استعادة مآثره وأحاديثه الممتعة وفصولاته الطريفة.

من هؤلاء صديقنا المشترك المهندس مدحت البيلى، وكنت قد صحبته إليه فى منزله بسوف السمك بالجيزة، وإذا به موضع ترحيبه واهتمامه، حتى إنه استبقاه فى حضرته

عندما كان علىَّ أن أغادر تلبية لأمر عاجل لا أذكره، ومرت أيام حتى التقيت بمدحت البلى، وروى لى أن زكريا الحجاوى اصطحبه معه إلى سهرة تحيبها فرقة الشعبية فى إحدى قرى مركز الحوامدية، وكيف أقنعه بالخطابة فى جمهور الحفل، فلم يجد سوى الحديث فى تخصصه كمهندس معمارى عن الضرورات الصحية والحضارية للفصل فى بيوت الفلاحين بين السكان والماشية من الأغنام والأبقار أو الجاموس والحمير، ثم إذا بزكريا يعقب على حديثه بحكايات من التاريخ الفرعونى حول حرص أجدادنا على أصول النظافة والعناية بصحة المصريين وسلامة الماشية!

أذكر أن الحاج حسن مدير مطبعة روز اليوسف أهدانى عام ١٩٦٢ ثلاث علب من الكروت «البطاقات» التى تحمل اسمى ومهنتى وعنوانى، وحين تسلمتها منه شاكرا كان محمود السعدنى فى انتظارى آنذاك على عجل للحاق بعدد من الأصدقاء على موعد لحضور احتفال قرية «ناهيا» بمحافظة الجيزة بذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يكن ثمة بد إذن من حمل علب البطاقات معى.

هناك كان جمعنا السعيد قد اكتمل تباعا وبينهم الفنان الصحفى حسن فؤاد والكاتب الساخر محمود السعدنى والكاتب المسرحى عبد الرحمن شوقى وهو شقيق زوجته، ورسام الكاريكاتير طوغان، وعباس الأسوانى المحامى والكاتب الصحفى سعد كامل..

تتابعت الفقرات التى قدمتها فرقة الفنون الشعبية، من الغناء إلى المديح إلى العزف على الربابة والسمسمية وسط تهليل الفلاحين وتمايلهم نشوة، وكان زكريا كعادته يقدم الفقرات تباعا ويشرح أصلها وفصلها، ثم يحلو له من باب التنويع دعوة أصدقائه الحاضرين كعادته لالقاء ما يعن لهم من كلمات مناسبة فى هذه الأمسية الدينية البهيجة، وكعادته كذلك كان يقدمهم إلى الجمهور بأوصاف مضخمة ومناصب رفيعة، كما لو أنه أراد أن يشعر الفلاحين بمدى أهمية الأفندية القادمين معه من القاهرة.

وعندما جاء دورى بعد أدوار غيرى من فحول الظرفاء وأساطين المتكلمين، من ثم لجأت إلى الحديث فى موضوع مختلف عن السياسة التى تناولوها بالشرح والتوجيه حيث وقع اختيارى على الذكرى العطرة والمعنى الإيمانى وراء الاحتفال بمولد النبى عليه الصلاة والسلام، وعن دعوته وجهاده فى نشر دعوة الإسلام، وعن تواضعه وصبره على المكاره، ثم عرجت بالحديث عن قرية ناهيا، ودورها النضالى فى التصدى لجحافل الاستعمار الفرنسى والبريطانى، وعن أمارات التقوى التى تعمر قلوب أهلها وتميزهم فى زراعة الخضراوات والصناعات البيئية..

فلما هبطت من فوق خشبة المسرح، فوجئت بزكريا الحجاوى وقد استولى على علب «الكروت» التى تركتها على مقعدى، وراح يدور فى أرجاء الحفل وهو يوزعها بنفسه على الجمهور والمدعوين حتى نفدت عن آخرها، وإذا بى أفاجأ كذلك بمن يسألنى باعتبارى كلامنجى و«صييت» عن الأجر الذى أتقاضاه مقابل إحياء الحفلات، والأكثر مدعاة للدهشة حين وضع فلاح كبير فى السن ورقة كتب عليها عنوانه وموعد إحيائه حفلا فى قرية «صفط اللبن» المجاورة بمناسبة ختان أحد أبنائه.

ذات مساء عام ١٩٦٠ توجهنا مع محمود السعدنى فى سيارته القديمة ماركة "بيبى فورد» لقضاء السهرة بدون موعد لدى صديقه توفيق أبو ترك، وكان فلاحا شهما وابن ليل من سكان قرية العزيزية مركز البدرشين، ولأن السيارة المتعبة بفتح العين ناءت بحملها الثقيل، أو لأن فوانيسها الأمامية كما البنى آدم الضرير، وربما لأننا لم نكن نكف عن المرح والتنكيت، من هنا وجدنا السيارة تمارس رعونتها وتقرر الانتحار ونحن بداخلها، حيث انحرفت عن أحد المدقات الزراعية الضيقة ووقعت بجانبها الأيمن فى الترعة المجاورة.

ماذا بوسعنا نفعل وسط دياجى الليل البهيم وظلامه الحالك، وحتى لو كان الوقت نهارا والشمس فى كبد السماء ماذا نفعل ولا أحد من الركاب يجيد أو يرغب الغوص فى أوحال الترعة لانتشال السيارة من مصيرها المحتوم.

عندئذ قال زكريا : ألمح على البعد نارا موقدة، لعلى آتيكم ببعض الفلاحين حولها جلبا للدفء.. ثم انسل من بيننا دون أن نشعر به ولا رأيناه فى الظلام.. ومضت نصف الساعة أكثر أو أقل لا أتذكر ونحن على حالنا فى حيص وبيص.. حتى سمعنا على البعد همهمة وضحكات مجلجلة.. وإذا بزكريا الحجاوى يهل علينا وبصحبته زهاء عشرة من الفلاحين الأشداء.. وإذا بهم وقد نزلوا نصف عرايا إلى الترعة فى عز الشتاء.. «وهيلا بيلا صلى على النبى» حتى تمكنوا بسواعدهم من رفع السيارة ووضعها على المدق الزراعى فى طريقنا إلى قرية العزيزية.. ولم نكن فى حاجة بالطبع حتى نسأل زكريا الحجاوى كيف أوتى من اللباقة وسحر الحديث وما فى جعبته من كنوز الأمثال والحكم الشعبية حتى كان هؤلاء الفلاحون طوع بنانه ورهن إشارته.

يوما التقيت وزكريا الحجاوى فى مقهى ريش. كان معى صديق سودانى جاء القاهرة للعلاج من مرض خطير اسمه صديق حسن، وهو كان أديبا وشاعرا وسياسيا يساريا، ولم يمض من الوقت سوى القليل حتى وجدته وزكريا يخوضان غمار الحديث عن القواسم الثقافية والوجدانية المشتركة لشعبى وادى النيل، ودون أن أفضى لزكريا بمرض صديقى،

إذ به يهمس فى أذنى قائلا : صديقك مريض وفى حالة اكتئاب شديد . . ويلزم له سهرة إنعاش، ثم سألنى إن كان بوسعى استضافة بعض عناصر فرقته الشعبية لهذا الغرض، فلما أجبته بالموافقة، إذ به يدخل منزلى فى المساء بحى الروضة ومعه عدد من العازفين الشعبيين والمطربة الشعبية فاطمة سرحان والمطرب الشعبى يوسف شتا و . . كانت ليلة لاتنسى من الفرح والحبور!

سجاير «كوتاريللى» مخصوص

كان التدخين متعة زكريا الحجاوى وهوايته الشخصية الوحيدة، وقد ظل يدخن بشراهة واستمتاع لذائذى مثير مستخدما نوعا معينا من السجاير ماركة «كوتاريللى»، وكانت من النوع المبطط وليس «المبروم» كما سجاير هذه الأيام، وعندما خضعت شركة «ماتوسيان» للتأميم قررت وقف إنتاج هذا النوع من السجاير رغم سمعته الواسعة وانتشاره وسط الأوساط الراقية فى أوربا .

عندئذ كاد برج فى نفوخ زكريا الحجاوى يطير ـ على حد قوله، وشعر بحالة من «الخرمان» التى قلبت مزاجه رأسا على عقب . . ماذا يفعل؟

ذهب بنفسه إلى مقر «الشركة الشرقية للدخان» بالجيزة وهو الاسم الجديد لاسم «ماتوسيان» القديم، والتقى بمديرها الاشتراكى الجديد، ورحب به إيما ترحيب عندما قدم له نفسه وهو وسط عشرات العمال فى الشركة من سكان الجيزة الذين يعرفون زكريا، ولم يكن صعبا بعد أن تناول القهوة مع السيد المدير من اقناعه بالاستمرار فى إنتاج السجاير الكوتاريللى، بدعوى إنه يكره السجاير اللف، ولا يستسيغ أن يحول بين مزاجه والدخان عازل أو عزول اسمه «الفلتر» .

وزكريا الحجاوى ظل معظم سنوات حياته يكد ويكدح حتى يوفر لأسرته الكبيرة وسائل العيش الكريم، حتى بالرغم من حصيلة دخله الوفير من إبداعاته الإذاعية كما وكيفا غير مسبوق، إلا أن جولاته الميدانية شرقا وغربا باحثا ومنقبا عن الفنون الشعبية فى المنابع والجذور كانت تستنفد ولا شك جانبا كبيرا من دخله، فلا الدولة ولا أى من المؤسسات الثقافية الأهلية ساهمت فى دعمه ماديا أو مساندته أدبيا، زد على ذلك أن زكريا كان حريصا على مظهره الأنيق، بألوان ملابسه المتناسقة والمنديل الحرير الذى كان

يتدلى دوما من جيب الجاكته العلوى، مما كان يكلفه الشىء الفلانى، فضلا عن دفع طلبات أصدقائه وتلاميذه فى المقاهى والمنتديات أحيانا مما كان يكلفه الشىء الفلانى.

أذكر أنه أقام فى منزله بالجيزة وليمة عشاء من البط والحمام واللحوم والمحاشى والحلويات وغير ذلك من المشاريب احتفاء بمناسبة الإفراج أوائل الستينات من القرن الماضى عن الفنان اليسارى حسن فؤاد وكان معتقلا مع رفاقه الشيوعيين بالواحات، وكان الشاعر كامل الشناوى فى طليعة المدعوين، وربما لذلك كان الطعام والشراب وفيرا بالهبل، وعندئذ قدرت أن كلفة مثل هذا الحفل ينوء بها دخل زكريا، ووضعت فى جيبه ما تيسر من النقود فى هدوء، لكنه رد المبلغ وهو يربت على كتفى قائلا : تعيش يا بوحجاج . . الجيب عمران اليومين دول والحمد لله.

على غرار تلك الوليمة الفاخرة كانت دعوته لنا احتفاء بالشيخ زكريا أحمد، وكان من بين المدعوين أساطين المحدثين وقتئذ، أذكر بينهم السعدنى وقطامش وعباس الأسوانى، ومن عجب أن ينفرد زكريا أحمد وحده بالحديث فى تلك الليلة السعيدة دون منافس حتى الصباح، ولمَ لا وكان يروى حكاياته المثيرة عن أم كلثوم وأسباب خلافه معها، وعن ذكرياته الجميلَة مع الشيخ سيد درويش ودوره فى الارتقاء بالغناء الشرقى!

ثم أذكر بالمناسبة عندما التقيت به مصادفة فى مبنى الإذاعة القديم بشارع الشريفين عام ١٩٦٢، وإذا به يشدد على ضرورة اللقاء بعد أن أفرغ من لقائى مع أحمد سعيد مدير إذاعة صوت العرب حيث كنت أقدم فقرات متنوعة من الشئون العربية، وإذا به يحدد مطعم الحاتى القديم مكانا للقاء وذهبت إليه، وكان قد طلب كمًا هائلاً من الكباب والنيفة. . ثم إذا به يدس فى جيب «الجاكيت» خمسة وعشرين جنيها بالكمال والتمام، ثم لم ينتظر أن أساله عن السبب. . قال : أصلى لسه قابض ثمن مسلسل «سعد اليتيم» من الإذاعة ورفض بشدة كل محاولاتى لإعادة المبلغ.

ولأنه كريم تحدوه الكرامة والخجل المفرط، من هنا لم يكن يلجأ إلى «السلف» أو الاقتراض إلا ممن يستحق هذا الشرف بين أصدقائه وتلاميذه المخلصين، فقد يتأخر فى السداد قليلا أو كثيرا من الوقت، وقد تعاكسه تصاريف أحواله فلا يرد المبلغ باعتبار أن «المليان يكب فى الفاضى» ولا فرق.

كان زكريا حين تضطره الحاجة الماسة إلى المال، لا يؤخر ولا يقدم على استحياء أعذاراً أو سببا وجيها للاقتراض من أصدقائه المقربين، كما لا يسأل كالعادة أولا «معاك كام»؟

وإنما يهمس فى ود وعشم قائلا «حط فى جيبى كذا من النقود»، لكن أحيانا ما يكتشف خطأه فى تقدير شهامة البعض. . وأن هذا البعض رغم ثرائه أو بحبوحة دخله نذل وبخيل أشر، وعندئذ لم يكن يعيد عليه السؤال مرة أخرى دون أن يفسد للود قضية، ومع ذلك لم يكن يفكر طويلا فى حاله وحال أسرته إذا ما وجد صديقا فى شدة أو صاحب موهبة قست عليه الظروف، وعندئذ يمد إليه يد الجود بالموجود.

وربما كانت ذكرياتى حول علاقة زكريا بالمال، مدعاة لاستعادة ذكرياتى ـ بالمناسبة ـ حول نجم هادىء شديد الخجل والتواضع بين نجوم قهوة محمد عبد الله المتألقين، كانت الشهامة أبرز صفاته الريفية الأصيلة فلم يكن يتوانى تلقائيا عن مساعدة زكريا الحجاوى وهو الأديب محمود شعبان الذى كتب عنه محمود السعدنى تحت عنوان «الفلاح» فصلا كاملا فى كتابه «مسافر على الرصيف»:

محنة أنور المعداوى

يقول محمود السعدنى: إذا كان أنور المعداوى هو النموذج الأفضل فى قهوة عبد الله، فزكريا الحجاوى هو الفنان، وقطامش هو المتكلم وعبد القادر القط هو الطبيب، فالأستاذ محمود شعبان هو الفلاح، هو فلاح حقيقى وأصيل وبدون إدعاء وهو الوحيد الذى كان يعرف العيب ويتمسك حقا بأخلاق القرية.

ومحمود شعبان فى الأدب ربما لم يترك الأثر الذى يخلده على مر الزمان، ولكنه كنموذج إنسانى سيحتل مكانة فى الصدارة وسيكون مثلا ينبغى أن يحتذى.

قصة محمود شعبان هى تطبيق للمثل المصرى الشعبى «الدنيا متديش عايز» ولما كان محمود شعبان «مش عايز» أى شىء فقد أعطته الدنيا كل شىء. أصبح أديبا ولم يكن يريد ذلك، وحصل على الشهرة ولم يكن يسعى إليها، أصبح يملك المال ولم يكن فى لهفة إليه.

وهو أصبح ثريا عن طريق لم يكن يتعمده، ففى الخمسينات من هذا القرن كتب محمود شعبان قصة طويلة بعنوان «زهرة من الجزائر» ولم يلتفت إليها النقاد ولم يكتب عنها أحد، ولكن وزارة التربية والتعليم رأت أنها قصة ممتازة وتستحق أن تعمم على طلبة

الثانوية العامة . واشترت الوزارة حق طبع عدة ملايين من قصة محمود شعبان ليصبح ثريا خلال أربع سنوات .

اشترى شعبان الفلاح قطعة أرض صغيرة فى قريته وشيد بيتا جميلا فى مصر الجديدة واشترى أسطولا صغيرا من سيارات الركوب ، وصار له دخل محترم وحقق ما يكفى لاستقراره وسعادته معا ، ولكنه لم يتغير ، بل ولم يغير عادة واحدة من عاداته ولم يتنكر لصديق من أصدقاء الماضى ولم يتخل عن صديق فى محنته ولم يتخل عن مساعدة صديق فى حاجة إليه .

موقف محمود شعبان من أنور المعداوى فى محنته يجب أن يروى لتتعلم الأجيال الجديدة أن الحياة فى أحلك فتراتها كانت تشع بالنور رغم العتمة ، وتنضح خيرا رغم الشر الذى كان يعشش فى أركانها .

فعندما أطاح «س» يوما بالمرحوم أنور المعداوى وفصله من وظيفته وأراد أن يركع عن طريق التجويع ، كان محمود شعبان هو السبب فى صمود أنور المعداوى وبفضله لم يستسلم أنور المعداوى ولم يركع ، فقد ظل محمود شعبان يصرف مرتب أنور المعداوى كاملا خلال السنوات الثلاث التى توقفت فيها وزارة التربية عن صرف مرتبه ، وفى أول كل شهر كان أنور المعداوى يتسلم ٤٦ جنيها و٨٣ قرشا بالتمام والكمال ولم يعرف هذا التصرف إلا قلة ضيقة من الأصدقاء ، ولم يصل السر إلى هؤلاء الأصدقاء عن طريق شعبان ، ولكن أنور المعداوى هو الذى أذاع السر لهم ، ولم يكن فضل شعبان مقصورا على صرف النقود فقط ، ولكن الفضل كان فى شجاعته فى وقت بدأ فيه الأصدقاء يهربون من أنور المعداوى ويتحاشون الظهور معه فى أماكن عامة ، فأنور المعداوى كان مفصولا من السلطة ومراقبا أيضا وكان هو نفسه شديد النقمة على الأوضاع فى مصر عموما وعلى الأوضاع فى الحقل الأدبى على وجه الخصوص ، ولم يكن يخفى غضبه أو ثورته وأحيانا كان يتعمد إعلان رأيه عندما يشعر بأن العيون تلاحقه والآذان تحيط به فى المكان الذى يجلس فيه ، ولذلك آثر بعض الأصدقاء أن يبتعدوا عن طريقه وانشغل البعض الآخر بأعماله أو تظاهر بالانشغال إيثارا للسلامة وطلبا للأمان ، ولكن شعبان الفلاح لم يتخلف يوما عن حضور مجلس أنور المعداوى فى قهوة عبد الله ولم يتخلف شهرا عن دفع مرتبه ولم يتوان لحظة عن توفير احتياجات أنور المعداوى ودون أن يذكر ذلك مرة واحدة لأحد ، ونفس ذلك اتخذه مع أكثر من صديق . . مع زكريا الحجاوى وآخرين لا داعى لذكر الأسماء لأنهم لا يزالون على قيد الحياة ، وأغرب شىء أن شعبان لم يكن له وجهة نظر

محددة فى السياسة ولكنه كان يقف إلى جانب كل مضطهد من أى اتجاه، كان يساند الاشتراكى واليمينى والتقدمى طالما أنه فى محنة ويعانى بسبب ما يعتقده من آراء، ونادرا ما كنت ترى شعبان فى فترات صفوك ولكن المؤكد إنك ستراه إلى جانبك فى لحظات الضيق!

كان فى الإذاعة فى فترة الستينات مخرج مزعج للغاية وكان مرتشيا وتدهور به الحال إلى حد فرض الاتاوات، وبالتأكيد كان شعبان أحد ضحاياه، فابتعد شعبان عن التعاون مع الإذاعة فترة، ولكن بعد أن فصلوا المخرج من عمله لم يتخلف شعبان عن زيارة المخرج فى منزله مرة كل أسبوع حاملا معه كل ما تستطيع يداه حمله من الطيبات، وكان يخصص للمخرج المزعج إياه مبلغا معينا من المال كل شهر يعينه على مواجهة أعباء الحياة، ولا يعرف غير عدد قليل من الأصدقاء إن محمود شعبان أنفق مبالغ كبيرة من ماله الخاص لطبع الإنتاج الأول لكتاب ناشئين لا تعترف بهم دور النشر.

بائعة الدندورما

تلك بعض من شهادة محمود السعدنى على محمود شعبان، ولعلها المدخل المناسب لموقف شهم كان قد بادر إليه لانقاذ زكريا الحجاوى من إحدى ورطاته المالية، دون علمه فى حينه ولا علم غيره من الأصدقاء.

كانت امرأة بنت بلد فى الخامسة والأربعين عاما تبيع «سندويتشات» الفول والطعمية للمترددين فى النهار على مستشفى «الانكلستوما» وهو مركز ضخم لطب العيون بالجيزة يقع على مقربة من كوبرى عباس، ثم تبيع «الدندورمه» عندما يأتى المساء للمارة والمتنزهين على الكورنيش.

وعلى ما يبدو أنها كانت تصوب من مكانها نظرات الوله والإعجاب بزكريا الحجاوى عندما كان يطيب له الجلوس ولقاء أصدقائه وتلاميذه على رصيف الفطاطرى الدمياطى إثر هدم قهوة محمد عبد الله، وكان صاحب المحل وأولاده من المحاسيب والدراويش المتيمين بزكريا.

على أى حال فقد رأى زكريا ـ كما قال لنا بعد ـ ألا يكسر خاطرها وإنما يجبر

بخاطرها عبر رد النظرات والسلامات عن بعد بأفضل منها، وحتى تجرأت يوما على السلام عليه يدا بيد والحديث معه مباشرة حول شواغلها وهمومها . .

يوما لاحظت عليه أمارات الضيق والحزن الشديد، وألحت عليه أن يفضفض لها كما تفضفض له، وصارحها بأنه يواجه ظروفا طارئة تحتاج لانفراجها إلى ٣٠٠جنيه وهو مبلغ كبير عهدئذ فى الوقت الذى كان مرتبنا آنذاك لا يتجاوز ٣٠جنيها، ولم يمض من الوقت كثير حتى عادت إليه بالمبلغ المطلوب .

وكانت قد خلعت بعض الغوايش الذهبية التى تطوق بها ساعدها، وباعتها لدى أحد محلات الصاغة بشارع عباس فى الجيزة .

على أن ظروف زكريا المالية المتعثرة كانت عنوانا للمثل القائل «إن المصائب لا تأتى فرادى» . . سواء عبر الشروع فى هدم منزله وسواء لأن الإذاعة تلقت على ما يبدو إشارات فوقية بوقف التعامل معه، بل والامتناع عن إذاعة إبداعاته المسجلة من التمثيليات والمسلسلات دون أدنى سبب أو مبرر .

وحتى اليوم لا زكريا عرف ولا نحن كذلك كيف أدرك محمود شعبان مأزق زكريا وكان آنذاك «مدير مركز القرية» وزميله فى وزارة الثقافة، وكيف ومتى التقى ببائعة السندويتشات والدندورمة وسدد لها المبلغ كاملا على داير مليم . . ولا من شاف ولا من درى!

إتخرب بيتى واللى كان كان

كان الفريق سليمان عزت قائد القوات البحرية من عشاق الكلمانجى الظريف محمود السعدنى وأدبه ومقالاته الصحفية الساخرة، فضلا عن إعجابه بموقفه الكروى المؤازر لنوادى المحافظات والشركات على خلاف الصحف القومية التى كانت تفرد صفحاتها لنوادى العاصمة مثل الأهلى والزمالك والترسانة، خاصة وأن الفريق سليمان كان رئيسا لنادى الأولمبى السكندرى .

أتذكر يوما كنا فى صحبته بدعوة منه على الغداء فى نادى اليخت بالاسكندرية وراح

يسأل السعدنى أن يحدثه عن صديقه وأستاذه زكريا الحجاوى الذى طالما أشاد فى مقالاته بفضله وعلاقته الحميمة به وكيف نذر حياته للفن الشعبى، وبعدها أبدى شوقه الشديد للقاء زكريا ودعانا لصحبته إلى الإسكندرية والإقامة الكاملة «فول بورد» على نفقته الخاصة للاحتفال معه بعيد رأس السنة.

كان ذلك شتاء عام ١٩٦٣، حين تواعدنا وزكريا الحجاوى على اللقاء فى كازينو «صان صوصيه» فلما أخلف زكريا موعده ذهبت إليه فى منزله بسوق السمك بالجيزة لحثه على سرعة الاستعداد للسفر إلى الإسكندرية!

فتحت لى الباب ابنته سوزان وربما نعمات لا أذكر تحديدا، الذى أذكره جيدا أنها كانت تغالب دموعها، ودخلت الصالون ووجدت زكريا يرتدى جلبابا وحوله زوجته وابنه أسامة وبناته وهم فى حالة من الوجوم وكرب لم أعهده من قبل فى هذه الأسرة السعيدة.

بادرته قائلا : كل سنة وانت طيب يا عم زكريا..

موش باين عليها طيبة.. من أولها نكد.. اتخرب بيتى واللى كان كان.. ثم مد يده بورقة توحى من حيث الخطوط والاختام بأنها حكومية وقرأتها على مهل، وكانت تنطوى بالفعل على مصيبة.. إنذار من مصلحة التنظيم بإزالة المنزل الذى يسكنه زكريا رقم ٩ شارع الحكيم بالجيزة من الوجود بدعوى أنه آيل للسقوط..

ولا أدرى لماذا شعرت فجأة أن بنيان المنزل يكاد يتصدع وعلى وشك الإنهيار فوق رءوسنا، فلم يكن بوسعى والحال كذلك سوى اقتناع عمنا زكريا بالبعد ولو لفترة من الوقت عن البيت وأحزانه حتى يستطيع ونحن معه التفكير بهدوء عن مخرج للكارثة، وقلت له من باب المواساة ورفع روحه المعنوية إن أسرتى سبق وتعرضت لمثل هذا المأزق مما أضطرها لمغادرة منزلها الكبير وكان من ثلاثة طوابق، وسكنى شقة كبيرة بخلو رجل فى نفس حى الروضة.

حتى نجحت فى إقناعه بمغادرة منزله ولقاء محمود السعدنى الذى ينتظرنا فى «صان صوصيه»، فلما سمع الخبر أبدى على الفور استعداده للتوسط لدى صديقه عثمان أحمد عثمان رئيس شركة المقاولون العرب آنذاك حتى يوفر له السكن البديل..

لكن زكريا أصر على الاعتذار عن السفر.. إذ كيف يتأتى له الاستجمام والسعادة بينما أسرته حزينة، ثم إنها فى حاجة ماسة إلى المال، ولأنى أحب زكريا وأدرك أن الرحلة

لن تكون سعيدة بدونه، كما وأننا مدعوون من الفريق سليمان عزت على شرفه، من هنا وضعت فى جيب جاكت زكريا ٢٥ جنيها عدا ونقدا، وهو نصف المبلغ الذى كان معى.

زكريا عندما أحس بيدى فى جيبه، أخرج المبلغ، فلما اكتشف أنه ٢٥ جنيها عندئذ أطلق زفرة غضب من صدره وقال موجها حديثه لمحمود السعدنى: تصور يوسف عاوزنى اطلع اسكندرية بخمسة وعشرين جنيها؟ عندئذ حبكت النكتة مع محمود السعدنى وقال ساخرا: أمال انت بتطلع اسكندرية بكام اليومين دول يا زكريا عشان نجيب لك زباين؟

ولأن زكريا لم يضحك للنكتة على غير عادته، ولأنه تخلى عن صحبتنا، وبات علينا السفر إلى الاسكندرية بدونه، ربما من هنا انتابنى شعور غامض فى تلك اللحظات بأن زمان السعادة والحبور ومؤانسة الصحبة الحلوة قد أوشك على نهايته إلى غير رجعة، وأن العام الجديد ينذر بالمستخبى من النكبات وفراقة الأحباب، وكان إحساسى صادقًا كما لو أنه نبوءة، فقد اعتقل السعدنى فى أحداث ١٥ مايو ١٩٧١، وارتحل الشاعر عبد الرحمن الخميسى إلى العراق، بينما غيب الموت عباس الأسوانى المحامى والشيخ عبد الحميد قطامش.

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

أصوات النجفة تبطل الصفقة

لم يعد زكريا الحجاوى الذى عرفناه وألفناه منذ بات البحث سريعا عن سكن جديد لأسرته، إثر القرار الصادر من مصلحة التنظيم بهدم منزله القديم الذى شهد فترات سعيدة من حياته، وبينها خلفة ابنه وبناته، وذكرياته الحميمة مع جيرانه ومعارفه بالجيزة، وأشهد أنه كان بينهم علم كبير مرفوع الرأس، وكم كان يتوقف تباعا فى مشواره القصير من شارع الحكيم وصولا إلى قهوة محمد عبد الله، هذا يصافحه بحرارة وذاك يعزم عليه بواحد شاى أو عصير قصب.. وكثيرا ما كان يستمع إلى من يشكو إليه زوجته أو أولاده، وربما بطالته عن العمل، وكان على زكريا وسط تلك الحفاوة اليومية أن يعطى العزيز من فكره ووقته وحكمته ما يسهم فى البحث عن الحلول لتلك المشكلات وربما مجرد إسداء النصح ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

هكذا سرقت أزمة السكن من زكريا ابتسامة الرضا والقبول بأحوال البشر وتقلبات

الحيـاة، فكان دائمـا فى حالـة تفكير وسـرحان، بل وخـيل لى أنه تقـدم فى العـمر عـشر سنوات وربما أكثر، ولاحظت ولأول مرة ما يشبه الدوائر الداكنة حول عينيه، وأنه وهو المشهـود لــه بالحيوية والنشاط وقد تصبب عرقا وتلاحقت أنفاسه بعد مجهود بسيط، حتى عرفنا بعد ذلك معاناته لمشكلات فى القلب دون أن يفصح عن مرضه أو يثقل على أحد!

وكان محمود السعدنى قد أوفى بوعده وتوسط لدى عثمان أحمد عثمان فى حل مشكلة زكريا، وتكرم بتوفير شقة خاصة له لا يتجاوز إيجارها الشهرى ١٥ جنيها، لكن عندمـا ذهب زكـريا لمعاينتهـا اكتـشف أنها فى أطراف نائية بعيـدة عن القاهرة وهى التى يعشقـها عشق السمك للماء، والأدهى والأمر أنها ضيقة ومخصصة أساسا لمحدودى الدخل، ولا تضم سوى غرفـتين نوم وصالة فحسب، ولم يكن بوسعه قبولها وأسرته الكبيرة تحتاج إلى شقة واسعة ضعف مساحة المعروضة عليه، ومن ثم بعث بطاقته إلى عثمان أحمد عثمان وقد كتب خلفها «شكر الله سعيكم».

لم أكن وغيـرى من المخلصين من أصـدقائه وتلاميذه نتوانى يوما عن لقـاء زكريا فى منزله أو خارجه حتى نشد من أزره ونخفف عنه بلواه، دون أن يتفتق تفكيرنا عن حلول للأزمة، وفى خلوة جمعتنا سويا عرضت عليه أن يطلب مقابلة السادات، ولابد عبر نفوذه أن يبادر لانقاذه من ورطته باعتباره عضو مجلس سابق لثورة يوليو، والرئيس الحالى لمجلس الأمة، لكن زكريا رفض مجرد مناقشة الفكرة.

بعدها قلت لزكريا : وجدتها؟

ـ ماذا وجدت؟

الحل الحاسم للأزمة.

ـ كيف؟

الحل بيدك.. فى بيتك.. فى النجفة!

ـ نجف إيه يا مجنون.. متفهمنى؟.. الحكاية جد ولا هزار؟

وقلت له: لعلك تعلم أننى على شىء من الخبرة بالانتيكات «التحف»، وقد دخلت بيتك لأول مرة ومن يومها وعينى مبهورة بالنجفة إللى فى الصالون.. دى بقى يا عم زكريا ثروة فى حد ذاتها.. يعنى لو وافقت على بيعها ربما وفرنا المبلغ المطلوب لدفع خلو

رجل شقة واسعة فى عمارة قديمة جنب بيتى فى حى الروضة . . وهو موش بعيد عن الجيزة .

قال زكريا فى تحفظ : إيدى على كتفك . . أنا مفوض الأمر لك!

وهكذا فى صفحة الإعلانات المبوبة فى صحيفة الأهرام كان العرض جذابا ومثيرا للبيع «نجفة تركى قديمة فاخرة تليق بعظيم، تحتوى على عشرة أذرع كريستال «بكاراه» وفنايز حمراء بوهيمى بالأجراس والعصافير الكريستال «التييه» الموشاة بخطوط ذهبية . . والسماسرة يمتنعون «تليفون رقم . . »!

فما إن صدرت الأهرام فى الصباح حتى انهالت المكالمات التليفونية تسأل عن العنوان أو تتأكد من صحة مواصفات النجفة وعنوانها، فيما كنت حاضرا مبكرا فى شقة زكريا الحجاوى لمقابلة الراغبين فى المعاينة أو الشراء، بينما فضل أن يتوارى فى غرفة النوم خشية أن يتعرف عليه أحد بانتظار النتيجة .

فى التاسعة صباحا على ما أذكر وصل تاجر تحف معروف فى شارع هدى شعراوى اسمه محروس، مديد القامة يرتدى بالطو فوق الجلابية ولاحظت أنه فقد إحدى عينيه، لكن ما إن رأى النجفة حتى سألنى فى لهفه بلغة السوق : مهر العروسة دى كام؟

وقلت له فى ثقة زائدة: لعلك قرأت فى الإعلان عبارة «السماسرة يمتنعون» والمبلغ النهائى يا معلم ثلاثة آلاف جنيه عدا ونقدا، والمدهش أنه وافق من دون مساومة حيث أخرج من حقيبته المبلغ رزما مالية ممهورة بختم البنك .

دخلت على الحجاوى غرفة نومه أزف إليه الخبر السعيد ووضعت أمامه المبلغ الذى دفعه التاجر وتهلل فرحا وهو لا يصدق ما حدث ثم ربت على كتفى قائلا : براوة عليك يا بو حجاج . . ماخبيش عليك افتكرت الحكاية مقلب من مقالبك إياها!

بعدها اعتلى التاجر «ترابيزه» الصالون وبدأ فى تفكيك النجفة حتى تلامست قطع الكريستال الأصيل بعضها ببعض صادحة فى أرجاء الشقة برنينها الموسيقى الجميل كما لو أنه لحن الزفاف إلى صاحبها الجديد ووداع صاحبها القديم .

عندئذ فوجئنا بزكريا الحجاوى يفتح الباب ويقتحم الصالون ويشد التاجر من ثيابه وهو يردد فى هيستيرية «يفتح الله . . موش بايع . . موش بايع . . حد يبيع أصله وتاريخه

وذكرياته يا عالم»؟ . . . ونزل التاجر من «الترابيزه» فى دهشة وهو يستفسر عن الأمر وكأن عقربا لدغته .

وكان الحجاوى قد هدأ من روعه وراح يعتذر للتاجر فى ود وبشاشة عن عدم اتمام الصفقة بدعوى أنه ورث النجفة عن والده وجدوده، وأنها صاحبته منذ طفولته عندما كانت تضاء بالشموع، فكيف يفرط إذن فى صحبتها وهى تضاء منذ شبابه بالكهرباء . . وهكذا لم تتم الصفقة وفشل مسعاى بالتالى فى إنقاذه من ورطته .

فى خان الخليلى

غاب زكريا عنا وغبنا عنه بعد أن أعيانا البحث عن حل لمشكلته، وكلما سألنا أسرته عنه كانت تدعى سفره إلى المطرية، ومرت أسابيع حتى لمحته من داخل بازار صديقى الحاج سيد المليجى تاجر المشغولات النحاسية وكان يمشى الهوينى فى دروب خان الخليلى حاملا تحت إبطيه عددا من اللوحات الكبيرة التى تضم مشغولات مذهبة لعبارات من الذكر الحكيم .

أسرعت أناديه وحملت عنه اللوحات، ثم جلسنا فى البازار نحتسى الشاى بالنعناع . . قال لى إنه لم يجد مفرا ولا حلا لأزمته سوى الامتثال لنصيحتى، حيث استجمع شجاعته وذهب إلى مجلس الأمة .

هناك قدم نفسه إلى مدير مكتب السادات وطلب مقابلته، ولم تمض دقائق حتى سمع صوت السادات يتسلل من وراء الأبواب وهو يقول لمدير مكتبه : الراجل ده عاوز منى إيه؟ قل له إنى مشغول دلوقتى وسوف أحدد له موعدا فى وقت لاحق .

وهكذا قبل أن يتلقى زكريا الرسالة على ما يبدو، راح يجر قدميه وكرامته معا فى ممرات مجلس الأمة، والدموع تنساب من عينيه حزينا كاسفا على ما جرته عليه المقادير من سوء الحظ والهوان .

قال لى الحجاوى : تعلم كم تلقيت من دعوات وكم العروض للعمل فى الخارج لكن دائما كنت أعتذر عنها شاكرا، ولسبب بسيط هو أننى لم أشبع بعد من حب مصر وفهم تراثها الشعبى، فكيف إذن أفارقها إلى حب غيرها وفهم تراثها الشعبى، فلما أغلقت فى

وجهى كل الأبواب من دون أن أحصل على مجرد شقة لايوائى وأسرتى، لذلك قررت السفر إلى الدوحة تلبية لدعوة صديقى محمود الشريف مستشار الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى حاكم قطر، وقد تتحول الدعوة إلى العمل فى وزارة الإعلام والثقافة خبيرا للفنون الشعبية إن كان هناك ثمة مجال لمواصلة ما بدأناه فى مصر من مشوار البحث والتنقيب عن مفردات الفنون الشعبية، ثم ضحك من وراء قلبه قائلا: آهو عصفور فى السفر خير من عصافير القعود والوعود وتصغير الخدين للى يسوى واللى ما يسواش، وزى ما إنت شايف جئت إلى خان الخليلى لأشترى هدايا متواضعة لأصدقائى فى الدوحة.

على أن ما لم يفصح زكريا عن تداعيات مشكلة السكن أنه اضطر مع اقتراب الموعد الذى حدده التنظيم لهدم منزله أن ينقل محتويات شقته من الأثاث إلى بيوت الجيران وبعضها ظل فى الشارع حتى وجد لها مكانا لدى أقاربه!!

وربما لأول مرة يسكت بيننا الكلام، لا هو راغب فى الحديث ولا أنا راغب فى سماع مواجعه التى عجزت عن مداواتها، ولا أدرى فى تلك اللحظات وصوت أذان العصر يتهادى من مسجد الحسين، أن غياب زكريا فى قطر سوف يطول بغير ميعاد، ويبدو أنه كان يتنبأ شخصيا بالمكتوب على الجبين الذى يلزم ومن كل بد تشوفه العين... فقد قال يوم وصوله إلى الأديب العربى الكبير الطيب الصالح ضاحكا فيما يشبه البكاء.. (انا يا صديقى مثل قرموط النيل.. أخرجونى منه برغمى.. وقتلونى حيا)!

بعدها بنحو شهر تقريبا من سفره إلى الدوحة وصلنى منه خطاب رقيق يعتذر فيه عن سفره فجأة وعن فراق أصدقائه دون أن يتمكن من وداعهم، ثم مضت الشهور والأعوام وطيف الحجاوى وأيامى الجميلة معه وذكرياتى العزيزة عنه تراودنى على السفر للقاء به فى الدوحة والاستمتاع بجلساته العذبة وحديثه الآسر، وكلما جاء المساء للسهر والمؤانسة كنت أفتقده وأتحسر على عطائه الإنسانى والثقافى الذى حرمنا منه.

وكلما جاء إلى القاهرة الصديق الطيب صالح، كان يحكى عن نشاط زكريا الدءوب فى جمع مفردات الفنون الشعبية الخليجية والقطرية بوجه عام وعن حكاياته العذبة ونوادره المثيرة إذ كان يعمل تحت رئاسته باعتباره مديرا للإعلام والثقافة فى دولة قطر.

وكنت أوصيه خيرا فى عمنا زكريا وهو فى غربته وكم سررت عندما نالت فرقة قطر للفنون الشعبية الجائزة الأولى فى مهرجان الفنون الشعبية الخليجية وجائزة مهرجان آخر أقيم فى قرطاج بتونس حتى التقيت مصادفة بصديقى الفنان محمد عبد السلام الممثل

المعروف رحمه الله فإذا به يزف إلى خبر سفره للقاء زكريا الحجاوى بالدوحة وبصحبته الفنان المرحوم محمد رضا والكاتب المسرحى والتليفزيونى عبد الرحمن شوقى وكانوا جميعا قد تعاقدوا على العمل فى مسلسل تليفزيونى فى استديوهات قطر!

عائد إلى حبيبتى مصر

ليلتها عدت إلى منزلى وجلست إلى نفسى، ورحت أكتب خطابا طويلا لزكريا الحجاوى استغرق نحو عشرين صفحة «فلوسكاب» . . حاولت عبر سطوره أن أسترجع فيه شريط ذكرياتى معه، وأبث لواعج محبتى وحنينى إليه، وأحكى له ما جرى لمصر ولأصدقائه من متغيرات، إضافة إلى ألوان من النكتة وسخريات المصريين من مساخر الحياة، ثم أستحلفه بأن يعود إلى مصر لرعاية حدائقه الزاهرة التى زرع فيها بذور النوابغ والموهوبين و . . حتى كانت السابعة صباحا عندما ذهبت إلى منزل الفنان محمد عبد السلام بأرض شريف وأوصيته تسليم الرسالة إلى العم زكريا فور وصوله الدوحة!

فى الدوحة قال لى الفنان محمد رضا عبر مكالمة تليفونية من هناك أنه ومجموعة الفنانين المصريين وغيرهم من أصدقاء الحجاوى ومحبيه من العاملين فى الدوحة تحلقوا حوله فى نهاية عرض قدمه سيرك «عاكف» مساء الأمس حيث قرأ رسالتى على الملأ وأنهم جميعا انحازوا إلى موقفى عبر إقناعه بالعودة إلى مصر حتى أنه هتف فيهم قائلا : عائد . . عائد . . إلى حبيبتى مصر!

فى صباح اليوم التالى كان لويس جريس رئيس تحرير مجلة «صباح الخير» آنذاك فى مطار الدوحة فى طريقه إلى القاهرة ولكن موعد إقلاع الطائرة المصرية تأخر نصف ساعة وبعدها امتدت إلى ساعة ونصف . وخلالها وجد وزير الإعلام القطرى ونخبة من رجاله يتوافدون على المطار . . لكنه لم يفهم سببا لحضورهم حتى أقلعت الطائرة، وحين سأل لويس مضيفة الطائرة عن سبب التأخير وحضور وزير الإعلام القطرى إلى المطار . . قالت له إنهم كانوا ورجاله فى وداع جثمان مواطن مصرى كان قد توفى فجر اليوم!

وعاد لويس يسأل المضيفة عن اسم المتوفى المصرى وقالت : فنان مغمور اسمه زكريا الحجاوى، وهكذا على امتداد المسافة بين الدوحة والقاهرة ظل لويس جريس يبكى ويتألم لا لأن زكريا الذى كان معه بالأمس رحل عن دنيانا فحسب . . ولكن لأنه توفى إلى

رحمة الله تعالى فى اللحظة التى قرر فيها العودة إلى مصر التى ضنت عليه بسكن لأسرته وهو الذى أعطى لها حياته وعشقه ونبضه وفكره بلا حدود. . ولأن لويس كان يجلس مستريحا على مقعد وثير كما قال لى. . بينما جثمان الحجاوى فى صندوق محكم قابع من تحته وسط أكوام البضائع وحقائب المسافرين. . يرحمه الله!

مقامات وأزجال الوداع

من كرامات زكريا الحجاوى أنه لا يزال حيا فى قلوب الناس رغم رحيله عن دنيانا، وكنت قد تلقيت العديد من رسائل المعجبين به ومكالماتهم الهاتفية التى تعبر عن حبهم له وتقديرهم لعطائه وإبداعاته والحزن العميق لفقد هذا الفنان العظيم، ربما لأنهم لا يعرفون عنوانا لأسرته، وربما لأنى داومت الكتابة عنه سواء فى حياته أو إثر وفاته.

فى قالب من أدب «المقامات» وصلنى ما كتب الأستاذ عصمت خليل فى الكويت. . يقول:

الاسم زكريا والنقب حجاوى. . وللإنسانية بالفن طبيب مداوى. . علم فى الثقافة ولسه غاوى أبو أيوب وأدهم الشرقاوى. . وكل كلمة قالها الشعب بإحساسه. . اللى جمع للأدب الشعبى تراثه، اللى قاله المظلوم بدمه والفلاح بفاسه، وابن البادية بفطرته وابن الحضر بكاسه، فى القصة فارس مغوار. . وفى الدراما من الدارسين الثوار، وفى الأدب الشعبى هو الشمس والنهار، وللفولكلور كان وما زال الإمام والمنار، حفظنا حروف معنى كلمته. . وخلق فى قلبنا بحلوته محبته، ده عمنا زكريا، الفولكلور لعبته وللأدب عمه وكل أهله وعمدته، معلش سامحنى يا عمنا الكبير. . أنا عارف إن كلامى منه سيباويه يستجير، والقوافى والأوزان. . بتصرخ لشرفها الذى أهان، لكن أعمل إيه. . أنا بكتب بإحساس. . وأنت راسى. . مين فى العالم العربى ما فيش اللى فى قلبه فى قلبى. . من حب وتقدير وجميلك جميل كبير. . قصصك علمتنا الالتزام. . وتمثيلياتك الإذاعية كانت لينا إمام، ولا الفولكلور. . إللى حرك البنى آدم والطور مين دلنا عليه غيرك يا زكريا. . يا ابن المطرية. . ياللى دليت البرية. . على الكنز الكبير اللى نطق به البدوى والفلاح والأجير. .

أما الأديب الباحث الظريف محمد جاد والعاشق المتيم بزكريا الحجاوى والحافظ لكل

إبداعاته، فقد أرسل من معينه فى قرية بركة السبع رسالة مطولة وطويلة بنحو متر، وقد شبك كل ورقة بالأخرى كعادته بالدبابيس، يقول فى قصيدة زجلية لطيفة أشبه بالمواويل «فن المربع» الذى طالما شنف به زكريا الحجاوى أسماعنا - يقول :

جانى جواب م البلد بيجول فى عنوانى

واحد قريبى انجتل والدور على آنى

أنا عقلى طار فى السما صحى الحكيم آنى

إيه العبارة يا خال إوعاك تنام تانى

* * *

الناس معادن؟

لأ الناس أوانى

لأ الناس موانى

وأنا مين أوانى؟.. أنا العنانى

كان ديوانى.. والغد ضاع يانى

أنطق بآه الجوانى.. ما تخافش م المماليك

كله سقط وربنا يحميك.. يانى

* * *

النهر لسانك.. اسقى المعازيم ورد

أرغولى وكمانك.. هيعالجوا كل البرد

البرد حتى الشرد حتى الطرد من الأوطان

عندك يا أنى علاجه

تسكت بآه ازاى يا نهر الحنان

دا انت ضـــمـــــيــــرنا وتاجـــــه
أمــجـــد بلادى.. فى حـــضنه دفـــانى

* * *

المرفـــا الأولانى.. للـفـــارس الجـــوانى
رادار دهب لؤلؤانى.. حجـاوى زكرياوى
راوى لكن تلقـائى.. ابو العـزايم مخـاوى
ومن عـبـايتـه الحـاوى والشـاعـر وبناوى
ضـد الغنا الأغـوانى.. زكريا يـا حجـاوى
وضـد كل فـلاتى.. زكــريا يا حـجـاوى
ما انت الأديب النقيب.. أبو الليالى يا ليل

* * *

ستى يا أمـون شـبـر.. مـصـر الربيع والخـريف
مـــا توصى ابنك علينا.. الأخ يوسف الشــريف
يكتـب عن الحـجـاوى.. عــمـدة فنون الريف
كان صـوت عظيم حيانى.. يا حضـرة الشيخ آنى
كـمـــا مـعــمـدان سـقــائى الحكمـة ورعـــانى
مـــــــــا الـشـــــــعـــب هـو ديـوانـى
الـشـــــعـب إنجـــــــيلى وقـــــــرآنى

* * *

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

أول الغيث قطرة

على أنهـ إذا كانت الأيـام وقساوتها قد غـدرت بزكريـا ومدرسته الثقافية، فلا أقل من أن ينهـض أصدقاؤه وتلاميذه المدركون لأهمية وقيمة الرسالة التى كابد الأمرين من أجل التنـوير بهـا، لبلورة خطة تستهدف تكريمـه وإعادة الاعتبار للفنون الشعبية التى نذر لها حياته.

لماذا ـ على سبيل المثال ـ لا يقام له تمثال على غرار تمثال الكاتب المصرى الفرعونى الجالس القرفصاء؟.. وهو المشروع القديم الذى كان قد بدأ المثال الراحل كامل جاويش فى تنفيذه بتكليف من وزارة الثقافة، ثم توقف بدعوى أن الميزانية لا تسمح.

لماذا لا ينشأ معهد خاص للفنون الشعبية يحمل اسمه؟

ولماذا لا يقام له مهرجان أسبوعى ثقافى بشكل دورى لتقييم إنجازاته وإبداعاته الثقافية يدعى للمشاركة فى أعماله نقاد وأدباء وفنانو مصر والعرب، ثم يصدر عن بحوثهم وحواراتهم كتاب تسجيلى؟

ولماذا لا يعاد عرض بعض أعماله الغنائية الراقصة المستوحاة من فنون الشعب وتراثه ويدعى لأدائها من لا يزال حيا من نجومها.. مثل أوبريت «يا ليل يا عين» وأوبريت «عاشق المداحين»؟

وكما يقول المثل «أول الغيث قطرة» فقد اختتم الملتقى الأول للفنون الشعبية أعماله فى ديسمبر عام ١٩٩٢ بحضور وزير الثقافة الفنان فاروق حسنى الذى قام بتسليم درع الملتقى للعميد أسامة ابن زكريا الحجاوى، وكذلك رشدى صالح والدكتور محمود أحمد الحفنى والفنان عبد الغنى أبو العينين، فيما كانت أهم توصيات الملتقى تبنى إبداعاتهم وبحوثهم العلمية ونشرها مثل «الأطلس الفولكلورى» والتوسع فى إقامة الندوات والمؤتمرات التى تخدم رسالة الفنون الشعبية، مع تخصيص مساحة لنشرها وللتنوير بأهميتها فى وسائل الإعلام، بالإضافة إلى تطوير مركز الفنون الشعبية وتحويله لمؤسسة قومية، وإقامة مؤتمر دولى للفنون الشعبية، وإخضاع الفرق الفنية والمصنفات الشعبية لرقابة مركز دراسات الفنون الشعبية حفاظا على التراث و.. فى كلمته وعد فاروق حسنى بالشروع إلى تنفيذ

هذه التوصيات وذلك كان بعض من كل ما نادى وسعى إليه زكريا الحجاوى، ولعله يطمئننا على أن جهده لم يذهب سدى!

وفى عقر داره ومسقط رأس زكريا الحجاوى المطرية، أقامت الثقافة الجماهيرية المهرجان الأول لتكريم فنان الشعب تحت رعاية سعد الشربينى محافظ الدقهلية آنذاك، وامتد المهرجان من يوم ٢٠ إلى ٢٣ يونيو ١٩٨٨ تحت شعار «ليالى الحجاوى»، وشارك فى إحيائها على مدى ثلاث ليالى نخبة من الفنانين الشعبيين، وفرقة الثقافة الجماهيرية للإنشاد الشعبى وفرقة الآلات الشعبية التابعة لوزارة الثقافة بقيادة عبد الرحمن الشافعى، وأهم من كل ذلك عرض مسرحية «كيد النسا» التى كتبها زكريا الحجاوى عن ملحمة شعبية، وأوبريت «حكاية زكريا» وهو عمل محلى من إعداد وإخراج محمد كامل الشناوى، نهاية بعرض أوبريت «فى حب مصر» لطلائع بيت ثقافة المطرية من إعداد وإخراج التميمى الصالحى.. ويتضمن مقاطع من أعمال وكلمات زكريا الحجاوى التى يتغنى فيها بحب مصر.. إضافة إلى إصدار كراسة تحكى سيرة حياته وإبداعاته!

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

وحوش الثقافة

أما عن أصدقاء عمر زكريا الحجاوى، فلم يكن بوسعى إختزال مقالاتهم الطويلة عنه، إذ كان الأمر على حد المثل القائل «للضرورة أحكام»، ولعل مكانها والأمر كذلك كتاب تسجيلى واف بكل الأحاديث والتحقيقات والدراسات والندوات التى تناولت فكره وتجاربه وإبداعاته، والمهمة فى تقديرى تحتاج إلى روائى يضعنا فى الصورة والأجواء حين رمت به المقادير فى مواجهة وحوش الثقافة من المتنفذين والبيروقراطيين الجهلاء.. فماذا قال أصدقاء زكريا عنه:

كنت واثقا أن ذلك الاحترام الظاهر المبالغ فيه مقرون بكبرياء عظيمة.. هى كبرياء الفنان الأصيل المعتز بفنه الواثق بمقدرتها.. كان يغضب ويثور وسرعان ما يضحك كالطفل.. وينسى كل شىء، لم يكن يحمل حقدا لأحد، ولم يكن يطمع فى مال أو جاه.. وقد ذهب ولم يترك شيئا من حطام الدنيا...

«الطيب الصالح»

مجلة الفجر

كـان زكـريـا الحجـاوى هـو الرائـد لفـرقـة رضـا . . ولكـل فـرق الفنون الشـعبيـة فى الأقاليم، ولكـل الدراسـات التـى جـرت بعـد ذلك عن الفرح الشعبى . . وأصبح هذا الفن المصـرى يصـدر إلى باريس . . ويشـاهده ضيـوف مـصـر ويقلده ويغنيـه كـبـار الفنانين المصريين . . .

«محسن محمد»

جريدة الجمهورية

مـضى فى حيـاتـه يكافـح . . يبـحـث عـن الطريـق . . حتـى وجـده فى فنونـنـا الشعبية التى كان يلهث فى البحـث عنهـا . . يخرجهـا لنا مـن أعمـاق ريفنا . . من الإسكندرية إلى أسـوان . . حتـى أثـرى مسرحنا الشعبى بما كنا ولا نزال نتغنى به من إنتاج غزير . .

«مرسى الشافعى»

المصور

آلمنى أن الصحف حينما نشرت نعى الزميل الراحل زكريا الحجاوى . . ذكرته «فنانا» ولم تذكره «صحفيا» . . ذكرت ولم تذكر الأصل فى حياته . . إذ كان رحمة الله عليه صحفيا أصيلا . . ترجم صحافته إلى فن شعبى أصيل .

حافظ محمود

نقيب الصحفيين ـ الجمهورية

كـان زكـريا الحـجـاوى طرازا فـريدا من الفنانين . . يذكـرك بفنانى عـصـر النهـضـة . . بعبقرياتهم النادرة . . وبمواهبهم العريضة . . واندفاعهم المتوهج يشربون الحياة .

«رأفت الخياط»

جريدة الجمهورية

سـأظل مـا بقى من عـمـرى أعيش بالحسرة لفـقـدانك يا زكـريا فى الوقت الـذى كنت أرجوك فيه ويرجوك معى كل الأحبة والأصدقاء . . وأشقاء الروح العديدين الذى غابت عنهم أحلى الابتسامات وأجمل وأرق الأحاسيس وأصفى الوجدان . . أيها الناس . . لقد

مات أجمل المتحدثين وأحسن الأصفياء وأعذب الظرفاء . . وستظل لنا جلال الذكرى ورفيف الكلمات .

أحمد طوغان

الجمهورية

كان زكريا الحجاوى صاحب طريقة فى الحياة مثل طريقة المتصوفين . . وكانت طريقته بسيطة وصعبة . . سهلة وعسيرة فى نفس الوقت . . «الطريقة الحجاوية هى العشق والعشق فى قاموس الهوى هو الحب الكبير . . كان يعشق مصر وكان عشقه لها حقيقة إلى أقصى الدرجات التى تحتملها كلمة حقيقة . .

رجاء النقاش

المصور

www.books4all.net

ذهب الفنان . . والظريف . . والحالم . . رغم أن قدميه كانتا تغوصان فى طين الواقع ولا تتركه أبدا، لكنه كان قادراً على أن يرى الأشياء الجميلة دائما فى الناس وفى الحياة . . وأحيانا قد يصنع هذه الأشياء أو يخترعها . . والمهم أن يعيش اللحظة وأن تمضى السفينة إلى شاطىء آخر .

منتديات سور الأزبكية

«حسن فؤاد»

روز اليوسف

لم يحن الوقت بعد الكشف عن حياته الخاصة وتصرفاته العجيبة التى لا يعرفها إلا أقرب الأصدقاء . . وكلها تؤكد أنه كان نسيجا وحده . . وكان فنانا زاخرا . . بل عالما كاملا يعيش بصنوف مختلفة من المواهب والمتاعب . . كان أشبه بقارة تسير على قدمين .

«عباس الأسوانى»

روز اليوسف

سافر زكريا يطوف العالم العربى، بجلده الأصيل، يتحدث فيستولى على المشاعر

ويغنى فتطرب القلوب، لكن الطائر الفريد سكت على «الدوحة» والقلب النابض بالحب استنفد أخيراً كل طاقات الحب . . فغفا!! ربما ليوقظ النيام!

عبد المنعم الصاوى وزير الإعلام

الجمهورية

مـا قبـل الرحـيل

ترى كيف كان حال زكريا الحجاوى خلال الأيام والساعات التى سبقت الرحيل، ومهدت لوفاته . . ماذا قال . وماذا فعل؟ وهل كان يدرك دنو الأجل . .

فى كتابه الفياض بالرقة والشفافية «أوراق بدون ترتيب ـ فى الأدب والفن والحياة» يصف لنا الصديق الكاتب الأديب عبد القادر حميدة بدقة وساعة بساعة ما جرى لزكريا فى آخر أيامه وحتى أنفاسه ونبضه الذى توقف فى الدوحة فيما يشبه البروفة الجنرال «النهائية» إيذانا بفتح الستار وبداية العرض المسرحى، وكان عبد القادر وقتها يعمل بمجلة الدوحة الثقافية . . وقد عنيت بنشر المقال كاملا دون حذف أو تعديل وهو نفس ما ذهبت إليه فى مقالى الطيب الصالح ورجاء النقاش حتى تكتمل بها خاتمة سيرة حياة الفنان العظيم .

يقول عبد القادر حميدة :

فى تلك الليلة الأخيرة من شهر نوفمبر ١٩٧٥ . . كان زكريا الحجاوى على بعد ثمانية أيام من الموت!

كان يرتدى جلبابه الأبيض، كشهيد فى حفل ذكراه الأولى!

وكان وجهه فى ضوء مصباحى مدخل البيت، مشوبا بحمرة صافية، كمولود قادم لتوه من عالم الرحم . . صبوحا . . بريئا . . وبلا ذكريات!

على شفتيه ابتسامة وسيمة الصمت، والدهشة .

وفى عينيه ابتهاجة فرحة، مرحة، بليغة، توشك فى كل لحظة أن تسمع صوت ضحكها . .

تتأنى خطواته عن ألم حاد فى إحدى قدميه، وعن استغراق جاد فى عالمه الخاص، وفى حياء رجولى جم، وفى إطراقة مغضية . . يمد ذراعه اليمنى كفارس من فرسان الحكايات الشعبية القديمة، يفسح الطريق لزوجته وابنته . . متأنية خطاه عن ذى قبل، مغضيا أكثر . . احتراما لأهل البيت والمكان .

فى تلك الليلة الأخيرة من شهر نوفمبر . . كان زكريا الحجاوى على موعد معى .

كانت حديقة البيت ـ نظرا لحداثة البيت ـ مزروعة بالرمال والأحجار الصغيرة، وبقايا أسلاك الكهرباء، والنتوءات لا أثر فيها للخضرة، ولا تشى بمجرد الرغبة فى الاخضرار .

وفى كل مرة زارنى فيها زكريا الحجاوى، كان يتوقف عند المدخل، مستطلعا ما يمكن أن يكون فى المستقبل، حديقة تزهر فيما تزهر، غناء العصافير، ويستجير البيت بظلالها من الهجير .

www.books4all.net

كان زكريا يتوقف عند المدخل . . يزرع بالأحلام صحراء الحديقة :

منتديات سور الأزبكية

هنا خط من أشجار الياسمين . .

وهناك تحت أقدام الجدران، فروع اللبلاب المتسلقة، سوف تحضن البيت بآلاف الأذرع الخضراء .

وفى الوسط أحواض الملوخية، والجرجير والخس والنعناع . .

أما جانبا الممر الممتد بين الباب الخارجى والباب الداخلى، فخطان من شجر الورد، يمنحانك طريقا يوميا من الألوان والعطر .

لكن زكريا الحجاوى فى تلك الليلة من شهر نوفمبر . . لم يستوقفه مشروع الحديقة . . ولم يبذرها بالأحلام كعادته .

وافتقد خيالى ـ تلك الليلة ـ رائحة العطر، وحكايا العصافير ! !

بالأمس . . كنا نجلس فى ركن اختاره زكريا الحجاوى لجلسته الليلية فى سيرك «حسين عاكف» . . يحلم . . ويتحدث فى الفن والأدب . . ويبدى ملاحظاته على عروض السيرك . . ويبتكر فقرات جديدة . . ويحلم من جديد . . وتتسع ابتسامة أحلامه : سيعود إلى القاهرة سيعكف على مشروعات الكتب التى يريد أن يضع فيها كل خبراته مع

التراث، والحياة، والبشر.. كتاب عن الفنون الشعبية فى منطقة الخليج. كتاب «اللهجات» وآخر عن «الشعر»... و... المهم أنه سيعود إلى القاهرة، ليرتاح على صدرها من عناء الترحال والتنقيب فى آبار التراث، سيلتقى بمكتبه، كتبه، ومخطوطاته، ومشروعات قديمة فارقها منذ ثلاث سنوات إلا بضعة شهور، سيجتمع بأصدقائه من جديد وسوف تمتلئ رئتاه بهواء القاهرة فى الليل.. وفى الحسين.. وفى كل مكان تصعلك فيه زكريا، وأوراق فى زمانه أغلى الذكريات.

ولكن..

لم يكن لزكريا بيت فى القاهرة!

مسكنه فى الجيزة.. أتى عليه «التنظيم»

وأزمة المساكن فى القاهرة، تخرج له لسانها من بعيد!

غير أن المشكلة ستظل مشكلة، طالما هو بعيد عن مصر..

هناك قلوب الأصدقاء مسكنه..

وكل بيت فى مصر بيته..

.. وعند هذا الحد من خواطر الفرح بقرار العودة.. تلوح له المشكلة الحقيقية: كيف يعيد ترتيب مكتبته، وكتبه، وأوراقه؟

لابد له من بيت خاص.

وكنت أقول له بالأمس فقط: اتصل بوزير الثقافة ليحسم لك الحل.. أليس صديقك؟

وكان يقول فى حنان غريب:

ـ لا أحب أن أعذب أصدقائى بمشاكلى

فى تلك الليلة الأخيرة من شهر نوفمبر.. كان زكريا الحجاوى غيره بالأمس عصفت به فى منتصف الطريق إلى بيتى «إغماءة» فلم يستسلم لها، ولم يخلف الموعد!

لم يحدثنى بالتفصيل عن لحظات «الإغماءة» لكنى شاهدت انسحاب الأحلام فجأة من رأسه، وكأنما طارت بملايين الأجنحة!!

ابتسامة عينيه الموشكة على الضحك، شابها حزن طارئ لكنه وديع وفيه براءة الطفولة..

وعندما جلسنا فى الغرفة المخصصة للقائنا . . كان صوت «سيد درويش» يتسلل من خصاص الباب الموارب، قادما من غرفة الأطفال :

«صفر يا وابور واربط عندك»

«نزلنى فى البلد دى»

لحظتها . . اعتدل زكريا الحجاوى فى جلستة أمال ظهره قليلا إلى الوراء وأرخى قدمه المتألمة . . ثم فى صوت خافت كأنه عازف عن الكلام والاستماع معا :

ـ اقفل الباب من فضلك .

كان ثالثا فى الغرفة : الصديق الفنان التشكيلى محمد أبو طالب

وكان الوقت : السابعة تماما

والسكون المهيب فى الغرفة، وخارج البيت . . ذلك السكون الذى يسبق العاصفة، أو يعقبها!

وهادئا خفيض الصوت ـ على غير عادته ـ تحدث زكريا الحجاوى . .

ربما شاهد ميلاد التساؤلات فى أعيننا . .

وربما كان يرى شيئا لم نره نحن . . نفس الشىء الفظيع . . الفظيع . . الذى أخرسنا بعد أسبوع، وفى نفس الموعد!!

فى تلك الليلة الأخيرة من شهر نوفمبر ١٩٧٥ . . وفى الحادية عشرة تماما . . تهيأ زكريا الحجاوى للانصراف . . قال : إنه على موعد مع استكمال كتابه الجديد عن «الفولكلور القطرى» وقال : إنه يريد الانتهاء منه فى وقت مبكر، كى يدفع به إلى المطبعة، وحتى يتمكن من مراجعة «بروفاته» قبل أن يعود إلى مصر .

كان قد اعتاد أن أعود به إلى بيته فى «وادى السيل» بسيارتى عقب كل زيارة، تاركا سيارته لزوجته وابنته، ومعهما زوجتى وطفلاى . كان لديه دائما ما يقال وكنت أسعد بالانفراد به، واستكمال الحديث معه، ونحن نقطع شوارع «الدوحة» الموحشة، فى مثل هذا الوقت من الليل .

لكن زكريا الحجاوى ما إن ركب بجانبى، حتى غرق فى الصمت، صمت من نوع

التوغل فى أعمق أعماق الذات . ربما كان يستكمل بينه وبين نفسه بقية استرجاع ذكرياته مع الرحلة . وربما تجاوزها إلى أبعد من ذلك بكثير . لقد بدا لى بنظرة جانبية أنه انفصل بذاكرته عن اللحظة بعدد هائل من ملايين السنين ! !

والواقع أننى أنا الآخر ، كنت مهيئًا للصمت .

كنت مشدودا من ذاكرتى وعقلى إلى صوته وكلماته فى الغرفة منذ لحظات كانت عبارته فى بداية الحديث «مش قادر يبقى لى عمر تانى أكمل بيه الرسالة» تحيا فى رأسى ، وتنمو ، وتتجسد ، وتمد على عقلى سحبا رمادية داكنة من الكآبة ، والاستقراء والتأمل قالها زكريا الحجاوى ببصيرة لاحد لنفاذها ، وكأنما عقارب الإحساس لديه بزمنه على وشك التوقف . . لكنى ما تصورت أن تلك «العبارة» كانت قد خرجت من منطقة «فقدان الرغبة فى الحياة» عند زكريا الحجاوى ! !

تشرنق العبارة فى رأسى وتفرخ فى الذاكرة .

لا أذكر فى تلك اللحظة متى وأين قرأت عن «إرادة» الإنسان فى أن يقرر مصيره الأخير فى أن يتهيأ للموت ! !

بعض الناس يفقدون رغبتهم فى الحياة ، إذا واجهتهم أحداث مربكة ، لا يستطيعون تجاهلها ، وغالبا ما تصيبهم تلك الأحداث بأحاسيس عاطفية فياضة جامحة ، لا يملكون السيطرة عليها ، عندئذ يفقدون السيطرة على أنفسهم ، وتضيع منهم الرغبة فى الحياة .

ولقد كان زكريا الحجاوى ـ خلال العام الذى أمضيته معه هنا ـ يعانى هذا النوع من الأحداث المربكة ، صحيح أنه لم يكن يتحدث أو يفصح عنها ، لكنه أبدًا ما فقد رغبته فى الحياة ، كانت عيناه ، وكلماته ، وأمانيه ، وأحلامه دائما فى المستقبل .

كان صوت الماضى لديه خافتا أعلى ما فيه صوت «التراث» وكانت اللحظة «الآنية» على دقتها وتناهيها فى الصغر ، زمنا عريضا رحيبا ، يتسع لكل هذا الزحام من أحلامه التى تتدافع فى رأسه ، كان يقول لى فى الأيام الأخيرة : الزمن الحقيقى هو العمل . . والزمن الميت هو البطالة . وكنت ألحظ فى الشهور الأخيرة القليلة أن زكريا الحجاوى لم يعد مشغولا ولا مزدحما بالعمل ، مثلما كان من قبل .

كان مهموما طوال الوقت . . لكن فى صمت !

هل كان يعانى نوعا من «البطالة» لا يستطيع ـ كبرياء ـ أن يفصح عنها ؟ وهل كان

حديثه عن مشروعاته المقبلة، وعن سنواته القادمة المزدحمة بالعمل فى مصر . . هل كان ذلك تعويضا عن الشعور الجاد بزمن ميت يحياه؟ . . ولم أكن ـ حفاظا على كبريائه، واحتراما لصمته ـ أفصح له عن تساؤلاتى .

تشرنق العبارة فى رأسى، وتفرخ فى الذاكرة .

إن زكريا الحجاوى قد تعرض لأزمة قلبية فى العام الماضى . .

وأطباء علم النفس حين يتحدثون عن «الوفاة المفاجئة» بسبب أزمات القلب . . يرجعون ذلك إلى أن أصحابها غالبا ما يكونون قد عانوا من قلق مدمر، إثر فترة من حالات الاكتئاب، التى يتعرضون لها بسبب «الحزن» على وفاة عزيز لديهم، أو ضياع هيبتهم، أو «فقدانهم» شيئا يعلقون عليه أهمية كبيرة .

لقد فقد زكريا الحجاوى «بيته» فى القاهرة منذ ثلاث سنوات وانتهى الأمر . .

ولقد فقد زكريا الحجاوى «وظيفته» فى القاهرة منذ ثلاث سنوات، وانتهى الأمر أيضا .

ترى : ما هو ذلك الشىء الهام الذى «فقده» أو «أفقده» هيبته حتى يكتئب كل هذا الاكتئاب، ثم يهوى به بين يوم وليلة فى تلك المنطقة المعتمة الفاصلة بين قمة الرغبة فى الحياة . . وحضيض الاستسلام لخواطر الموت .

أفقت على صوت زكريا الحجاوى، بجانبى، يتنهد .

يبدو أن رحلة الاستغراق فى الذات، كانت شديدة الوطء على صحته النفسية تلك الليلة، إثر نوبة إغماء لم يستسلم لها، ولم يفصح عنها .

فلما صرت أمام «الفيلا» التى يسكنها فى حى «الرميلة» قريبا من شاطىء الخليج، بدت لى عيناه تحت الضوء الخافت، وكأنما كانتا تبكيان دون دموع كل الوقت .

كانتا نصف مغمضتين، كأنما تحتجزان ـ كبرياء ـ ما يفور خلفهما من البراكين .

وفى خطى أكثر من حزينة . . تناهى إلى الباب حتى وصله . . ثم استدار كعادته مطرقا ومجهدا هذه المرة . . إلى أن انصرف . . فلما هممت بالتحرك . . جاءنى صوته خفيضا متهدجا، ومحملا بالإعياء : خلينى أشوفك . .

فى الصباح التالى مبكرا . . هو الذى فتح لى الباب . . كان «المصحف الشريف» فى

يده اليمنى، مفتوحا بإصبعه عند منتصفه تقريبا، الابتسامة «مشروع» على شفتيه. . والحزن فى عينيه لم ينم طوال أمس. . وفى خطاه تأن لا ينم عن غير الإرهاق والتفكير.

وصرت فى الأيام الثلاثة التالية، أطرق الباب عليه كل صباح، فيفتح لى، والمصحف فى يده. . والحزن فى عينيه. . أتناول كوب الشاى معه. . ولا نتحدث كثيرا ثم أمضى إلى عملى فى موعده، وبإيعاز منه.

فى اليوم الخامس، كنت أتحدث تليفونيا مع صديقنا المشترك الكاتب الروائى السودانى «الطيب الصالح» أحن من عرفت على زكريا الحجاوى وأشدهم حبا وتقديرا له سألنى عن «الأستاذ زكريا» معتذرا عن لقائه أو الاتصال به تليفونيا طوال الأيام الماضية، بسبب مشاغله الكثيرة. قلت له مستجيبا إلى إحساسى الداخلى المخيف:

ـ أخشى على زكريا هذه الأيام من . . . . . .

وقاطعنى الطيب بصوته الهادئ المحايد، مشوبا ـ هذه المرة ـ بالقلق:

ـ من أيش؟

قلت: من أن «يسقط» فجأة.

وارتفعت فى صوت «الطيب» نبرة فزع عاطفية:

ـ لا يا شيخ. . بالله. . كيف؟ ولم ينتظر الإجابة:

ـ هو فى البيت؟ الآن بأكلمه. . أنا عندى أخبار طيبة عشانه

قال لى: إذا تحدثت إليه. . أو تحدث إليك. . خليه يتصل بى. . وسوف أعاود الاتصال به. .

لا أذكر الآن، لماذا لم أزر زكريا الحجاوى خلال اليومين التاليين؟ ربما لأنى كنت أتصل به ـ فيما عدا اليوم الأخير ـ بالتليفون فلا أجده فى البيت. .

ثم. .

وفى مساء اليوم الأخير: الأحد ٧ ديسمبر ١٩٧٥. . كنت فى منزل الدكتور محمد إبراهيم الشوش رئيس تحرير مجلة «الدوحة»، كان الوقت السابعة والربع مساء.

وكنا هذه اللحظة نتحدث معا عن زكريا الحجاوى، والدراسة الكبيرة التى ينجزها عن الفولكلور القطرى، وكيف يمكن لمجلة «الدوحة» أن تفيد من نشر هذه الدراسة، بل كيف يمكن أن تفيد أيضا من زكريا الحجاوى ككاتب له وزنه وأسلوبه، وشعبيته، وله موضوعه الخاص الذى لا يجاريه فيه أحد، كنا مقتنعين بأن زكريا الحجاوى يستطيع فى هذا المجال أن يقدم للمجلة فائدة لا أحد غيره يستطيع تقديمها، إذ كان موضوع «إحياء التراث» من الموضوعات التى تشغل بال المجلة.

وهكذا اتفقنا ـ الدكتور الشوش وأنا ـ أن نذهب إلى زكريا الحجاوى الآن نراه ونفاتحه فى الموضوع.

فى تلك اللحظة، وبينما نحن نتهيأ للذهاب إليه.. دق جرس التليفون..

كان المتحدث الطيب صالح.. يسأل عنى..

قال لى الطيب بصوفية تدعو إلى ذروة التماسك:

ـ البركة فيك.. زكريا لقى ربه منذ ربع ساعة..

وكأنما أرد «الطيب» أن ينقلنى من لحظة الانهيار، إلى أعلا درجات الإيمان بالله:

ـ لكنه لقى ربه سعيدا.. صدقنى.

عند الكلمة الأخيرة.. أحسست أن «الطيب» يقاوم الإجهاش.

فى صباح اليوم الأخير، طاف زكريا الحجاوى بمعظم أصدقائه ومحبيه.. جميعهم قالوا: إنه كان فى قمة النشاط والحيوية..

كان زكريا الحجاوى فى الأيام الأخيرة، يريد أن يرى صديقه وحبيبه، ومعشوقه الطيب صالح «أحد منابع النيل كما كان يسميه» لكنه كان يعرف أنه مشغول دائما، وكان يشفق على وقته من أن يحرج بالزيارة، بل إنه كثيرا ما كان يكتب له الرسائل ويتركها لدى مدير مكتبه، لأنه لا يحب أن يشغله عن عمله.

غير أن زكريا فى تلك ذاك الصباح الأخير ـ ودون سابق موعد ـ ذهب إلى الطيب فلما عرف أنه فى «اجتماع الوزارة» رأى أن يمضى ليكمل جولته على الأصدقاء.

فى هذه اللحظة خرج الطيب صالح من الاجتماع.

يقول لى الطيب:

ـ لم يكن لدى سبب معقول للخروج من الاجتماع، لكنى عندما خرجت وجدت زكريا يتهيأ للانصراف، فما أن شاهدنى، حتى رأيته يقبل على بفرح عظيم. . وراح يقبلنى، وكأنه عائد فى هذه اللحظة من القاهرة، أو أنه مغادر إليها!

ويستطرد الطيب صالح:

ـ لم تكن اللحظة كافية ولا مناسبة، كى أطلعه على الأخبار الطيبة التى تخصه.

ويستطرد مرة أخرى:

ـ كم أنا نادم لأنى لم ألتق به فى كل المواعيد التى كنا نحددها، ثم أعتذر عنها بسبب المشاغل.

كان زكريا الحجاوى فى ذلك الصباح الأخير يودع أصدقاءه وداعه الأخير، دون أن يدرى أحد!!

وفى المساء. . ذهب إلى مكتبه ليشرف على تدريبات «فرقة الفنون الشعبية» التى أنشأها منذ ثلاث سنوات.

يقول لى صديقه ومرافقه على الدوام، المغنى الشعبى القطرى «مرزوق العبد الله»:

ـ كنت مع «الأستاذ» فى مكتبه، فلما سمع بعض اللغط من بنات الفرقة فى غرفة التدريب، طلب منى أن أسكتهم، فخرجت لهذه المهمة، ولما عدت بعد قليل. . لحظات. . دقائق. . وجدته منكفئا على مكتبه. . يا أستاذ. . لم يرد. . حاولت أن أرفع وجهه من فوق المكتب. . فلم يستجب وعندئذ طلبت سيارة الإسعاف. . كانت الروح ما تزال فيه.

تلك هى «اللحظة المعتمة» من تلك اللحظات التى كانت تتهدده فى الأيام الأخيرة، استطاعت أن تتمكن منه هذه المرة.

ولعل زكريا الحجاوى فى هذه اللحظة ـ دون غيرها ـ كان قد قرر أن يغادر هذه الدنيا بلؤمها، وشرورها، وصراعاتها غير الإنسانية، وغير العادلة.

لقد شاهدته بنفسى فى الشهور الأخيرة، كيف كان يراوغ الموت لأنه لا يريد أن ينهزم، ولأنه لم ينته بعد من تحقيق كل الأحلام الفنية التى يمتلىء بها، ولأنه كان مشغولا بمشروع فنى مبهر، يريد أن يقدمه فى مهرجان «الدورة الرابعة لكأس الخليج» ولأنه كذلك كان يود

أن يودع صديقا عزيزا عليه، لم يعد من السفر، وكان هذا الصديق العزيز هو الطيب صالح.

وما أكثر الأسباب المنطقية التى كان يتذرع بها زكريا الحجاوى، مراوغا هجمة الموت على قلبه الطيب بين الحين والحين، فى الأيام الأخيرة!

لم يكن زكريا الحجاوى فنانا من طراز غريب ـ فحسب ـ لأنه آثر أن يتخذ من باطن الأرض البشرية، وأعماق الأساطير، والمقولات والتاريخ القديم للإنسان، عالمه ومجال علمه، بينما الآخرون مشغولون بقشور المظاهر العصرية، لكنه كان إنسانا محبا، ومن طراز أشد غرابة، لأن الآخرين كانوا يكيدون له، ويغرسون الأحجار ورءوس المسامير فى طريقه وقلبه معا، بينما هو يلتمس لهم الأعذار، ويدعو لهم بالهدى، وبالمقدرة على الفهم، وبالتوفيق لأن يتذوقوا معه روعة المحبة.

كان زكريا الحجاوى إنسانا محبا إلى درجة فوق مستوى العاشق، يعشق البسطاء، والحياة والأحلام، والموهوبين، والطيبين، والظرفاء.

وكان عشقه الكبير: المغامرة فى باطن التاريخ الشعبى للإنسان، والتقاط لآلئه من أجل أن يضئ للآخرين طريقهم إلى جذورهم.

وكان زكريا الحجاوى رجلا شجاعا، بكل معنى الكلمة.

وهى ليست ـ فقط ـ تلك الشجاعة، التى يتصف بها من لا يهابون الخطر، ولا يترددون فى قول الحق، ولا يحجمون عن التضحية بحياتهم فى سبيل قضية يعتقدون أنها عادلة، لكنها الشجاعة التى تقوم على فكرة أخلاقية من حيث هى فعل بشرى قابل للتقييم.

ولقد كانت شجاعة زكريا الحجاوى هى ذلك السلاح الذى يؤكد به وجوده على الرغم من كل العناصر التى يلقاها فى حياته التى تتعارض مع تأكيده لذاته، ولذات القضية التى أعطاها كل عمره، حتى آخر لحظة.

وهى ليست شجاعة تلقائية فقط.

إنما هى شجاعة واعية كذلك، لأنه كان يدرك أنه يطرح على الناس موضوعا صعبا من موضوعات البحث فى «جوهر» الشعوب.

ولأنه كان يدرك أيضا، أن الآخرين مشغولون بالسهل عن الصعب. . وبالزيف عن الحقيقة.

ويوغل زكريا الحجاوى فى «موضوعه» كل ساعات النهار، متحدثا، أو كاتبا، أو محللا، أو باحثا، دون كلال ودون تعب!

كانت راحته الكبرى فى أن يعمل، وفى أن يحلم من أجل أن يعمل. . وكانت كل أحلامه شابة، ولها مئات الأجنحة، وفى حاجة لكثرتها وجديتها وحيويتها إلى عشرات الأعوام، كى تتحقق.

ولم يكن زكريا الحجاوى يريد شيئا، غير أن تطول ساعات اليوم وأن يمتد به العمر كى ينقذ ـ ما أمكن ـ تراث الشعب العربى من الضياع.

لكن زكريا الحجاوى ـ فى الأيام الأخيرة ـ بدأ يدخل مع «الموت» فى مباراة منفردة. . ساحتها قلبه الطيب، الذى أصيب بالذبحة منذ عام. . وطوال العام الماضى بدأت تتسلل فى أحاديثه عبارات من نوع: «لو طال بى الأجل» و«آه لو أننى استعدت صحتى»!

كان يبدأ يومه ـ مبكرا ـ بقراءة القرآن، لأنه يعشق اللغة وموسيقى اللغة، ولأن قراءة القرآن تجلو صدره وقلبه من الهموم، ويبدأ به يوما نقيا، صافيا، وشفيفا.

ولقد رأيت زكريا الحجاوى ـ قبل وفاته بأقل من أسبوعين ـ يرفض مبلغا كبيرا من المال، يساوى راتبه لمدة ثلاث سنوات، من أجل أن يعمل فى دولة أخرى غير «قطر» لكنه رفض هذه الصفقة، دون تفكير ودون تردد، لأنه كان مشغولا بوضع كتابه عن «الفولكلور القطرى» ولأنه أحب التراث القطرى والشعب القطرى من كل قلبه.

ومن المفارقات حقا، أن يموت زكريا الحجاوى، فى مساء نفس اليوم الذى قرر فيه وزير الإعلام ـ صباحا ـ علاج زكريا الحجاوى فى لندن.

غير أن زكريا الحجاوى ـ وهو جالس إلى مكتبه فى المساء ـ دهمته تلك اللحظة المعتمة، ومضت به، دون أن يفك لنا ـ هذه المرة ـ لغز هذا النوع من «الإظلام التام» الذى غاص فيه. . وإلى الأبد!!

إمـــام المتكلمين

فى مجلة الفجر الصادرة فى الدوحة كتب الطيب صالح يقول :

ألف زكريا الحجاوى عشرات الأغانى وابتدع عشرات الألحان وكان لأى أغنية من أغانيه فى ملحمته المغناه، عن «الهلاليين» وقع خاص فى نفسى، ربما لبساطة كلماتها، أو لعذوبة لحنها، أو للأصوات النسائية والرجالية العجيبة التى حشدها فى الكورس، وقد عرف «زكريا الحجاوى» ذلك منى فكنت إذا ما زرته فى داره يسارع فيسمعنى إياها .

لم تكن داره مجاورة لقصر الدوحة، ولكنها لم تكن بعيدة عنه، ولم تكن تطل على البحر، ولكنها لم تكن بمنآى عن نسمات الخليج التى تهب من هناك .

وكانت فى حى ليس كبقية الأحياء الحديثة فى المدينة حتى يخيل لى أنه أنشئ قبل سنوات الثراء العارم الذى فاض على البلد، كأنه فى القاهرة، من أحياء صغار الموظفين، أو ذوى الدخل المرتفع من العمال .

كانت دارا بسيطة لها فناء متسع، له باب كبير من الحديد، فيه باب صغير على غرار الأبواب فى الدور القديمة، وثمة شرفة لها ثملية، وتدخل غرفة الجلوس الصغيرة يلقاك صاحب الدار . . يستقبلك برقة، ووداعة، وتجلس بين الكتب والأوراق والأشرطة، إننى لم أدخلها كثيرا لسوء الحظ، ولكننى فى المرات القليلة التى زرته فيها قضيت مع زكريا الحجاوى ساعات لن ننساها :

ـ تقول الأغنية :

ونس خطر فى السوق

ولد الهلالية

نسلم على التجار

ردوا له التحية

وتمضى الأغنية فتقول :

لا كل من لف العمامة يزينها

ولا كل من ركب الحصان خيال

جبال الكحل تفنيها المراود

وكنز المال تفنيه السنين

قابلت زكريا الحجاوى مرة واحدة قبل مجيئى إلى الدوحة . . كان ذلك فى القاهرة عام ٦٤ . . ذهبت مع محمود السعدنى ونفر من المسرح القومى إلى بيت بدا لى كان ليس له صاحب، لعله كان بيته . . أذكر من الحاضرين تلك الليلة «طوغان» الرسام، وعباس الأسوانى الكاتب ومحمود السعدنى الصحفى ولا أدرى على وجه التحديد إن كان الشاعر صلاح جاهين معهم .

كنت قد سمعت بزكريا الحجاوى وقرأت له، وشاهدت من أعماله المسرحية أيوب المصرى، التى كان لها صدى بعيد أوائل الستينات، كنت أعلم أن زكريا الحجاوى من علماء الأدب الشعبى الأفذاذ ومن ثمة ما يسمى بالفولكلور فى العالم العربى وكنت أعلم أيضا أنه شاعر وكاتب وملحن مبدع وصحفى مشهود له وأنه رعى مواهب كثيرة فى دنيا الأدب والفن والصحافة، يدينون له بالأبوة الروحية، ومع ذلك فلا أذكر أننى تحدثت معه حديثا مفيدا فى تلك الليلة . علمت فيما بعد أنهم كانوا يصرخون ويهرجون وإذا تحدث أحدهم أسكتوه بالصياح والزعيق - ويبدأ أحدهم حديثا معقولا ثم فجأة تراه واقفا يرقص، كذلك إلى ساعة متأخرة من الليل .

لم أقابله بعد ذلك إلا فى الدوحة أواخر عام ١٩٧٣ . . زارنى فى المكتب وحيانى بطريقة رسمية وأدب جم، وأصبحت تلك عادته معى إذا لقينى خلال ساعات العمل، كان ذلك يزعجنى ولا أعلم ماذا كان يدور فى ذهنه، ولكننى كنت واثقا أن ذلك الاحترام الظاهر المبالغ فيه، مقرون بكبرياء عظيمة، هى كبرياء الفنان الأصيل المعتز بفنه، الواثق بمقدرته .

كان يغضب ويثور، وسرعان ما يضحك كالطفل . . وينسى كل شىء .

لم يكن يحمل حقدا لأحد . . ولم يكن يطمع فى مال أو جاه، وقد ذهب ولم يترك شيئا من حطام الدنيا . . قال لى مرة إن كل أمله أن يجمع بعض المال، ليقيم به دارا يجمع

فيها ما تبعثر من كتبه وأوراقه وينقطع إلى الكتابة والبحث، ومنذ أقل من شهر قال لى إنه تعب، ويريد أن يذهب، لكننى سريت عنه ما استطعت ثم ما لبث أن ضحك ونسى كل شىء.

فى ذلك اليوم أيضا أخبرنى أنه اكتشف أن شاعرين من شعراء المعلقات هما من قطر، قلت له: لا تقل لى طرفة بن العبد، فهو من البحرين، ومن الثانى؟ قال: إنه الحارث بن حلزة صاحب المعلقة التى مطلعها:

أذننتنا ببينها أسماء رب ثاويمل منه الثواء

ثم استطرد فى الحديث: إن طرفه بن العبد قطرى، وأن العرب كانوا يطلقون اسم البحرين ـ ليس على الجزيرة المعروفة اليوم بهذا الاسم ولكن ـ على كل الشاطىء الذى تكون قطر جزءاً منه، وكان يؤمن بأن قطر هى أغنى بلاد الخليج بالتراث والأدب الشعبى، قال هذا الكلام فى البرامج التليفزيونية التى قدمها، فغضب منه القطريون، وغضب منه البحرينيون، وغضب منه الكويتيون وهو أمر لم أجد له تعليلا: لماذا يغضب أهل قطر إذا قيل لهم: إن بلدهم أغنى بلاد الخليج بالتراث الشعبى.

ربما كان مخطئا، ولكننى واثق أنه كان فى ذلك الوقت على أى حال، مقتنعا بما يقول، ولم يكن ينافق أحدا، كانت الفكرة تعن له فيسعد بها أيما سعادة، ويحاول أن يشاركه الناس تلك السعادة.. يعبر عن ذلك كله بصوت مسموع، صوت تطرف واستفزاز أحيانا، ويروح يقلب الفكرة على جوانبها، وربما فقد حماسته، وربما غير رأيه.. كل ذلك على مرأى ومسمع من الناس، ومرة نصحته ألا يسقط كل «بطارياته» الذهنية على الفكرة التى لا تستحقها كل ذلك الاهتمام، وكل تلك الطاقة، سر لقولى سرورا عظيما، وضحك ملء صدره، ولكنه لم يعمل بنصيحتى.

رحمه الله.. أغلب الذين تعاملوا معه هنا.. أنى لهم أن يدركوا أى درب طويلة سارها وأى جبال وعرة صعدها، وأى بحار خاضها، كانت فيه سيماء العلماء الزاهدين فى العصور الأولى، جاءهم وقد طعن فى السن، وكان حزينا، جريحا، متعبا وما لهم ولكل ذلك؟ إن بعض الوحوش إذا أحست فى أحدها ضعفا وخورا التفتت إليه وقضت عليه، تلك سنة الحياة فى بعض وجوهها.

يروى أنهم عرضوا عليه ذات مرة أن يكون وكيلا لوزارة الثقافة فى مصر، فأبى وقال لهم «أنا رجل مكتبى على قارعة الطريق، ولا حاجة لكم بمثلى، وهنا حاول أن يفعل ذلك فلم يفلح، ضرب فى البلد شرقا وغربا وجمع أهل الغناء وأهل الرقص وأهل الرزيف.

ولا أدرى ماذا كان الطيب صالح يعنى بكلمة «الرزيف»؟

حمل فأسه وحطم الصخرة

ثم تأتى شهادة رجاء النقاش المبينة عن زكريا الحجاوى قبل وبعد رحيله تحت عنوان «لماذا يا أبى تموت وحيدا غريب الدار». . يقول:

كنت قادما من قريتى، خائفا من المدينة الكبيرة، لم يكن معى ـ فى مواجهة الخوف ـ سوى ما قرأته من كتب فى تلك القرية البعيدة. . وفى الأيام الأولى التى عشتها فى القاهرة، وطلبت من صديق قد سبقنى إلى المدينة، أن يأخذنى إلى زكريا الحجاوى، وأخذنى الصديق إلى زكريا ذات ليلة من ليالى عام ١٩٥١، ودخلت عليه حجرته المزدحمة بالناس والمحررين فى جريدة المصرى، وكنت فى منتهى الخجل والارتباك، ولكن زكريا الحجاوى انتشلنى، وتجاهل الزحام الذى حوله وأخذ يحدثنى بدفء وحرارة.

من يومها وأنا أعرفه وأناديه: يا أبى. . كان أبى كلما واجهتنى مشكلة فى الحياة طلبته فوجدته معى.

كلما نزلت من عينى دمعة مسحها! كلما ظهرت فى طريقى صخرة حمل فأسه وحطم الصخرة! وعندما تبدو الدنيا ناعمة ومريحة وراضية. . كان من عادته أن يبتعد ويختفى عن الأنظار. . كنت أظن أننى وحدى الذى يناديه: يا أبى!

ولكنى عندما ذهبت إليه لأول مرة فى الحارة التى كان يسكنها بالجيزة وجدت كثيرين مثلى يقولون له: يا أبى، أولاده وأولاد أخيه الذى توفى صغيرا، وترك له أطفاله أمانة فى عنقه وكان هناك كثيرون خارج بيته يقولون له يا أبى: مكوجية وصبية بقالين وباعة جرائد وجرسونات فى المقاهى، وأفنديه وطلبة فى المدارس والجامعات.

كانوا جميعا يقولون له: يا أبى!

لأنه كان حنونا صادقا فى حنانه وكان لا يهتم بشىء فى الدنيا مثل اهتمامه بأن يبتسم لأولاده الكثيرين الذين التفوا حوله وطلبوا منه أن يكون لهم دليل فى طرق الحياة الصعبة!

ثم يتذكر رجاء النقاش ما جرى فى لقائه والطيب صالح بزكريا الحجاوى إبان إقامته وعمله فى الدوحة . . يقول :

عندما رأيته آخر مرة فى مثل هذه الأيام فى قطر . . كنا فى بيته وكان معنا الطيب صالح وكنا نسمع الألحان والأغانى التى جمعها زكريا من قرى مصر وأخذها معه، حتى لا يشعر أنه ابتعد عن حبيبته يوما واحدا من أيام الزمان .

كان الطيب صالح ـ بكل ما فيه من جمال وصدق واتزان ـ مفتونا بهذه الظاهرة البديعة التى اسمها زكريا الحجاوى .

وقضينا الليلة الرائعة يا زكريا فى بيتك نسمع تلك الأغانى والألحان الجميلة ونسمع تفسيرك وشرحك . . وكنت فى الشرح والتعليق جميلا مثل تلك الأغانى والألحان، وكنت تربط بين تلك الأغانى وبين الشعر العربى القديم . . لأنك من المؤمنين الكبار بمصر والمؤمنين الكبار بالعروبة ولأنك ممن لديهم عن عروبة الوجدان المصرى وثائق ومستندات .

وقرأت لنا يا زكريا شعرا عربيا دائما كنا نسمعه لأول مرة . . ولا أذكر نص الأبيات ولكن أذكر المعنى، فقد كانت الأبيات لشاعر يقول لصاحبه عندما اقتربا من بيت الحبيبة : لقد اقتربنا، فهذا الهواء، أعرف رائحته «فهو هواء أحبابى . . هذا ماؤهم وشرقت إن لم تسقنى» .

يا لروعة الشعر الشعبى والشعر الفصيح على فمك يا زكريا!!

يا حلاوة الكلمات العربية من لسانك يا أبى .

يا . . يا حسرتى على كل دقيقة لنا معك أيها القلب الغنى بالحب والفن والحنان .

طلع علينا الفجر . . وكنت مع «الطيب» أستمع إليك ثم عدنا . . فقد كان من الضرورى أن أسافر فى الصباح الباكر إلى القاهرة .

وفى الصباح الباكر جئتنى مع ابنتك وحبيبتك «نعمة» لتوصلنى إلى المطار وضحكت

يومها من قلبى لأنى أعرف أنك أكسل خلق الله فى المجاملات والشكليات ولكننى بعد قليل فهمت!!

لقد كنت أحمل معى رائحة التراب الذى تحبه، تراب مصر، من أجل ذلك جئت تودعنى، وتشم الرائحة قبل أن أتركك وأعطيتنى فى ذلك اليوم حقيبة حمراء كانت مليئة بأدوية ضد الزكام أرسلتها لأبنائك وأحبابك فى مصر.. خوفا عليهم من زكام الشتاء.. الحقيبة الحمراء وصلت يا أبى يا حبيبى وسوف يعالج أولادك أنفسهم من الزكام الذى كنت تخاف عليهم منه كلما أقبل الشتاء واشتد البرد واسود السحاب.

لماذا يا أبى تموت غريب الدار؟

من الذى كان معك عندما نقلوك المستشفى؟

وماذا قلت فى اللحظة الأخيرة قبل أن تموت؟

وهل كنت لا تزال عاتبا حزينا قبل أن تفارق جفونك الحياة وترحل؟

ولماذا لم تحضر على قدميك إلى مصر قبل أن ترحل؟

أو لست أنت الذى طالما أحس بالأحداث قبل أن تقع، أولست الذى يقرأ بقلبه صفحة الأيام ويحس بما تخفيه السطور؟

أولست حاملا الدكتوراة من الله كما قلت أنت يوما عن سيد درويش؟

لماذا يا أبى ترحل وحيداً غريب الدار؟

لماذا؟

خاتمة المسيرة لصاحب السيرة

هكذا عشت فى أجواء الصحبة الجميلة وذكرياتها المفعمة بالحب والشجن عبر استدعاء مشوار العطاء الخصيب لعمنا.. وأبينا.. وحامل طموحاتنا وهمومنا أستاذنا طبيب الذكر.. زكريا الحجاوى و.. هكذا أوفيت بدينه الذى ظل يطوق عنقى منذ رحيله عام ١٩٧٥ عبر هذا الكتاب الذى اختلسته من حومة المرض ورقاده الممض!

كان قلبه ينبض دوما بمصر وبالإنسان، فأحبته مصر. . وأحبه الإنسان، رغم كل ما لاقاه من الذين لم يعرفوا قدر مصر ولم يحبوا الإنسان. . فكان طبيعيا ألا يفهموا زكريا الحجاوى ولا يحبونه!

وإذا كان التاريخ قد منحنا الكثير من الحكمة ودروسها المستفادة، من هنا نحسب أنه رغم الصدأ والغبار الذى ران على سيرة حياة وعطاء الكثير من العمالقة لفترات قصرت أم طالت، تظل المعادن الأصيلة تلمع وتتلألأ وسط الظلام، وترفض أن تستجيب للضياع والنسيان كما حدث لأكثر عمالقة مصر شبها بزكريا الحجاوى فى هذا العصر. . وهو الفنان الخالد سيد درويش!

وهذا الكتاب مجرد خطوة على الطريق، ومفتاح أمام الاجتهاد وسبر أغوار وتقييم الجهد المضنى، وذلك العطاء والإبداع الخلاق الذى خلفه وراءه، ومناراته الباقية المضيئة على درب الثقافة والمعرفة والتنوير، ولعله من هنا يحدونا الأمل أن يتوافر الكتاب وعشاق الفنون والآداب الشعبية على دراسة أعماله وبحوثه ومقالاته ودوره الريادى فى هذا المجال الحيوى، خاصة فى وقت وظروف تكاد تنطفئ فى أجوائها الآمال، بل وتكاد سحابات اليأس تطوى فى ظلماتها قيم الحب والانتماء!

وصدقونى. . فقد اعتصر قلبى الألم واللوعة بينما أجرجر قدمىّ سيرا وراء نعش الأب الذى علمنا. . وجمعنا. . وبث فينا طاقات الحب والحماس، لكأن عودته جثة هامدة من منفاه فى قطر، عنوانا يؤرخ للوداع بغير وداع، حتى نواصل المسيرة، ونثق بأن طريقه هو الطريق. . ومصر هى مصر. . وستبقى هى مصر. . وليس بوسع كائن من كان أن يطفئ إشعاع شمسها، أو يحجب أنوار قمرها. . أو يدوس على البذور النابتة والأشجار المثمرة التى غرسها على شاطئ نيلها!!

وأسائل نفسى كلما التقيت بواحد أو جمع من أحبابه وصحبته وتلاميذه، عن ذلك السر التلقائى الذى يؤجج ذكرياتنا عنه، إلا لأنه كان حانيا علينا، أم لأنه راهب الفن الشعبى وشيخ مشايخه، أم لأنه قارئ المكتوب على جبين مصر، ومكتشف أسرار العاشقين. . أم لأنه الفنان الذى ألهب القلوب بحب مصر؟!

وكان زكريا الحجاوى كذلك فى ذلك كله. . يرحمه الله وواأسفاه على زمانه الجميل!

رقم الإيداع ٢٠٠٦/١٣٧٧٢
الترقيم الدولى ISBN 977 - 09 - 1612 - 9

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)

هذا كتاب شائق وممتع، عن واحد من العبقريات المصرية التي شقت لنفسها طريقا منفردا غاية في الإثارة خلال النصف الأخير من القرن العشرين.

كان زكريا الحجاوي صحفيا لامعا ورائدا في فن القصة القصيرة، وكان شاعرا وقاصًا ومبدعًا إذاعيا ومسرحيا ومحدثا وموسيقيا ومخرجا، وكان إلى ذلك كله صاحب مدرسة ثقافية أشبه بالطريقة الصوفية التي كانت تجمع المريدين حول شيخهم، فلا يكاد أي من المثقفين والمبدعين والصحفيين الذين أحاطهم بالرعاية والتوجيه، وأخذوا عنه الحكمة والعلم والمعرفة إلا ويدينون له بالفضل ويذكرون لياليه وحواراته ومآثره الثقافية التي لم يسبقه إليها أحد من أنداده ومعاصريه!

ولعله من حسن الحظ أن يتصدي لمهمة الكتابة عنه واحد من أخلص أصدقائه وتلاميذه وهو الكاتب الكبير الأستاذ يوسف الشريف المعروف بإصداراته الممتعة عن صعاليك وظرفاء ذلك العصر الجميل.

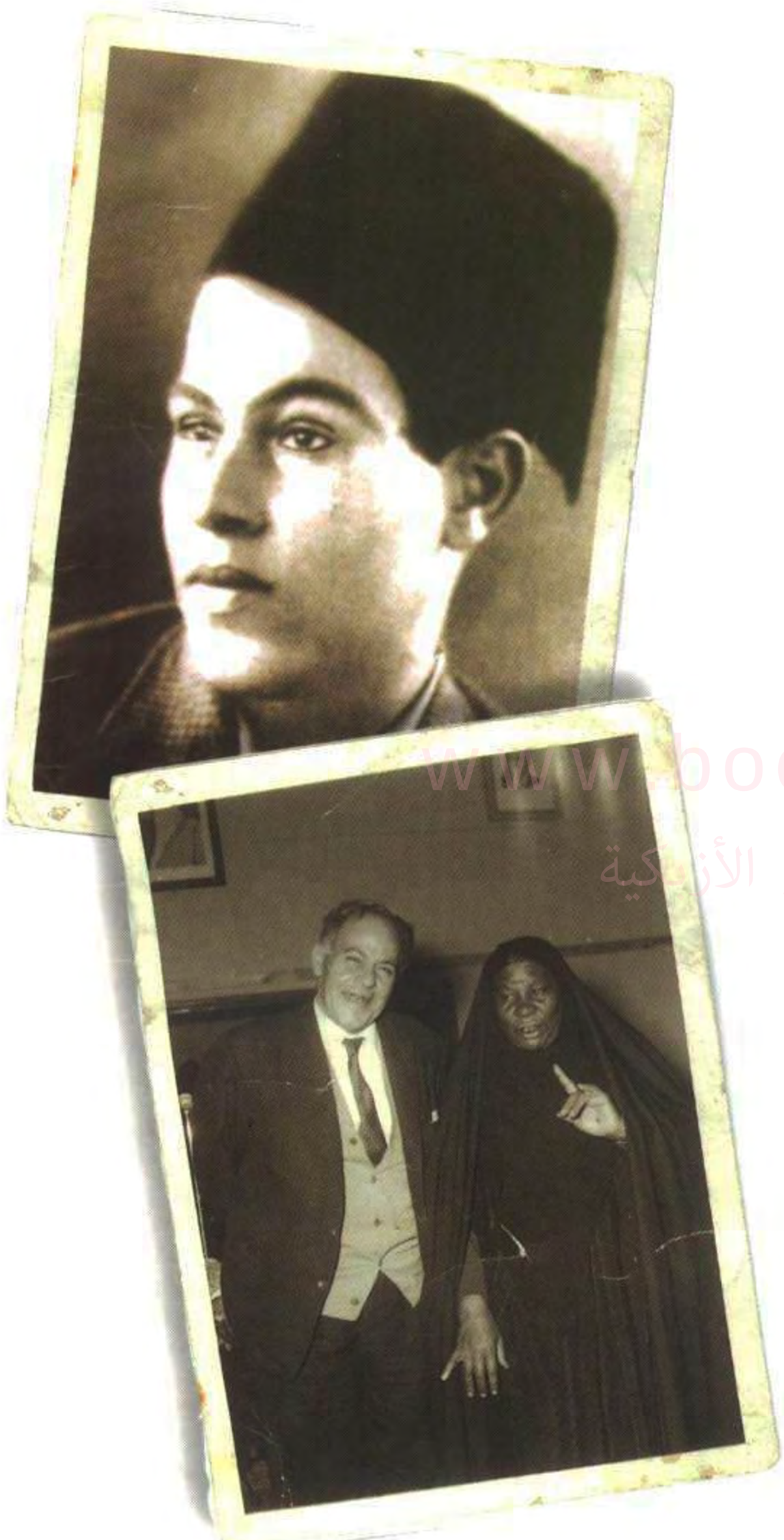

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

6 221102 015905

دار الشروق
www.shorouk.com